
موسوعة
تاريخ مصر

موسوعة

التاريخ المصري

(١٧)

ميخائيل شاروبيم بك

موسوعة

التاريخ المصري

المجلّد السابع عشر

الكافـــــي

في تاريخ مصر القديم والحديث

الجزء الرابع - ٣ -

عن فترة من ١٨٠٠ م إلى سنة ١٨٩٠ م

١٢٢٠ هـ إلى سنة ١٣٠٩ هـ

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	موسوعة التاريخ المصري
اسم الكتـــــاب:	الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث الجزء الرابع ـ ٣ ـ
اسم المؤلـــف:	ميخائيل شاروبيم بك
قيـاس الكتـاب:	١٧ × ٢٤
عدد الصفحـات:	١٧٢
عدد صفحات الموسوعة:	٨٨٤٠
مكـان النشـر:	بيروت
دار النشر والتوزيع:	دار نوبِليس
تلفاكس:	٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١
هاتــف:	٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ ـ ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١
صندوق بريـد:	٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولى:	٢٠١٢

EAN 9786144031339

ISBN 978-614-403-133-9

(مطلب)

تعدي العساكر الإيطالية على مصوع واحتلالها عنوة وما جرى

وبينما كان المبعوث الإنجليزى ورجال الحل والعقد فى مصر يراقبون حضور مبعوث السلطان وأهل البلاد يرجون النفع من وراء هذه النهضة إذ جاء الخبر من عامل الخديوى على مصوع بأن الجيوش الإيطالية التى كانت ضاربة حول البلد قد دخلتها وأحاطت بأماكن ودواوين الحكومة وطلبت من محافظ البلد الجلاء العاجل عنها بمن معه من المرابطين وتسليم القلاع والحصون إلى قائد الإيطاليان فمانع المحافظ فى ذلك وقال: إنه لا يفعل حتى يأتيه الآمر من الخديوى فشدد قائد الإيطاليان فى الطلب وأغلظ فى القول وهدد المحافظ بإطلاق القنابل من مدافع السفن على الحصون حتى يدمرها إن هو أصر على الامتناع فلم يسع المحافظ إلا الانسحاب بمن معه من الجند وبارح البلد وانحدر إلى سواكن، فلما شاع خبر هذا الحادث هاج الناس وماجوا وطاف نساء وذرارى الضباط وأصحاب الوظائف الذين بمصوع يتساءلون عما جرى لرجالهم وهم فى ولولة وضجة واجتمع الوزراء كافة وبينهم الخديوى وتكلموا فى الأمر طويلاً ثم اتفقوا بعد جدال على أن يحتجوا على عمل دولة إيطاليا هذا ويرفعوا الأمر إلى الباب العالى ليرى رأيه فيه مع سفراء الدول الكبرى بدار السلطنة وظنوا أن الغازى مختار باشا لا يفد إلى مصر إلا ومعه علم ما كان وما سيكون من أمر هذه المحن المتتابعة. فلما كان ثانى عشرى ربيع الأول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية وصلت السفينة عز الدين إحدى البواخر السلطانية تقل الغازى مختار باشا مبعوث السلطان فقابله الوزير نوبار باشا وسائر النظار وذو الفقار باشا كبير التشريفات فى أبهة وجلالة وأطلقت المدافع لقدومه من قلاع وحصون الإسكندرية، وكان فى انتظاره العدد العديد من العلماء والوجهاء وأعيان البلد فبعد أن سلموا عليه جميعاً بات ليلته تلك بالسفينة وأصبح فسار بمن معه من رجال الوفد ونسائه وخدمه وأتباعه إلى محطة السكة الحديد فحملهم القطار إلى القاهرة، وكان فى انتظاره الأمراء والكبراء والعلماء والوجهاء فسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع إلى سراى الإسماعيلية التى أعدوها لنزوله ولم يستقر به المقام حتى زاره المبعوث الإنجليزى ولبث بحضرته برهة لطيفة وكذلك زاره العلماء

والوجهاء وأصحاب الوظائف على اختلاف طبقاتهم، ثم زار الخديوى فى ثانى يوم ولبث معه برهة وعاد إلى مقره فرد له الخديوى الزيارة وهو فى موكب التشريف، ثم بعد أيام قلائل جعل الغازى يوالى الاجتماع بمبعوث الإنجليز ويتكلمان فى أمر الإصلاح وفى أوجهه وأسبابه وظلا على هذه الحال أياماً. وجلسا يوماً يتكلمان فقال الغازى لولف: لا أخفى عليك أن حالة البلاد الآن داعية إلى تجييش جيش مناسب تسلم قيادته لقواد من أهل الخبرة والتجربة من المسلمين ليتولى إرجاع الأمور فى الديار السودانية إلى سابق مجراها والزحف على بلادها كلما سنحت الفرص. فقال ولف: إن الاتفاق مع أمير المؤمنين مبنى على اتخاذ الوسائل السلمية لا على تجنيد الجنود وتسليح العساكر وإرسالها لقتال العدو فقال الغازى نعم إنى لم أتعود أن أروى غير الحقيقة وقد يمكن أن يكون مولاى الخليفة يظن ذلك فعلىّ أن أرفع إلى سدته الملوكانية ما أراه الآن من استحالة إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه بالوسائل السلمية ما لم تعضدها قوة عسكرية، فقال ولف: ومن أين المال للنفقة؟ فقال الغازى: إن شاءت الدولة الإنجليزية مساعدتنا فالأمر دين والنفقة متيسرة وما عليها إلا أن تعطينا ما تأخذه من خزينة البلاد نفقة على جيشها المحتل الآن مصر. قال محدثى: فسكت عند ذلك السير ولف وأطرق لحظة ثم رفع رأسه وقال: سأكتب بهذا القول إلى صاحب سياستنا وأنتظر الجواب فإذا جاءنى اجتمعنا وتناقشنا فى الأمر.

واتفق فى هذه الأثناء أن تقدمت طائفة من العربان وجماعة من الدراويش أنصار المهدى إلى مواقع العساكر المصرية والإنجليزية الضاربة على الحدود فعاثوا فى ذلك الصعيد فقامت عليهم العساكر وضربتهم ومزقت جمعهم وتأثرتهم فاسترجعت منهم عدة مواقع وكثيراً من القرى والبلدان الصغيرة ومازالت تطاردهم وتعمل فى أقفيتهم السيف حتى صارت على أبواب دنقلة ووردت الأنباء بذلك إلى القاهرة من عاصمة الإنجليز لا من الحدود ففرح الناس فرحاً عظيماً وتعلقت آمالهم بقرب دخول العساكر المصرية دنقلة وإرجاعها إلى حوزة الحكومة وجعلها مقراً للحركات العسكرية ووردت رسائل التهانى على الخديوى من كل فج عميق فلم تكن إلا أيام حتى جاء الأمر من اللورد سلسبورى زعيم السياسة الإنجليزية إلى الجنرال استيفنصون قائد الجيوش الإنجليزية بالحدود أن ردّوا المقاتلين كافة عن دنقلة وأرجعوهم إلى الحدود، قيل: فراجعه الجنرال استيفنصون فى ذلك فلم يقبل وشدد فى إرجاعهم فانحدروا إلى مواقعهم الأصلية وتركوا ما كان بأيديهم من تلك المعاقل والمراكز فعاد إليها

العربان وتقـوّوا فيهـا وتترسوا وجـعلوا يراقبـون الفرصة لإعـادة الكرة على الحدود وانحدر الجنرال استيفنصون إلى القاهرة فشعر الناس بما وراء ذلك من مكنون السياسة الإنجليزية وأكـثر أصحاب الـصحف المحلية من الكلام على سـوء الأثر المترتب على هذه السياسـة وعلى بقاء العساكر الإنجليـزية فى الحدود من الاضطراب ودوام القلق رأن الحال يحتاج إلى غير ذلك.

(مطلب)

ما وقع إلى الكونت روني وكيل الفرنسيس السياسي بمصر واعتذار الوزير إليه وهو بكسوة التشريف

ولم يشـغلهم عن هذه الجلبـة إلا ما وقع لقـنصل جنرال الفرنـسيس ووكيلـهم السياسى بمصر، وذلك أنه قد جاء فى هذه الأثناء عظيم من الفرنسيس اسمه الكونت رونى لتولى منصب الوكالة السـياسية بمصر فلما وصل القاهـرة تحدد يوم لقبوله فى الموكب المعتـاد واستلام الأوراق المؤذنة بتـعيينه في هذا المنصب على الطريقـة المألوفة فلمـا حل الأجل المضـروب لذلك وتمثل القنصـل بين يدى الخـديوى بملابس الزينة والتشريف وسلمه تلك الأوراق وألقى عليـه حديث المودة وعلائق المحبة الكائنة بين حكومة مصر ودولة الفرنسيس لم تطلق المدافـع لذلك من قلعة الجبل كالمتبع فى مثل هذا الاحتـفال وانفضت الحفلة على غـير سنتهـا المألوفة ونزل القنصل إلى داره وفى قلبه ما فـيه لاسيما وأن المتولين أمـر قلعة الجبل وإطلاق مدافعهـا فى هذه الحفلات الرسمية هم جماعة الإنجليز، فما استقر بالقنصل المقام فى داره حتى كتب إلى الوزير نوبار باشا يقيم الحجة ضد ما وقع ويطلب الترضية العاجلة فانزعج الوزير أى انزعاج ورسم الخديوى بإطلاق المدافع فى اليوم الثانى استرضـاء للقنصل وتطييباً لخاطره فلم يقبل، وقال: لابد من الترضية بأن يأتى إلى دارى رئيس التشريفات بكسوة التشريف ويعتذر عـما فرط فتطلق عند ذلك المدافع ثانية. وبأن يـأتى كذلك الوزير نوبار باشا بملابس التشريف وتطلق المدافع ففعـلا وأطلقت المدافع ثانية وثالثة. واندفع أصحاب صحف الفرنـسيس ينادون بالويل والثبور على جـماعة الإنجليز بمصـر وشاركهم فى ذلك أصحاب الصحف المحليـة فاهتم السير ولف مبعـوث الإنجليز بالأمر وخاف أن يكون من وراء ذلك فشل مأموريته فسـار إلى دار قنصل جنرال الفرنسيس ومعه قائد الجيوش الإنجليزية، قيل: واعتذرا وتلطفا فى المقال. فطلب القنصل عندئذ نشر بيان

جميع ما جرى بالجريدة الرسمية فأجابا طلبه وأشار ولف على الوزير نوبار باشا بالتعجيل فى ذلك ففعل وزال الخلاف فعادت الأمور إلى سابق مجراها. وعاد ولف إلى الاجتماع بالغازى مختار باشا والمكالمة فى شئون البلاد وحاجاتها وفى قواعد الإصلاح الواجب إدخالها فى سائر دواوين الحكومة وفى تنظيم الجيش على النمط الذى يمكن معه إعادة الكرة على دنقلة ثم استرجاع البلاد السودانية إلى الطاعة وتدويخها وإرسال رسول من قبل الخديوى إلى وادى حلفا للمخابرة مع زعماء القبائل رجاء الوصول إلى تقرير قاعدة للصلح معهم وظلا على هذه الحال أياماً وجاء الطلب من عاصمة الإنجليز إلى السير افلنج بارنج قنصل جنرالهم فتأهب للسفر وقد رتب متاعه وزار الوزير نوبار باشا وبقية الوزراء وقناصل الدول فشاع الخبر يومئذ بخلعه من منصبه وأنه لا يعود إليه إلا إذا عاد ولف إلى بلاده ظافراً بما يرجونه من بعثته، فتحدث الناس فى ذلك كثيراً وقالوا إن استدعاءه فى هذه الظروف الحرجة وإفراغه من كل عمل يدلان على وقوع شىء من النفور بينه وبين السير ولف أو أنِ يكون نداء الوزير نوبار باشا المتتابع بطلب خلع القنصل المشار إليه قد أقلق صاحب السياسة الإنجليزية ومال به إلى استدعاء القنصل، وقالوا غير ذلك أيضاً. فسار القنصل من القاهرة وغاب عنها حيناً ثم جاءها وقد أعلوا منزلته وأكبروا منصبه وسموه وكيلهم السياسى بديار مصر فذهبت تلك الظنون أدراج الرياح وتم له ما أراده فى منصبه من النجاح والفلاح.

وجاء الخبر بعيد ذلك بقليل بعزم صاحب السياسة الإنجليزية على إرسال غردون الذى هو غردون باشا إلى السودان لاسترجاع من بها من العساكر والجند وغيرهم ممن يشاء الجلاء عنها ثم لم يمض إلا أيام حتى جاء الطلب فى أخريات شهر صفر من صاحب السياسة المشار إليه بتولية غردون الولاية العامة على السودان وإعطائه السلطة المطلقة فيها فأبلغ السير بارنج هذا الطلب إلى الخديوى والوزير نوبار باشا فدهشا واضطربا ومانعا فى ذلك كثيراً فلم يقبل السير بارنج وصدع بالأمر، ثم لم تكن إلا أيام أخر حتى وصل غردون إلى القاهرة فى أخريات ربيع الأول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف واجتمع بالسير بارنج فأسر إليه بارنج بكل ما قضت به سياستهم فى أصقاع السودان ولم يتصل أحد يومئذ إلى معرفة ما الذى تنويه الهيئة الحاكمة ولا ما إذا كانت شاركت السير بارنج فى آرائه أو لا. ولم يطل غردون مكثه بالقاهرة بل غادرها فشيعه الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والسير بارنج والعدد

العديد من مقدمى العساكر الإنجليـزية ولم يأخذ غردون معه فى ذلك اليوم جنداً ولا كراعاً ولا حشـماً ولا أتباعاً سوى وعاء لملابسـه ورحل إلى الخرطوم كأنما هو ذاهب إلى داره للقاء أم أولاده فتأمل.

قال صاحب كتاب السودان: فلما وصل كروسكو كتب كتاباً إلى المهدى وأرسل معــه هدية من نوع الهدايا التى تقدم إلى مـشايخ الأعراب كـالبنش وغيره وفـحوى الكتاب: إننى أعترف بك سلطاناً على السـودان الغربى كله فأنت مطلق التصرف فى أقاليمه التى هى كردفان ودارفور. قلت: وهذه هى سياسة الوزير محمد شريف باشا التى مات شهـيدها ـ قال: وإننى لما بلغنى ما أصاب أهل السـودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خـامرنى غم شديد ولذا قـد انتدبتنى جلالة ملكة بريـطانيه العظمى وإمبراطورة الهند واليًـا على السودان وصدقت على ذلك الحضرة الفخـيمة الخديوية وإننى من صـميم فـؤادى أرغب توثيق عـرى العلائق الودادية بيـنى وبين سلطتكم وأرجو أن تسمحوا بإعادة المواصـلات التلغرافية وأظن أن أدوات التلغراف قد أتلفت فى غضون تلك الخطوب، ولهذا أصدرت الأوامر إلى مركز الحكمدارية بأن يعطيكم كل ما تطلبونه من تلك الأدوات وأن يستقبل رسولكم كما يستقبل أعظم سفير، وقد داخلنى الحزن الشـديد لما علمت بقفل طرق السـودان الشرقى مما حال بـين المسلمين وبين مكة المكرمـة التى يقصدونهـا فى كل عام لأداء فـريضة الحج وزيارة قـبر النبى عليه الصلاة والسلام فـهيا بنا لفتح هذا الطريق وإلقاء السلاح وتشيـيد أركان الراحة وتوطيد دعائم السلام اهـ.

ووصلت الأخبار إلى الخرطوم بمقدم غردون وولايتـه العامة على السودان ففرح الناس بذلك فرحاً عظيماً وأملوا النجاة على يديه فوردت عليه رسائل التهانى من كل صوب فأرسل إلى أهل الخرطوم يعلمهم بتركه المتأخر من الضرائب والأموال وخراج ثلاث سنوات مسـتقبلة وبترك جـميع السودان ألغـربى إلى مدعى المهدوية واعتـباره منفـصلاً عن الخـديوية المصـرية وأن حكومة جـلالة ملكة الإنجليـز هى التى منحت المهدى هذا السلطان الواسع. وسـير كذلك إلى حـسين سرى باشا باعـتزال منصب وكالة الولايـة فاعتـزله صاغـراً وأقام بدله رجلا من الإنجـليز اسمـه الكولونيل برى كوتلجف ـ قال: وكان هـذا الرجل قد حضر إلى الخرطوم فى مهمـة سرية من قبل زعيم السياسـة الإنجليزية قبل مقدم غردون بكثير ورسم غـردون بتولية آخرين بعض الوظائف العالية ثم إنه رحل عن كروسكو إلى بربر فلاقـاه مديرها ومعه أعيان البلد

وأصحاب الوظائف الديوانية فحضهم على الولاء والإخلاص، وقال: قد تركت لكم سائر المتأخـر من الأموال الأميرية وتجـاوزت عن خراج ثلاث سنوات مستـقبلة وقد أبحت لكم الاتجار فى الرقـيق وأبطلت كل مرسوم يـخالف ذلك، ثم أهداهم بعض الهدايا النفيسة والتحف الغالية وسار عنهم قاصداً الخرطوم فكان يرى من الأهالى فى طريقه عين المقت والقلى إذ كانوا يسبونه ويكثـرون من شتمه ويقـولـون فى وجهه: قد زالت دولتكم يا كفار. قال الراوى: فـاندهش غردون من ذلك وأكبره جداً وكاد يتحقق عدم فلاحه وخيبتـه فى هذه البعثة إلا أنه تجلد واستعان بالصبر إلى أن وصل الخرطوم فجمع الأعـيان والعلماء والوجهاء والمشايخ وتلا عليـهم فرمان الولاية. ثم جعل يقول للناس: يا أهل السودان جـميعاً إن الخديوى يسلم عليكم صغيـراً وكبيراً أحراراً وعبيداً إناثاً وذكوراً وكذلك جلالة الملكة فيكتوريا ملكة دولة بريطانيه العظمى وإمبراطورة الهند. وأنكـم لاتجهلـون شفـقتـى عليكـم ومحبتـى لكـم وقـد سـاءنـى ما سمعتـه عنكم لما قامت بينكم الحرب وتعطلت تجارتكم وسـفكت دماؤكم ومنعتم من تأدية فريضة الحج التى هى من أركان الإسلام ومن زيارة قبر النبى عليه السلام، وقد ساء ذلك كلا من جلالة الملكة وسمـو الخديوى المعظم فانتدبت من قبل حكومة جلالة الملكة لأكون والياً على السودان ومرخصًا فوق العادة وقد صار فصل السودان فصلاً تامـا وفوض إلىّ الحكم المطلق عليه وقد خابرت حـضرة السيد محمـد أحمد المهدى بكنه مأموريتى واعترفت له بالسلطة المطلقـة على السودان الغربى برمته بشرط أن لا يمـد يده لغيـره. وقـد أبطلت جمـيع الأوامـر المانعـة من الاتجار فى الرقـيق وتجاوزت عن جـميع المتأخر من الـضرائب لغاية سنة ثلاث وثمـانين وثمانمائة وألف ميلادية وتجـاوزت أيضًا عن خراج ثلاث سنوات منذ أول سنة أربع وثمـانين وأمرت بإحراق دفـاتر المتأخرات وبإطلاق جـميع المسجـونين على اختلاف جـرائمهم وتنوع جناياتهم وقد عزمت منذ الآن أن لا أجعل أعضـاء حكومتى إلا من الوطنيين حيث إننى أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه وقد عينت عوض الكريم أباسن مـديراً للخـرطوم وأحسنت عليـه برتبـة الباشـوية، ولى الأمل بأن العـلائق ستصبح بيـنى وبين سلطان الغرب «يعنى المهدى» وثيقة العرى وقـد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون وتخريبها وسـحب الجنود منها لكى تتفرغوا إلى عمارية بلادكم وخرث أراضيكم وإنماء تجارتكم ومنى عليكم السلام اهـ.

قال صاحب كـتاب السودان: وكان أهل الخرطوم يسمـعون هذا الكلام وأعينهم

تذرف الدمع حزناً وإشفاقاً لأنهم كـانوا يعلمون أن دوام الحال من المحال وأن مدعى المهدوية سـوف ينحدر عليهم بخـيله ورجله فلا عهـد ينفع ولا حنان غردون يدفع. فدخل جمـاعة العلماء والوجهاء على غـردون وقالوا: إنا نموت موتاً إن أنت أتلفت شيئاً من الحصون والقلاع فـإن المهدى لا يلتفت إلى شىء مما دعوته إليه ولا يرده عنا إلا عسكـر جرار وهاهم طوائف العـربان الضاربون حـولنا متحـفزون للوثبـة علينا والإيقاع بنـا فلم يلتفت غـردون إلى قولهم ولم يحـفل به فلم تمض على ذلك أيام حتى جاء الخبر إلى الخرطوم بفشل حملة الجنرال جراهام وقتل جل رجالها. وكانت هذه الحملة قد سارت من القاهرة إلى شرقـى السودان لتمهد الطريق إلى غردون فى مقاصده فلما شاع خبر اندحارها وإثخـان رجال المهدى فيها اشتد الخوف بمن هم فى الخرطوم وأكبروا المصـيبة وانزعج غردون وجعل يتدبر فيمـا عساه أن يكون إذا امتنع المهدى عليـه وهاجمت جمـوعه الخرطوم وأخـذ من يومه يطوف الحصـون والقلاع ويتعهد المعاقل التـى كان أشار فى مقالته بفتح أبوابها وتخريـبها وسحب من بها من العسكر وبث العيون لتأتى له بأخبـار العدو من كل صوب وحدب، فكانوا يتخبطون فى القول ولا يصدقون فى الرواية حتى ضعفت منه الآمال واختلطت عليه الأحوال.

واعلم أن ذهاب غردون إلى الخرطوم فى هذه الظروف المحفـوفة بأكبر الأخطار وأعظم المكاره واندفاع أصـحاب السياسة الإنجليـزية وراء هذه الغاية ليس من الهنات الهينات ولا هو من المجـازفة أو عمى البـصيرة فى شىء وإنما هى أعـمال تشف عن عزم ثابت قوى ونية معقودة على أمر لا يقبل المراجعة وهذه النية كانت تكنها صدور أصحاب تلك السياسة من عهد محمد على باشا الكبير بل ومن قبله على عهد مراد بيك وعلى بيك الكبير فكانوا كلما لاحت لهم بارقة أمل تتـبعوها أو فرصة انتهزوها حتى أيام الخديوى إسماعيل الذى بش لهم وفـتح لهم الأبواب مرحباً فولجوها آمنين وخفض لهم جناح الطاعة فتربعوا فى مناصب الرئاسة وتصرفوا فى موارد إيراد البلاد ومـازالوا يعـملون على بلـوغ الغـاية تارة ببـذل المال وأخـرى بدهاء الرجـال وتارة باستعـمال الضغط والتشـديد وطوراً بالوعد والوعيد إلى أن أتاح لهـم القدر المقدور ظهور فتنة صاحب المهـدوية ثم اشتداد الثورة العرابية فأصـبحت حكومة البلاد وهى أشغل من ذات النحيـين فنهضوا حينئـذ إلى إظهار ما تكنه الصدور وسـيروا غردون هذا إلى الخرطوم على ما وصفنا وهم يقدرون له السلامة فى الحل والترحال ويرجون على يديه بلوغ سلطتـهم غاية الآمـال. ولأجل أن لا يفوت القـارئ معـرفة بعض

الشيء من ضروب هذه السياسة الحازمة نذكر فى فصل آت شيئاً مما جرى من أفيال هولاء القوم فى السودان على عهد الخديوى إسماعيل والله سبحانه من وراء كل عمل.

فصل

(فيما كان من دهاء رجال سياسة الإنجليز على عهد الخديوى إسماعيل)

لما فتح محمد على باشا السودان ودوّخ مدنها وبلدانها شرقاً وغرباً وملأها بعسكره وجنوده جنوباً وأنشأ عاصمتها الجديدة التى هى مدينة الخرطوم، وقد كانت قاعدتها يومئذ مدينة واد مدنى الواقعة على شاطىء النيل الأزرق جعل يولى عليها الولاة والعمال بعد ولاية الدفتردار العامة فكان جلهم على ما قاله بعض الكتاب ممن يحسنون التدبير عارفين بحاجات البلاد بعيدين عن الجور والاعتساف. فلما مات محمد على باشا وجاءت أولاده من بعده كان أكثر عمالهم أغرارا كثيرى الجور والظلم ميالين إلى أخذ ما بأيدى الناس مع غلظة وتجبر، وكان آخر من تولاها على عهد محمد سعيد باشا سنة أربع وسبعين ومائتين وألف هجرية حسين سلامة بيك.

قال صاحب كتاب السودان: كان نعم الرجل عادلاً شفوقًا على الرعية، وكان يسمى يومئذ مدير عموم قبلى وبحرى السودان وبقى الرجل وبقيت الولاية بهذا الاسم حتى تولى الملك الخديوى إسماعيل فجعل يبدّل ويغير فى الولاة وليس بينهم من تحمد أيامه أو تشكر أحلامه إلى أن تولاها جعفر باشا المعروف بالصغير فكان رجلاً عادلاً شفوقاً باراً بالرعية عارفاً بحاجة البلاد وأهلها فأقام ماشاء الخديوى، ثم عزل وخلفه عدة من الولاة على التعاقب فكان آخرهم قبل غردون الإنجليزى إسماعيل أيوب باشا وفى أيامه بلغت سلطة الخديوى فى تلك الأنحاء أوجها وعمت كلمته أرجاء السودان شرقاً وغرباً وجنوباً إذ تتابعت غزوات عسكره وأوغلت فى أقاصى البلاد طلباً للمزيد من الفتح فكان أصحاب سياسة الإنجليز وأقطاب القوم منهم ينظرون إلى فعاله بعين السخط ويحسبون لها حساباً كبيراً وجعلوا يعملون على ما تقتضيه مصلحتهم ويتدبرون لمستقبل الأيام فأرسلوا الكشاف والرواد من طريق

الزنجبار ورأس الرجاء بعضهم فى زى المبشرين بالنصرانية، وبعضهم باسم علماء الآثار وأصحاب علم طبقات الأرض، فلم يتم لهم ما أرادوا فعمدوا إلى الحيلة والتدبير وجاءوا الخديوى إسماعيل من أقرب المسالك وأحبها إليه فزينوا له المزيد من فتح تلك الأصقاع واستكشاف مجاهل خط الاستواء وما فى جوف أرضه من معادن الذهب والفضة والحديد والفحم ومازالوا به حتى ظفروا منه ببغيتهم وساعدهم على ذلك ما كان فيه يومئذ من التورّط فى الدين لأصحاب الأموال من الإنجليز والفرنسيس ثم إنهم سيروا إليه رجلاً من أقيالهم العارفين بمناحى سياستهم ومرامى غايتهم اسمه السير صمويل بيكر فتلقاه الخديوى على الرحب والسعة فأقام بالقاهرة أياماً، وكان قد أتى معه من ديار الإنجليز بشيء من الهدايا والتحف برسم زعماء قبائل السودان ومشايخ أهلها وأدلاء دروبها ومسالكها وهى أصناف من الخرز والجلود المصبوغة والفراء والقبعات الحمر والأساور والأقراط والخواتم والقلائد من الصفر والأحذية وشقق الكتان والخناجر والسكاكين والشيء الكثير من ألاعيب الأطفال كالأكر والمزامير والصفافير والعصىّ والسياط فاستصحب كل ذلك وبارح القاهرة على عجل وما برح سائراً حتى تغلغل فى جوف السودان وأوغل فى مجاهل خط الاستواء فبحث ونقب وراد الطرق واستكشف المسالك واستمال بعض زعماء القوم وعرف الشيء الكثير من طباعهم وعاداتهم وما يميلون إليه وما ينفرون منه. قيل وعاهد بعضهم على الولاء والإخلاص للسلطنة الإنجليزية وعاقدهم على ما لم تصل إلينا معرفته وبعد أن لبث بتلك الأصقاع ماشاء هو أو ما شاء صاحب سياسة الإنجليز قفل راجعاً إلى قومه بسلام فلم تكن إلا فترة بعد ذلك حتى أخذ قنصل جنرال الإنجليز بالقاهرة يصبح الخديوى ويمسيه فى طلب معاقدة دولة الإنجليز على منع الاتجار فى الرقيق وقطع شأفة النخاسة من أرجاء السودان المصرى فكان الخديوى يماطل ويحاول والقنصل لا ينفك عن الطلب ولا ينثنى له عزم دون نوال هذا الأرب حتى فاز وغلب . وتم التعاقد على شروط أقل ما فيها من الحيف أن صار لأمراء سفن الحرب الإنجليزية تمام السيطرة على سائر السفن والشوانى الحاملة للراية المصرية بالبحر الأحمر وحق التفتيش عليها وضبط ما يوجد بها من الإماء والعبيد وتحريرهم ومصادرة كل ما كان بها من مال ومتاع ومعاقبة أصحابها بالعقوبات الشديدة. فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذت أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية نشوة الفرح فتهللوا وأيقنوا بالفوز والغلبة ونحن المصريين لاهون عما سيكون من وراء ذلك فى مستقبل

الأيام. ثم رسم الخديوى إلى عماله بالسـودان أن يعملوا بنصوص تلك المعاهدة وأن لا يخالفوا شـيئاً من أحكامهـا فصدعوا بالأمـر وذاع خبرها فى البلاد شـرقاً وغرباً وجنوباً فلم تكن إلا أيام حتى ظهرت على وجوه السود علامات الوحشة والانقباض وبدأت إشارات الخروج أو كادت ووقفوا فى وجـه أصحاب الجباية الذين عم شرهم يومئذ وثـقل نيرهم على الأهلين، لأن القوم رأو أن منع المتـاجرة فى الرقيق مصـيبة كبرى لأن هذا الاتجار مـعين ثروة كبيرة لهم فضلاً عـن أن أهل السودان لم يتعودوا خدمـة الأرض بأيديهم ولا خدمـة ماشـيتـهم بل أن نساءهم قلمـا يؤدين شيـئاً من الخدمات البيتية وكل اعتمادهم فى زرع الأرض وتربـية الماشية والخدمة البيتية إنما هو على أولئك الإماء والعبيد.

ولما تم للإنجليز مـا أرادوا من أمر تلك المعـاهدة أوعزوا إلى قنصلهم يومـئذ أن كلم الخديوى فى ارسال رجل مـنهم إلى مجاهـل خـط الأستواء مـرة ثانـيـة ليحيى ما إندرس من معالم المدنيـة التى كان وضع أساسها فى تلك الأنحاء السـير صمويل بيكر ولكى يقطع شأفة الاتجار بالعبيد ويسد المسالك على القوافل التى تقوم بالنخاسة ففعل القنصل وأكثر من ملازمة باب الخـديوى إسماعيل والخديوى لا يجهل ما وراء ذلك فكان يطاول ويمنى القنصل بالمواعيد والقنصل لا ينكف عن الطلب حتى أذعن الخديوى، فأتوا له برجل من كـبار عسكرهم اسمـه الكولونيل غردون «وهو غردون هذا الذى نحن بصدد الكلام عليـه» فرسم له الخديوى بالولاية على سـواحل البحر الأحمر التى هى شرقى السودان المصرى فـتولاها حينا وكأنه لم يطب له المقام هناك أو كأن لم يحسن فى عينى زعيم السياسة الإنجليزية أن يرى سلطة صاحبهم وتعاليمه لا تتجـاوز شرقى السودان فوردت حـيئنذ كتـبه على الخديوى بطلب توليـة غردون الولاية العامة على خط الأستواء ومـا يليه. وكانت الديون الى هذا الحين قد أثقلت كاهل الخزينة وأمحلتها فأصبحت وهى بين أيدى أصحاب الديون من جماعة الإنجليز والفرنسـيس كالريشة فى مـهب الرياح، فكان الخديوى يبـذل فى مرضاة أصـحاب سياسـة الدولتين كل مرتخص وغال عسـاهم يدفعون عنه بعض ما يعـانيه من جور الدائنين فلم ير بدا يومئذ من إجابة طلب صاحب سياسة الإنجليز ورسم إلى غردون بالولاية على خط الأستـواء فى أخريات سنة تسعين ومائتـين وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وثمـانمائة وألف ميلادية فسار غردون إلى الخـرطوم على الطائر الميمون فتلقـاه إسمـاعيل أيوب باشـا والى السودان يومـئذ وبالغ فى إكرامـه وأطلق المدافع

إجلالاً لقدومه وأنزله على الرحب والسعة بالقصر المعروف بقصر راسخ بيك فلبث به أياماً ثم سار بمن أخذه من العساكر والجنود إلى فشوده ومنها إلى منزلة سبت التى هى أول بلاد خط الأستواء شمالاً فأمر ببناء القلاع والحصون فيها وحفر خندقاً عظيماً وجعلها مقراً لحكومته الجديدة، ثم رحل عنها بعد أيام إلى جبل الرجاف وكندكور التى كانت مقراً لأستاذه السير صمويل بيكر من قبله ومازال يتنقل من مكان إلى مكان ويأخذ العهود على من يلتقى بهم من زعماء القبائل والمشايخ ويقيم الولاة والحكام من صغار ضباط الجند وممن كانوا فى خدمة صمويل بيكر حتى قامت فى وجهه قبائل العبيد وقاتلت عسكره قتالاً عنيفاً ومازالت تقاتلهم حتى هزمتهم العساكر شر هزيمة وأخضعتهم بغير عهد ولا ذمة، وظل غردون يجوب البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى نزل على بلاد الملك أمبته صاحب بلاد مرولى فعمد إلى ضم بلاده الواسعة إلى فتوحاته وهمّ بذلك، ثم علم بأن الرجل يدين بدين النصرانية وقد اعتنقها على يدى المبشرين الإنجليز الذين قدموا عليه من ناحية الزنجبار فانكف عن غزو بلاده وجعل مرولى خاتمة فتوحاته.

(مطلب)

انحدار غردون بعد ذلك إلى القاهرة

فلما كانت سنة أربع وتسعين ومائتين وألف هجرية انحدر غردون إلى القاهرة وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياماً ثم برح القاهرة إلى ديار الإنجليز فلم يستقر به المقام حتى شاع الخبر وسطرته صحف الإنجليز بتوليته الولاية العامة على جميع السودان المصرى شرقاً وغرباً وجنوباً. قيل: فاندهش الخديوى ورجال دولته لأنهم لم يكونوا يعرفون عن ذلك شيئاً البتة. ولم تمض إلا أيام حتى عاد غردون إلى القاهرة فى هيبة وجلالة ودخل على الخديوى فسلمه الخديوى فرمان الولاية بيده مكرهاً فسار غردون إلى الخرطوم ودخلها فى ضجة عظيمة فدقت لمقدمه البشائر وطير الخبر بولايته إلى الآفاق فجاء مشايخ وزعماء القبائل فخلع عليهم الخلع من الاكسية والفرجيات من الجوخ الأحمر وشقائق الحرير وبالغ فى إكرامهم وفرق بعض التحف والهدايا على جماعة العلماء والوجهاء والأعيان وبعض أصحاب الوظائف فانطلقت ألسنتهم يومئذ بالدعاء له إذ كانوا لم يروا شيئاً من ذلك البتة على يد أحد من كبار الولاة قبل جعفر باشا الصغير. وكانت ولاية غردون على سائر السودان

المصرى ولاية عامة فأطلق الخديوى يده وصرفه فى سائر الأمور. قال بعض الكتاب: وهى محنة أخرى قد نزلت على هامة البلاد من سماء عاصمة الإنجليز وفتنة كبرى لا يعلم بعاقبتها إلا الحكيم العزيز، فإن غردون مالبث أن تربع فى دست الولاية حتى وردت الكتب منه تباعاً على الخديوى فلم يكن إلا شهر أو بعض الشهر حتى جاءه أمر الخديوى بضم سائر بلاد خط الأستواء إلى ولايته فرتب لها الحكام وعين جباة الأموال وسلم مقاليد المهمات إلى جماعة من الإنجليز والألمان والأميريكان والطليان ونفر من أهل البلاد كإدريس بن أبتر وغيره ممن كانوا سيارة يتجرون فى الإماء والعبيد والريش وسن الفيل وأطلق لهم الكلمة حتى تصرفوا فى سائر الأمور فعملوا لغير ما تقتضيه مصلحة البلاد وبالغوا فى منع الاتجار بالرقيق وصادروا التجار فى أموالهم وأرزاقهم وضيقوا عليهم سبل الاتجار وقفلوا فى وجههم أبواب الكسب. واستكتب غردون يومئذ رجلاً اسمه التهامى بك وجعله كاتم أسراره فتمكن التهامى هذا من قلب غردون وأخذ بمجامع لبه فكان لا يأتى أمراً إلا بإشارته ولا يعمل عملاً إلا برأيه.

قال صاحب كتاب السودان: وكان ذلك الرجل من شر الرجال وأخبثهم نية وأفسدهم طوية فسلك بغردون مسلكاً نفر منه القلوب وحرك فى صدور أهل البلاد كامن الحقد عليه وكان تشديد الحكام لا سيما من الإنجليز والإيطاليين فى منع الاتجار بالرقيق وتحرير كل من علموا بوجودهم عند ساداتهم من أهم الأسباب التى دفعت بأهل السودان إلى شق عصا الطاعة كما سيأتى بيان ذلك فى محله. إذ كان الناس هناك يحسبون أن تحرير مواليهم وخروجهم من حوزتهم على يد أولئك الأجانب اضطهاد دينى من النصرانية للإسلام وكان شيوخهم وعلماؤهم يؤيدون لهم ذلك بالأدلة المقبولة والشواهد المعقولة حتى أصبحت عندهم حقيقة لاشك فيها فكانوا يخفون ما بقلوبهم من نار التألم والحقد على عمال الحكومة ويرقبون كل سانحة حتى ظهر محمد أحمد مدعى المهدوية وأيقظ الفتنة الراقدة فهبوا جميعاً لنصرته ولبوا على الفور دعوته وبايعوه على الطاعة والجهاد ضد أولئك القوم الكافرين فلما انتشرت دعوته أو كادت عاهده حتى الذين كانوا ينكرونها عليه. وقالوا: عاهدناك سواء صدقت فى دعواك أو كذبت ما بقيت على عداء هذه الدولة الجائرة ومحاربتها. وقد بقى هذا السر مكتوماً والدعاة يجوبون البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى قامت الفتنة بين الحبشة ومصر على يد غردون بأسباب تحديد التخوم

بين المملكتين وكان غردون هو البادئ بمعاداة النجاشي والاستخفاف بشأنه استغضاباً له وتكبيراً للفتنة فلم يطق الخديوى إسماعيل الصبر يومئذ على ذلك خوفاً من استفحال الخطب وإضطرام نار الفتنة بين البلدين لا سيما وقد كانت دولتا الإنجليز والفرنسيس فى ذلك الحين تشدان عليه النكير بسبب كثرة الديون وتضيقان عليه الخناق بالبحث والتنقيب فى موارد ومصارف البلاد وتشيران من طرف خفى إلى أن خلعه من مسنده هو من الهنات الهينات. وكان قد آنس من غردون أيضاً الميل إلى الاستبداد بأمر السودان فاستقدمه على عجل فدخل غردون القاهرة فى آخريات سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية مستقيلاً من منصبه فأقاله الخديوى ورسم إلى محمد رؤوف باشا بالولاية بدله فسار رؤوف باشا إلى الخرطوم فلم يصلها إلا ودعوة المهدى قد استفحل شأنها إذ كان قد بايعه أهل الحلوين والخلق العظيم من القبائل الضاربة حول جزيرة آبا وبينهم قبيلتا دقيم وكنانة المعروفتان باسم البقارة لكثرة ماشيتهم والقوم من أهل القوة البأس والصبر فى الحروب وعاهده كذلك عظيم من السود من ذوى الوظائف الديوانية على موافاته بالأخبار والتف حوله زهاء الثلاثة آلاف من العربان كل هذا ورجال الحكومة لاهون عنه أو هم مغضون لا يريدون كشف أسراره ولا ذكر شيء من أمره حتى وردت الرسائل تترى على رؤوف باشا من بعض أعداء المهدى يعيبون فيها الحكومة على ذلك الإغضاء ويلومونها على تركها الرجل يعمل على إيقاد نار الفتنة وشق عصا الطاعة حتى ظهرت كلمته كل هذا الظهور، فأرسل رؤوف باشا الكتب بذلك إلى مدير فشوده وهو يومئذ الطيب بيك ورسم له بالقبض على ذلك الخارجى فصدع بالأمر وسار إلى آبا فى نفر من الجند وكبس الخارجى فى مقره وأمسكه حياً وزجه فى السجن أياماً. قال صاحب كتاب السودان: حتى جاء بعض أتباعه ومريديه ورشوا الطيب فأطلق لهم سراحه واستقدم الواشين وهددهم وتوعدهم إن هم عادوا إلى الشكوى، ثم أنه قفل راجعاً إلى فشوده. أما الخارجى فإنه ما أفلت من السجن حتى زاد غروره وكبرت قحته فأرسل الكتب إلى سائر من عاهدهم يقول فى مطلعها بعد البسملة والحمد له : إنه قد جاءنى النبى ﷺ فى اليقظة ومعه الخلفاء الراشدون والأقطاب والخضر عليه السلام وأمسك بيدى ﷺ وأجلسنى على كرسيه وقال لى: أنت المهدى المنتظر من شك فى مهدويتك فقد كفر وإن الترك كفار وهم أشد الناس كفراً لأنهم ساعون فى إطفاء نور الله ﴿**ويأبى الله إلاَّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾ وأخبرنى ﷺ بأن

النصر سيسير بين يدى أربعين ميلاً وأنه ﷺ يحضر بذاته الكريمة أمام جيشى ومعه الخلفاء الراشدين، وأن الله تعالى أيدنى بالأولياء والشهداء والصالحين من عهد آدم عليه السلام إلى زماننا هذا، وأن مؤمنى الجن يجاهدون معى ولا ينهزم لى جيش وأن الله ناصرى ومؤيدى على كل من حاربنى من الثقلين وأن أصحابى كأصحابه ﷺ وعامتهم أكبر مقاماً فى دار الخلد من الشيخ عبد القادر الجلى. قال صاحب كتاب السودان، وهو شيخه الذى نهاه عن الخروج فى هذه البدعة ثم طرده. قال: وأرسل نسخاً عديدة من هذا المنشور إلى أناس فى الخرطوم منهم الشيخ الأمين الضرير رئيس العلماء بالسودان وهذا أطلع عليه رؤوف باشا فرسم الباشا إلى أبى السعود بيك العقاد أحد معاونيه بالسفر وأصحابه بجماعة من الدنقليين المقيمين بالخرطوم وأنفذهم رسلاً إليه يعنى إلى الخارجى يدعونه إلى الطاعة ويحذرونه عاقبة الفتنة ويبلغونه أمر الوالى بدعوته إلى الحضور لديه فذهبوا على الباخرة الفاشر، ولما وصلوا إلى جزيرة آبا قابلهم كل من فيها بالتكبير على الكفار وكان الخارجى يتعبد فى سرداب فى الأرض فامتنع عن مقابلتهم أولاً، ثم أذن لهم بالدخول فدخلوا عليه وسيوف أصحابه مسلولة على رأسه فسألوه عن دعواه فأجابهم بمعنى ما فى منشوره فقال له أبو السعود بيك: إن الوالى يدعوك إلى الحضور لديه فقال: لا أذهب، فقال: يا سيدى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فقبض المهدى على سيف كان على فخذه الأيسر وكشر عن أنيابه وقال: أنا ولى الأمر الآن على سائر الأنس والجان فاستأذن الرسل بالانصراف فأذن لهم وهم الناس بالإيقاع بهم لولا أنه شدد عليهم فى الكف عنهم وقفلوا راجعين إلى الخرطوم.

وعلم الملتفون حول الخارجى من المريدين والدراويش بخبر رسل الوالى وما جرى لهم فخافوا شر العاقبة وأيقنوا أن الحرب قائمة لا محالة وأن لا قبل لمدعى المهدوية على الوقوف فى وجه العسكر المصرى فتفرقوا عنه وتركوه مع نفر من أقاربه وخواص مريديه من الدناقلة وهؤلاء أيضاً كانوا يتوقعون القتال فى كل يوم. ووصل رسل الوالى إلى الخرطوم وأخبروا بما جرى لهم فسير الوالى طائفة من العسكر ومعهم مدفع لقتال ذلك الخارجى ومن معه والإتيان به حياً فخرجوا فى أخريات رمضان من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف قاصدين جزيرة آبا فوصلوها قبيل الغروب، وكان الوقت صيفاً والأمطار تهطل غزيرة والأوحال تملأ الطرقات فلم يتم نزولهم من السفن التى كانت تحملهم حتى اختلف الضابطان اللذان كانا يقودان هذه

الحملة على من منهما يتولى الرئاسة واشتد بينهما الخلاف حتى باتوا جميعاً فى مكانهم تلك الليلة بعد أن وضعوا أحمالهم والتموا حولها فعلم الخارجى بخبرهم وبث حولهم العيون وهم نيام لا يشعرون ومازال يراقبهم بمن معه من المقاتلة حتى بعد ما نصف الليل فانقض عليهم حينئذ وأعمل فيهم السيف فلم يفلت منهم إلا بضع نفر منهم أبو السعود بيك وغنم الخارجى جميع متاعهم وكراعهم وسائر ما كان معهم وعاد أبو السعود وأخبر بما جرى فعم حينئذ الخوف وذاع خبر هزيمة العسكر فى أكثر البلاد السودانية فجعل التجار من الأجانب والأهلين يرحلون من المدن والقرى ويأتون إلى الخرطوم وأسيوط والقاهرة وغيرها وارتبك رؤوف باشا وتحير فى أمره وكأنما كان يعتقد سراً بصحة مهدوية ذلك الخارجى فلم يأت شيئاً من الحزم أو حسن التدبير سوى أنه أرسل طائفة أخرى من الجند لحصار جزيرة آبا وأرسل إلى مدير كردفان فى طلب النجدة العاجلة وكان المهدى لما ظفر بالعساكر المصرية فى تلك الواقعة حسب وما رواه ذلك فجمع إليه أصحابه وقال لهم: أن رسول الله ﷺ يأمرنى أن نعمل العبج «قال صاحب كتاب السودان وهو نوع يشبه الفلين لخفته وطفوه فوق الماء» مركباب لنعبر بها النيل إلى الجانب الغربى وإن الله تعالى سيأخذ على ناصية الترك الكفار لا يقدرون على إيصال الأذى إلينا حتى نبلغ مأمننا من الجانب الغربى ومن هناك نتوجه إلى دار هجرتنا بجبال ماسه وقدير وهى دار هجرة الأنبياء كلهم إلا نبينا محمداً ﷺ ففرح أصحابه بذلك وعملوا شيئاً كثيراً من تلك المراكب وعبروا النيل فلم يأذن رؤوف باشا لقائد العسكر الذى كانوا يحاصرون الجزيرة بتدمير تلك المراكب وكأنما كان يعمل فى ذلك الحين بمشورة ججلر باشا الألمانى وكيل الولاية وهو تلميذ غردون فى سياسة السودان وغرس نعمته فما استقر الخارجى بالجانب الغربى حتى جاءته رجالة دقيم وكنانة والتفوا حوله وبايعوه على السمع والطاعة والجهاد فى سبيل الله ثم قدموا له الأقوات. قال صاحب كتاب السودان: وكانت البيعة هكذا بايعنا الله ورسوله وبايعناك على طاعة الله وأن لا نسرق ولا نزنى ولا نأتى بهتاناً نفتريه ولا نعصيك فى أمر بمعروف ونهى عن منكر، بايعناك على زهد الدنيا وتركها وأن لا نفر من الجهاد رغبة فيما عند الله اهـ.

وكان الذين بايعوه فى ذلك اليوم زهاء عشرة آلاف مقاتل مدججين بالرماح والسيوف الهندية وبينهم جماعة من الفرسان، ثم ساروا معه إلى جبال ماسه وقدير فعارضهم قبائل النوبة الساكنة هناك وقاتلوهم أياماً كانت الحرب فيها سجالاً، ثم

حلت الهزيمة بأهل الجبال فأذعنوا وأطاعوا فتركهم ومر بجبال تقلى فلم يتمكن من إخضاع أهلها لأنهم أصحاب بأس وقوة فى الحروب، وشاع الخبر بما جرى حتى بلغ كردفان فقويت عقيدة أهلها فى مهدويته وتاقت نفوسهم إلى نصرته وتحققوا خلاصهم على يده من ذل الولاة والحكام فهرعوا إلى قدير ليبايعوه. قال صاحب كتاب السودان: وفد عليه زعيم قبيلة الحوازمة الذين هم البقارة وزعيم قبيلة القديات وكل منهما فى مائتى فارس من أشجع فرسان قومهم وأصبرهم على القتال فأحسن لقائهم فبايعوه على السمع والطاعة. قيل: وقال له زعيم قبيلة الحوازمة أبايعك على المهدوية وإن لم تكن مهديا أبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها فتقوت بهؤلاء القوم عزيمة الخارجى وأنصاره ووقعت مهابته فى قلوب أهل الجبال المجاورة فكان إذا تحرك جماعة منهم إلى قتاله نزل عليهم وهزمهم شر هزيمة. وفى هذه الأثناء كان قد خلع السلطان الخديوى إسماعيل من مسند الخديوية وتولاه ولده محمد توفيق باشا وكان ما كان من ظهور الثورة العرابية وعجز الحكومة يومئذ عن قطع شأفة المهدوية فلما كانت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية جاء الأمر إلى رؤوف باشا بالتخلى عن الولاية فاعتزلها وسلم مقاليدها إلى ججلر باشا وكيلها وسافر من فوره إلى القاهرة يريد لقاء عبد القادر باشا الذى تولى الولاية العامة بدله فجعل ججلر يتصرف فى الأمور كما يشاء وأرسل يوسف باشا حسن الشلابى فى جيش ضخم لقتال المهدى فظفر به المهدى وفتك بعساكره فتكاً ذريعاً وأخذ جميع ما كان معهم من متاع وسلاح ودواب للحمل فعظمت بذلك قوة الخارجى واشتدت ظهور أصحابه وكثرت لمومه وعمت بيعته سائر الأصقاع السودانية أو كادت فتاقت نفسه إلى التشبه بالخلفاء الراشدين وترتيب أصحابه وأنصاره على طريقة المجاهدين فى أيام عمر بن الخطاب . قال صاحب كتاب السودان: وكان الذين يعتمد عليهم فى سائر أموره خمسة أولهم الخليفة عبد الله التعايشى فعقد له لواء أسرد على جميع المقاتلين معه من قبائل السودان الغربى ولقبه بخليفه الصديق، والثانى الخليفة على بن محمد حلو وعقد له لواء أخضر على المقاتلين من القبائل التى تسكن ضفتى النيل الأبيض والجبال الواقعة حول جبل قدير ولقبه الخليفة الفاروق، والثالث ابن عمه الخليفة محمد شريف بن حامد وجعله مقدماً على سائر من معه من أهالى الخرطوم وبربر ودنقله وسنار ولقبه بخليفة الكرار، وجعل الزعامة العامة لأخيه محمد عبد الله ولقبه بأمير الجيوش المهدوية، وولى رجلاً اسمه أحمد بن سليمان من قبيلة المحس أمانة

بيت المال فكان أحمد هذا من أقرب المقربين إليه وأصدقهم فى طاعته وأحفظهم لسره وأطلعهم على سائر عوراته. قال: وهؤلاء هم الخمسة الذين كانوا موضع ثقته اهـ.

وما ذاع خبر انتصار أصحاب الخارجى على جيش الحكومة بين أهل البلاد حتى خرج على عمال الحكومة وأصحاب الجباية كل من فى قلبه مرض وكالوا لهم بالكيل الوافى وزحف رجل اسمه عامر بن المكاشفى فى لموم كثيرة على سنار فقاتل من بها وفتحها عنوة وأفحش فى القتل والنهب وسبى النساء والذرارى وجاء الخبر إلى ججلر فقام من الخرطوم فى نفر من العسكر يريد اللحاق بابن المكاشفى وإجلاءه عن سنار فسمع الصائح فى طريقه بخروج آخر اسمه الشريف أحمد طه ووقوفه فى لموم كثيرة بين الخرطوم وسنار فتربص بمن معه وأرسل إليه يدعوه إلى الطاعة فلم يذعن بل قتل الرسول فسير إليه جماعة من العسكر فقاتلوه وهزموه شر هزيمه وتبعوه حتى قتلوه ثم انقلب ججلر بمن معه من العساكر إلى سنار فأنقذها وشتت شمل من كان حولها من لموم المكاشفى وكان ابن المكاشفى قد مات قبل وصول ججلر بجراح أصابته عن دخوله سنار.

(مطلب)

وصول عبد القادر باشا إلى الخرطوم

وبينما كان أهل الخرطوم فى خوف ما عليه من مزيد وهم يتوقعون فتك العدو بهم فى كل لحظة من الزمان لخلو البلد من المرابطين وانتشار أهل الفساد وقطاع الطرق حوله وعدم وجود من يحسن التدبير عند مسيس الحاجة إذ جاءهم عبد القادر باشا فى نفر من الخدم والاتباع والكتاب فلم يستقر به المقام حتى طاف البلد وعلم ما يحتاج إليه من أسباب الدفاع فرتب العسس للحراسة فى الليل وجمع من العبيد عسكرًا لحراسة النهار والدفاع عند الحاجة وحصن البلد تحصيناً منيعاً وخندق عليه وأوقف الحرس على الأبراج فذهب الخوف من قلوب الناس وإنتشر الأمن حول البلد وخاف أهل الشقاوة وانكمشوا، ثم أرسل فى طلب المرابطين عند حدود بلاد الحبشة فجاؤا فعهد إليهم بحراسة بعض المواقع والأبواب. وكان إذ ذاك قد التهب جوف السودان المصرى جميعه بنار الفتنة وعمت دعوة المهدى سائر تلك الأطراف وخرج من كان باقياً على الطاعة وكثرت المذابح فى كل صوب وحدب. قال صاحب كتاب

السودان: فكان لا شئ أيسر من أن يهب كل من فى قلبه مرض إلى الخروج وشق عصا الطاعة فتلتف حوله اللموم من أهل حلته على أسرع ما يكون بسيوفهم ورماحهم ومؤنتهم طلباً للجهاد وغزو الكفار فيسير بهم حينئذ إلى الخارجى فى جبل قدير فيوليه الخلافة ويأخذ عليه العهد بما شاء ثم يرجع بمن معه ويقفون فى طريق الجند ويقاتلونهم أو يطاردونهم أو يهاجمون مراكزهم مستقتلين مستبسلين والدعاة يجوبون البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً يدعون القبائل إلى طاعة الخارجى حتى لم تبق قبيلة إلا استنجدوا بها ولا بيت إلا طرقوا بابه. وجاء الخبر سراً إلى عبد القادر باشا بعزم الخارجى على ترك جبل قدير والزحف على الأبيض لبقائها على ولاء الحكومة الخديوية ووجود المرابطين من العسكر المصرى بها. قال صاحب كتاب السودان: وكان زحف المهدى إلى الأبيض بدعوة من تجار كردفان وإلحاح منهم فجعل عبد القادر باشا يتأهب للقائه بالأبيض وينظم النجدات ويعد المعدات على قلة من عسكره وكان يخشى أن المهدى إذا انحدر إلى كردفان سير دعاته حول الخرطوم فيحرضون الناس على الخروج وشق عصا الطاعة فيشتغل بمن معه من الجند بإرجاعهم ويتعذر عليه حينئذ إرسال النجدة إلى كردفان، فتتمكن لوم المهدى من الفتك بمن فيها من الحامية - قال - وقد صدق ظنه فإنه ما أنحدر المهدى من قدير حتى قامت الفتنة حول الخرطوم واشتبك عبد القادر باشا معهم فى القتال واشتد عليهم واشتدوا عليه فلم يكن ليخضعهم حتى تم للمهدى الاستيلاء على الأبيض وتخريب ما فيها من آثار المدنية والعمران. ثم جعل عبد القادر باشا ينتقل من بلد إلى آخر ويلح فى قتال أنصار الخارجى ويصليهم ناراً حامية ويجد فى تمزيق جموعهم حتى تمكنت مهابته من قلوبهم مع ما كانت عليه جنوده من شظف العيش وعرى الأجساد إذ كانوا يستترون بالجلود ويقتاتون بلحوم الماشية التى كانوا يغنمونها من العدو ويعملون أحذيتهم من جلودها مع خلو أيديهم من الدرهم والدينار لعدم صرف مرتباتهم وتأخير جماكيهم الشهور الكثيرة، وكان عبد القادر باشا لا ينفك عن استعطاف رجال الدولة بمصر علهم يرثون لحالهم ويطلقون لهم شيئاً من رواتبهم. فبينما هم على هذه الحال إذ جاءه الخبر من ديوان الخديوى بأن قد قامت إلى الخرطوم حملة عظيمة من الجنود المصرية بقيادة رجل من الإنجليز اسمه هيكس وأنها على قدم السرعة وستدرك الخرطوم فى القريب العاجل.

(مطلب)

قيام حملة هيكس إلى الخرطوم

فلمـا ذاع هذا الخبـر إندهش الناس أى انـدهاش إذ مع مـا هو مـعلوم من أن الفريقين المتحاربين كليهما من المسلمين فإن الفـتنة كانت معتبرة دينية والحرب بينهما جهاداً، فكيف إذا علم أصحاب الثورة أن قواد الجيش المحارب لهم هم من الإنجليز، وكيف يكون تأجج نار الفتنة واشتداد أوارها وفوز دعاة المهدوية متى تحقق للخارجى وأصحابـه ذلك. أما هيكس هذا فهو رجل من مـقدمى عسكر الإنجليز أوفـده زعيم سياستـهم إلى أرض مصر لهذه الغاية فلم يلق عصا ترحـاله حتى طلب السير بارنج إلى الخديوى إرساله على رأس ذلك الجيش إلى السودان لإخضاع أهله والقبض على مدعى المهدوية فـأكبر الخديوى الأمـر وأعظمه وكلم الوزير محمـد شريف باشا فى ذلك فامتنع الوزير وقال: لا سبيل إليـه والفتنة دينية والرأى عندى أن نمد عبد القادر باشا بالمدد الكافى ونطلق له عنان التصرف وإلا اختلط الحابل بالنابل وتعذر إطفاء نار هذه الفتنة، فراجعه السير بارنج ووردت الكتب من صاحب سياسة الإنجليز بالتعجيل وخـروج العسكر والوزير يحـاول ويطاول. وكـان إسمـاعيل أيوب باشـا الذى تولى السودان على عهد الخديوى إسماعـيل يشغل أحد المناصب الوزارية مع الوزير محمد شريف وكان يكره ظهور كلمة عبد القادر بـاشا ويميل إلى خذلانه وحرمانه من فخر الفوز علـى الخارجى وشرف الظفـر بقطع دابر الفتـنة، فزين إلى السيـر بارنج طلب استـرجاع عـبد القادر باشـا وإرسال هيكس بدله، قـيل: ومازال هو والسـير بارنج يعمـلان يداً واحدة وبقلب واحـد حتى تم إخراج الجـيش على رغم أنف كل مكابر وكان مؤلفاً ممن كانوا يعملون فى الجيش المصرى على عهد الثورة العرابية، فسار بهم هيكس وقد أعطاه الخديوى رتبـة الباشوية فوصل بالجيش إلى الخـرطوم ومعه الشىء الكثيـر من الأسلحة والمدافع ودواب الحمل والذخـيرة وكان إلى يوم وصـوله قد تم تحصين سنار ورحل عنهـا العدو وزالت القلاقل من الجزيرة وحصر عـبد القادر باشا دعوة الخارجى فى إقليم كردفان فزال الخـوف عن الخرطوم أيضاً بمقدم جيش هيكس أوكاد. قال صاحب كتاب السودان: وكان عـبد القادر باشا قبل قدوم جيش هيكس يتمنى لو أن الحكـومة تمده بشىء من المال والرجال فـيتيـسر له إذ ذاك وضع حامـية تقاوم دعاة المهدى فى الجزيرة وحول الخرطوم ثم يتـقدم هو نحو كردفان من طريقها الشمالى الذى يكثـر فيه الماء لا من طريقها الجنوبى الذى لا ماء فـيه ولا رواء تاركاً

فى كل مرحلة يقطعها حامية تحـفظ له خط الرجعة، ثم يؤلف ممن بقى قوة للهجوم فيـهجم بها على العدو فـيمزق شـمله ويقضى عليه القـضاء الأخير ولكن قـد جاء هيكس وقضى الأمر اهـ.

وقد اشتـد العجب بالناس أيضاً من قدوم كبـير من كبار عسكر الإنجليـز اسمه الكولونيل استـيورت إلى بربر ومـعه كتاب مـن الديوان الخديوى إلى سائر العـمال يأمرهم فيه بأن يطلعوا استيورت هذا على سائر دفاتر وأوراق الحكومة وأن يصدعوا بأمره فى كل ما يطلبـه وكان مع استيورت هذا رجل آخر اسـمه داليه إيطالى الجنس ممن كانوا فى خدمة السودان على عهد الخديوى إسـماعيل، فسار استيورت من بربر إلى الخرطوم والتقى بعبد القادر باشا ولبث بها أياماً لا يعلم أحد من عمله شيئاً، ثم غادر الخرطوم إلى سنار فالقضارف فكسلة فمـصوع فمصر فاختلف الناس فى داعى حضوره فـمن قائل: إنه جاسوس جاء ليتـحقق من أمر طموح عبـد القادر باشا إلى الاستقلال بملك السـودان كما أشاع يومئذ المرجفون وهم على مـا ذهب إليه بعضهم إسماعيل أيوب باشا وأشياعه أو على مذهب غيرهم، هم صاحب السياسة الإنجليزية ورجال حزبه، ومن قائل: بل حضر ليمهد العقبات أمام جيش هيكس، ومن قائل: غير ذلك ، وعلى كل حـال فلم تكن إلا أيام بعد عودة استيـورت إلى القاهرة حتى جاء الأمر من الديوان الخديوى إلى عبد القادر باشا بالتخلى عن الولاية والعودة إلى مصر فتخلى عنها فى الحال وجعل يتأهب للرحيل، وبينما هو على هذا إذ جاء علاء الدين باشا والياً بدله فانحدر عبد القـادر باشا من الخرطوم يريد القاهرة وجعل علاء الدين يتصرف فى الأمـور، وعلم الخارجى بخبر جيش هيكس فاهتم له كـثيراً. قال صاحب كتاب السودان: وظهرت على وجوه أصحابه علامات الخوف فتطير الخارجى من ذلك وكتب يحض الناس على الغزو والجهاد فى أعداء الله ورسوله: ثم نادى فى عسكره بالخروج إلى ظاهر الـبلد وظلوا على هذه الحال زهاء ستة شهـور، فلما كان شهر ذى الحجة من السنة أى سنة ثلثمائة وألف خرج جيش هيكس من أم درمان براً وبحراً حـتى بلغ الدويم وتربص حـتى تكاملت رجاله ومـعداته وجاء الـصائح إلى الخارجى بمسير الجيش فأرسل فى الحـال رجلا من مقدمى عسكره وآخرين ممن لاذوا به من عسكر الحكومـة ومعهم أربعـون ألفا من الجعليـين والدناقلة ورسم إليهم بأن ينزلوا جميعاً بمكان يعرف بالبـساطة على مقربة من أم درمان ـ قال ـ وقال لهم: إذا سارت حملة هيكس من أم درمان فسيـروا خلفها على بركة الله واجعلوا بينكم وبين مؤخرها رمـية قوس. وخرج علاء الدين باشـا ليسير مع الجيش ومـعه بعض الخدم

والحشم والاتباع ودليلان من قبيلة الجمع قدما إلى الخرطوم بإيعاز من مدعى المهدوية ليسيرا بالجيش من أوعر الطرق وأقلها ماء ورواء، وكان هذا الجيش كما وصف صاحب كتاب السودان: مؤلفاً من ستة عشر ألف مقاتل من العساكر النظامية وألف من الفرسان لابسى الدروع والخوذ وألف من الجنود السود وكثير من الفرسان الترك غير المنظمين، وكان عدد دواب الحمل فيه زهاء الثلاثين ألف جمل ما عدا البغال ومع الجيش الشيء الكثير من الأسلحة والمدافع والمكاحل من الطراز الجديد والمؤن والذخيرة، وسار هذا الجيش الضخم من الدويم إلى شاة ثم منها إلى عقبة وما كاد يفارق النيل حتى جعل العدوّ يقلقه بالجلبة والصياح فاضطر أن يسير على شكل مربع يحيط بدواب الحمل وكان لايقدر على المبيت إلا فى داخل زريبة من الشوك فكان كل من ابتعد من العسكر عن الزريبة فى طلب الحشائش لعلف الدواب وقع فى أيدى العدو فتعذر الحصول على العلف ومات أكثر الدواب جوعاً ولحق بالعسكر ما لامزيد عليه من التعب من قلة النوم لأن العدو كان لايتركهم ينامون من كثرة صياحه وجلبته فى كل ليلة مما يضطرهم إلى التأهب والاحتياط والوقوف على قدم الاستعداد والسهر حتى مطلع الفجر.

(مطلب)

الخلاف بين علاء الدين باشا وهيكس باشا

وبينما كانت الجنود على هذه الحال من التعب وتهديد العدو لهم فى الليل والنهار بغير حرب ولا نزال كان الخلاف قائماً ما بين علاء الدين باشا وهيكس على أى منهما تكون له الرئاسة إذ كان كل منهما يزعم أنه مقدم هذا الجيش وصاحب الكلمة بين أفراده. حدثنى صاحب لى قال: حدثنى رجل ممن وقع فى يد العدو بعد هلاك جيش هيكس قال كانت فعال هيكس هذا تدل على جهله بأحوال البلاد وعادات السود وكان كثير التقلب قريب الغضب، وكان علاء الدين فخوراً مختالاً فكان إذا أبدى رأياً فى أمر خالفه هيكس وعابه وإذا أشار هيكس بشيء مانعه علاء الدين وخطأه ورماه بالجهل فظهر عندئذ من جماعة الضباط وطوائف العسكر الاستخفاف بالاثنين فنبذوا طاعتهما وقد أضناهم العطش وأنهكهم التعب وتفشت بينهم الأمراض العفنة وكثر الموات فى دوابهم لقلة العلف والماء ومازالوا والعدوّ محدق بهم من كل صوب يسيرون وهم على هذه الحال حتى نزلوا على غدير يقال له: غدير شيكان مملوء بماء الأمطار، فأقاموا عليه أياماً قلائل حتى استنزفوا ماءه

وسبقهم الخارجى بجيوشه إلى غـدير كثير الماء ونزل حوله ليمنعهم من الوصول إليه فلم يتمكنوا من اللحاق به ولم يقدروا على مناجزة العدو لضعفهم وخور قواهم وأقاموا حول غدير شيكان حـتى أكلوا طينه وأوحاله من شدة الظمأ وتمرد الجند على كبارهم وهمـوا بقتلهم مراراً. فلمـا كان يوم الاثنين رابع المحرم افتـتاح سنة إحدى وثلثمائة وألف قـاموا على ما هم عليه من الجهـد والضعف يريدون الأبيض لخلوها من رجال الخـارجى والتمـاساً للماء فـيهـا. قال صاحب كـتاب السـودان: وكانت جواسيس المهدى قد أبلغته ما هم عليـه من حالة الضعف والظمأ وأنهم قد أصبحوا جثثا لا حـراك بها فنادى فى أصحابه بالخروج عليهم فأطبـقوا عليهم من كل جانب وأعملوا فيهم السيف فلم يقدروا على الدفاع ولم يسمع لهم صوت مدفع ولا بارودة حتى أفنتهم سـيوف العدو ولم يبق منهم إلا بضع عشرات ممن اخـتفى بين الأشلاء وأمر الخارجى أتباعـه فجعلوا يحرقون جثث القـتلى من أعدائهم معللين ذلك بأنهم كفـار وقتلوا عـلاء الدين وهيكس شـر قتلة. قلت: هذه رواية، وفى أخـرى أنه لما خرج الجـيش من أم درمان على ما تقـدم ذكره سار الدليلان أمـامه فى طريق كثـير الغابات شديد المرابك والعقبـات قليل الماء والرواء والعدو من خلفه وعن يمينه وعن شمـاله يثب على مربع العسكـر كل حـين وهـم يجدّون المسير رجـاء أن يدركو الماء ويرووا بعض مـا بهم من الظمأ فلم يمـكنهم العدو من ذلك وقـد قل علف دوابهم فكثر فيها الموات وضعفت عن حمل أثقـالهم وجرّ مدافعهم، ثم تفشت فى العسكر الأمراض العفنـة وأنشب فيهم الموت أظافره ولما كـان كلهم أو جلهم من الذين كانوا فى مظاهرات الثـورة العرابيـة وكان كـبارهم ممن حكم عليـهم بالتجـريد من الرتب وألقاب الشـرف وكان انتظامهم فى هذا الجيـش إنما هو بإيعاز من صاحب السيـاسة الإنجليزية ولـنكد حظهم كان ما كـان من سوء تدبيـر الجيش وتغرير الدليـلين بعلاء الدين وهيكس أيقنوا جمـيعاً بأنهم إنما هم مسوقـون إلى الموت لا محالة فانتـقضوا وعصتوا كـبارهم وأكثروا من سبهـم وتعنيفهم وضربهم، قيل: وهمـوا بقتلهم مراراً ومازالوا علـى هذه الحال من الظمـأ والتعب والعدو مـن أمامهم ومن خلـفهم وعن يمينهم وعن شمالهم وهم لا يقدرون على دفعه حتى نزلوا على غدير شيكان فشربوا ما فيه وأكلوا من طينه وأوحاله وعيون العدو ترمقهم حتى أيقنوا أنه لم يبق فى أحد منهم شىء من القوة يدفع بهـا قاتله فانقضـوا عليهم وهم كالأموات وأعـملوا فيهم السيف حتى لم يبق منهم إلا نفر قليل ممن اختـبؤا بين جثث الأموات وقتلوا هيكس وعلاء الـدين وجمـعوا السـلاح والمتاع والمدافع ومـا بقى من دواب الحمل وقـفلوا

راجعين إلى الأبيض فرسم الخارجي بتقسيم الأسلاب والغنائم على المجاهدين والأنصار والخلفاء. وجاء الخبر إلى القاهرة بما أصاب جيش هيكس فكان لذلك رنة حزن وأسف شديدين وكثر البكاء والعويل في بيوت الضباط وكبار الجند وجلس الناس للعزاء أياماً وظن أهل الخرطوم أن الخديوي لا يلبث أن يعيد عبد القادر باشا في عسكر جرار للأخذ بالثأر وشاع بينهم أيضاً خبر عزم زعيم سياسة الإنجليز على إرسال غردون قائداً على ذلك العسكر فجعلوا يعجون ويبتهلون إلى الله بتحقيق هذا الخبر واختلط الحال على الخديوي ورجال دولته فجعلوا ينقضون اليوم ما أبرموه أمس ويتخبطون في العمل كمن فقد الرشد ووزير السياسة الإنجليزية يضرب على أيديهم ولا يمكنهم من أخذ أو رد فكانوا إذا قاموا أقعدهم وإذا قعدوا أقامهم وإذا قالوا عاب عليهم قولهم وإذا عملوا رماهم بالعسف حتى جاءهم مرسومه بالتعجيل في إخلاء الدويم وفشوده والكوه والجلاء عنهال وتركها إلى الخارجي والإتيان بحاميتها إلى الخرطوم، فصدعوا بالأمر فلم يتم الجلاء عن هذه البلاد حتى جاءهم الأمر أيضاً بإجلاء سائر المصريين عن الخرطوم وإعادتهم إلى مصر على نفقة الخزينة فصدعوا كذلك بالأمر صاغرين وأخذ الناس في الجلاء إلى بربر وأحصوا النازحين يومئذ فكانوا زهاء مائتي ألف وخمسين ألفاً، وشاع خبر ذلك في البلاد شرقاً وغرباً فأجمع الناس من ذلك اليوم على طاعة الخارجي والإسراع إلى متابعته فكان يجتمعون في القرى والبلدان ويضربون الطبول ويخلعون أثوابهم ويلبسون المرقعات التي هي شعار المهدوية ويوفدون الوفود إلى حيث الخارجي ليبايعوه ويأخذوا عليه العهد فتم إلى هذا الحين سقوط هيبة الحكومة المصرية وزوال سلطانها وذهاب نفوذها وصار حكام البلاد يذهبون بما لديهم من الأموال إلى مقر الخارجي تزلفاً وتقرباً منه فكان يمنيهم بالأماني الكثيرة، وكان ممن سُلم وتزلف وبالغ في ذلك جداً سلاطين باشا ومن كان معه من كبار العساكر وأسلم يومئذ ونطق بالشهادتين على يد الخارجي ولازم باب الخليفة التعايشي. قال صاحب كتاب السودان: أما مقدموا العسكر فقد فعل بهم المهدي من القساوة والتعذيب والضرب بالسياط ما تقشعر لسماعه الأبدان.

وصـــل
في ظهور الفتنة بالسودان الشرقي

قد كانت الفتنة إلى هذا الحين في السودان الشرقي نائمة ولم يحرك أحد من القبائل لها ساكناً، وكان بقرية الدامر على ساحل النيل شيخ من أرباب الطرق اسمه

الطاهر المجذوب وكان محبوباً موقراً معظماً عند أهل السودان الشرقى مسموع الكلمة عند الولاة والحكام وافر الهيبة معززاً. فأرسل إليه مدعى المهدوية يدعوه إلى لقائه ويشرح له كيفية مهدويته ويسأله الانضمام إلى خلفائه هو ومن معه من المريدين ومشايخ الطرق ويستحثه على الخروج على عمال الحكومة وأجازه بمبايعة الناس وخاطبه بألقاب الإمارة على السودان الشرقى جميعه فبعث إليه الطاهر بجماعة من مريديه يتقدمهم رجل اسمه عثمان دقنه بن أبى بكر دقنه وهو من التجار الكبار كانت له أملاك واسعة بسواكن وسواها فذهبت أمواله وبيعت أملاكه لأسباب سياسية.

لا محل لسردها هنا، وكان عثمان دقنه هذا يحمل كتاباً من الشيخ الطاهر إلى الخارجى يقول فيه: إن عثمان هذا من خيرة مريديه ومن أصدق أتباعه وإنه من أولى العزم والحزم وأنه أجدر بإمارة شرقى السودان منه يعنى من الشيخ الطاهر وأن الشيخ لا يأنف من أن يكون تابعاً لأفضل مريديه وأنه سيكون هو مستشاره ومدبر أموره والناصح لسائر أتباعه بالقيام بنصرته وموازرته وأنه لم يكن من مانع من قبول منصب الإمارة لنفسه سوى الشيخوخة والعجز عن الحركة التى يستلزمها هذا المنصب الخطير، فلما وفد عثمان دقنه على الخارجى أكرم الخارجى وفادته وبالغ فى الاحتفاء به وسأله عن الحال فى شرقى السودان قيل: فهوّن عليه، وقال: ياسيدى الناس طرا طائعون لك واهبون أرواحهم فى سبيل مرضاتك ومرضاة رسول الله ﷺ وهم جميعاً على أهبة الغزو والجهاد فى الكفار، قال: ثم ماذا ؟ قال: وأستاذى يقول: أن الدولة قدعزمت على قهرك بإرسال جيش جرار إلى بربر عن طريق سواكن وهو يشير عليك بإرجاعى للوقوف مع المجاهدين فى طريق ذلك الجيش وسد جميع المنافذ عليه حتى تتمكن من فتح الخرطوم. قال الراوى: ففرح الخارجى بمقالة عثمان دقنه وسرحه إلى سواكن وكتب له كتباً إلى سائر القبائل الضاربة هناك يستصرخهم ويستفزهم إلى نصرته ونجدته وأنه قد أمّر عليهم عثمان دقنه فيجب عليهم طاعته والعمل بمشورته فلم يصل عثمان إلى بربر حتى علم رجال الحكومة بخبره وما جرى له مع الخارجى فأرسلوا خلفه من يقبض عليه فلم يفلحوا ووصل إلى سواكن آمناً مطمئنا واجتمع بالشيخ الطاهر وسلمه كتب المهدى، فجمع الشيخ سائر مريديه وأبناء طريقته ومن التف حولهم وقام فى وسطهم ومد يده إلى عثمان دقنه وبايعه بالإمارة فبايعه الناس كافة وترامت أخباره إلى مصوع وكسلة فدخلت جميع القبائل فى طاعته فجاء الأمر إلى محافظ سواكن بالقبض عليه وهو يومئذ فى سنكات فسير إليه توفيق بك مأمور طوكر فى ستين من الجند للقبض عليه ولم يكن محافظ سواكن يعلم من

أمر جموعه ومن التف حوله من القبائل شيئاً، فلما صار توفيق بك ومن معه على مقربة من سنكات خرجت عليه لموم عثمان دقنه فقاتلهم وأصلاهم ناراً حامية وتحصن داخل زريبة من الشوك وخندق وعمل متراساً عظيماً وصار يدافع من ورائه ويصلى عدوّه بناره.

(مطلب)

إرسال جيش لاستخلاص سنكات وطوكر

وجاء الخبر إلى القاهرة بظهور الفتنة أيضًا فى شرقى السودان وخروج جميع قبائله عن طاعة الحكومة، فبعد أخذ وردّ طويلين مع السير بارنج جاء الخبر من صاحب السياسة الإنجليزية بإرسال جيش لاستخلاص طوكر وسنكات من أيدى أصحاب الفتنة، فاهتم لذلك الخديوى وجماعة الوزراء وجيشوا زهاء خمسة آلاف مقاتل ممن بقى من العسكر المصرى بعد حملة هيكس وبالغوا فى الإكثار من معداتهم وآلات حربهم وعقدوا لواء هذا الجيش إلى محمود طاهر باشا أحد مقدمى العسكر على عهد الخديوى إسماعيل، فسار بجيشه هذا يريد طوكر فعلم بخبرهم عثمان دقنه وتأهب للقائهم فى عدة كثيرة من المقاتلة وكمن بهم فى منتصف الطريق بين طوكر والترنكتات فبينما هم سائرون خرج عليهم الكمين من كل صوب وحدب وداهمهم على غرة فأوقع بهم ومزق شملهم، فلم ينج غير مقدمهم محمود باشا ونفر قليل وغنم دقنه سائر ما كان معهم وعاد الفارون إلى سواكن فتبعهم العدوّ إليها وأحدق بها وجعل يتهددها وجاء الخبر إلى القاهرة بما حل بجيش محمود باشا فأكبر الخديوى الأمر وأعظمه جداً وكبر قلقه أيضاً على الخرطوم لترادف الأخبار يومئذ بما هى عليه من الشدة والضيق واقتراب دعاة الخارجى من أبواب البلد، وكثر تردد السير بارنج على مقر الخديوى تارة وعلى ديوان الوزير نوبار باشا أخرى، ثم لم تكن إلا أيام حتى شاع الخبر بعزم الحكومة على إرسال جيش آخر معقود لواؤه لكبير من كبار عسكر الإنجليز اسمه بيكر باشا فتطير الناس من ذلك وأيقنوا عجز الدولة وعدم قدرتها على إرجاع الأمور فى شرقى السودان أيضاً إلى ما كانت عليه وكأنما أراد صاحب سياسة الإنجليز بإرسال هذا الجيش استبقاء سواحل البحر الأحمر فى قبضة الحكومة المصرية إلى حين حتى يتمكن هو من بسط سلطانه عليها وإدخالها ضمن ممتلكات مملكتهم فخرج بيكر باشا فى أربعة آلاف مقاتل فلما بلغ سواكن أرسل يستميل بعض زعماء القبائل وبالغ فى استرضائهم والتودّد إليهم وأقام على

هذه الحال أياماً فلم يفلح فعمد إلى مخابرة القبائل الضاربة بجهات مصوّع لعله يجد بينهم من يشد بهم أزره فـي فتح الطريق إلى كسله ثم إلى الخـرطوم فلم يفلح أيضاً وقد علم أن الطريق بين مصوع وكسله كلهـا أدغال وغابات كثيرة المرابك والهلكات وأن الطريق إلى الخرطوم أصعب من أن ترام فأخذ يتأهب للمسير إلى طوكر لإنقاذها ثم لإنقاذ سنـكات، فلما كان شـهر ربيع الثـانى من السنة أى سنة إحدى وثلثـمائة وألف خرج بعـسكره من سواكن إلى ترنكتـات وسلك ذات الطريق التى سار فيــها محمود باشا بجيشه فلم تكن إلا مـرحلة أو بعض مرحلة حتى انقض عليهم عثمان دقنه بخيله ورجاله فاختل عندئذ نظام العسكر وفشلوا أى فشل وركن من فى الساقة إلى الفرار وألقوا ما بأيـديهم من السلاح فأثخن العدو فيهم قـتلاً وضرباً حتى أفنى منهم زهاء الثلاثة آلاف وفر بيكر باشا ومن بقى إلى ترنكتات وغنم عثمان دقنه سائر ما كان معـهم من سلاح ومتاع ودواب وكانت واقعة من شر الوقـائع وجاء الخبر بما جرى إلى القاهرة فكثر صياح وعويل نساء الضـباط فى بيوتهم وجلسوا للعزاء وكثر اللغط بأن هلاك هذا الخلق الكثير من العسكر والضـباط إنما كان بإيعاز من الخديوى وجمـاعة الإنجليز لغاية فى الـنفس، واشتد القلق بالناس جـميعاً حـيث أعقب هذه الواقعة سقوط سنكات أيضاً وقتل من كان بها من العسكر مع توفيق بيك ذلك البطل المغوار مذبوحاً ذبحاً.

وقد كانت عمت الفتنة سائر أطراف السودان وتفـشت أيضاً فيما حول الخرطوم من القرى والبلدان فـأصبحت الخرطوم وهى مطمح نظر الخـارجى يريد الانقضاض عليهاً بخيله ورجـاله ليقبض على ناصيتها حـتى إذا ما علم ذلك فى شرقى السودان وغربـه وشمالـه وجنوبه دانت له البقـية البـاقيـة من زعمـاء بعض القبـائل الموالين للحكومة فيخلو له الجـوّ حينئذ وكانت عيونه تنقل له أخبـار ما كانت عليه البلد من الشدة والضيق وما وصلت إليه الدولة من العجز ووهن العـزيمة وزوال الهيبة فيزداد تحمساً وغروراً ويكثر من البعوث والدعاة ويرسل الكتب مشحونة بما حدثه به الخضر وإلياس أو ما بشـره به صاحب الشريعة الإسـلامية وما أعـده الله له ولأصحابه من الأسرة والكراسى فى جنات النعيم وغير ذلك من الخـرف والهرف والبهتان على الله وعلى أنبيـائه ورسله، حتى افتـتن الناس طراً واتسع الخرق وتعذر الخـلاص وقد زاد الأمر خـبالاً والطين بلة بما ورد على الخـديوى من صاحب الســياسة الإنجـليزية من وجوب ترك جميع السـودان والتخلى عنه بما فيه من مال ومـتاع وكراع إلى الخارجى والإسراع بإجلاء من به من أصحاب الوظائف ومن بقى من العسكر ومن يريد الجلاء

من الأهلين أيضاً، فكان ما كـان مما مر بك بيانه فى محله من تنحى الوزير مـحمد شريف باشا عن منـصب الرئاسة وتولية الوزير نوبار باشا بدله ومـا وقع من اشتداد زعيم السـياسـة الإنجليزية على الخديوى والـوزير نوبار باشا وترادف طلبـاته وتباين بعضـها لبعض حتى تولى غـردون الولاية العامة على السـودان ونال السلطة المطلقة عليه شرقاً وغـرباً وذهب إلى الخرطوم على ما وصفنا وكان من أمـره وما وقع بعيد ذلك ما سيتلى عليك فى بابه إن شاء الله تعالى.

وصـــــل
فى هزيمة أخرى وكسـرة كـبرى

لم يكن غردون ليـتوقع الفشل إلى هذا الحـد بعد أن اعتـرف للخارجى بالملك والسلطنة على غربى السودان وبعد أن خطب فى الناس بما خطب من ترك البقايا من الأموال ومنع الجبـاية ثلاث سنوات وإطلاق حرية التجارة فى الرقـيق وغير ذلك من عبارات المجـاملة والتلطف، ولكن خانته الأقدار وسقط فى يده واخـتلط عليه الحال وفسـد التدبير وقلت منه الحيلـة وضاق عليه الفضـاء بما رحب لا سيما وقـد جاءته الأنباء فى هذا الحـين بفشل جـيش جراهام وموت أكـثر رجاله وقـد كان يعتـقد أن خلاصه وخلاص من معه مرهون على فوز هذا الجيش ونجاح غزوته.

وتحرير الخبر أنه لما علم صاحب السياسـة الإنجليز بفشل جيش بيكر باشا ووقوع معظم رجاله في قبضة عثمان دقنه علي ما تقدم بيانه كبرت عليه هذه الخيبة وقد كان يرى أن فتح الطريق ما بين سـواكن وبربر أمر لابد منه لفائدة سلطنتهم في مسـتقبل الأيام فعمد إلى إرسال جيش ثالث من رجـالهم وصفوة أبطالهم ليتم له ما يريد من فتح ذلك الطريق فـجاء جراهام هذا على رأس ذلك الجيش إلى سـواكن في العشرة الأخيرة من ربيع الثاني من السنة أي سنة إحدي وثلثمائة وألف ومعهم الشيء الكثير من آلات الحرب ومـعدات القتال وإنجـروا من سواكن إلى ترنكتات وسار مـعه بيكر باشا مـقدم الجـيش الذي أفناه عثمـان دقنه قاصـدين الالتقاء بدقنه، وقـد علم دقنه بوصولهم فتـحصن في التيب وخندق عليها وأحـاط الخندق ببعض المتاريس ووضع عليها المـدافع التي غنمها من محـمود باشا طاهر وبيكر باشا وتأهب للدفـاع، فلما صار جيش جراهام علي مقربة من التيب وشاهد جراهام ما هو عليه موقع العدو من المنعة والحصانة نادى في عسكره بالزحف والهجوم فلم يفعلوا وجبنوا ثم ولوا الأدبار

فلحقتهم قنابل العدو وتساقطت عليهم تساقط المطر وفتكت فيهم فتكاً ذريعاً جداً فما زال بهم جراهام حتى لم شعثهم وأعاد صفوفهم وسار بهم ثانية حتى صار على مقربة من متاريس العدو ثم جعلوا يطلقون مدافعهم ويرسلون قنابلهم على المتاريس والعدو يشتد عليهم فى الرمى ويصليهم ناراً حامية حتى انكشف نظام أحد جوانب الجيش وفعلت فيه قنابل العدو فهمّ جراهام بتغيير شكل صفوفه ليدرأ عنهم تلك النيران الآكلة فاحس بذلك عثمان دقنه فلم يكن بأسرع من أن هجم بقومه عليهم من كل صوب وأعمل فيهم السيف وبقى الحال هكذا بضع ساعات من النهار، ثم انفصل الفريقان فكانت القتلى من الجانبين لاتعدّ. وتقهقر عثمان دقنه إلى طوكر لعل جراهام يتبعه فيقع فى مخالب العطب فأدرك جراهام الحيلة ولم يغرر بعسكره. فلما تحقق غردون ما أصاب جيش جراهام كاد يذوب حزناً وأيقن أن الحيلة ضائعة وأن القضاء واقع لا محالة فرسم إلى كبار عسكره بترميم الحصون وتحصين القلاع وشاع خبر ذلك وملأ الأسماع فاعتزل أصحاب الوظائف الديوانية من المصريين وظائفهم ونزلوا مع الكثير من التجار يريدون القاهرة فراراً من البلاء المنتظر وورد على غردون جواب الخارجى هادماً لصروح أمانيه مفعماً باللوم والتقريع وقارص القول ورد هدية غردون التى كان أهداها إليه على ما تقدم لك بيانه ومعها مرقعة من مرقعات الدراويش. قال صاحب كتاب السودان: وأرسل يقول له: إن أحسنت فى دنياك وآخرتك فعجل بترك الكفر واعتنق الإسلام دينا وألبس هذه المرقعة التى هى لباس الزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة ولا تكن سبباً فى إراقة الدماء وأعمل كما عمل غيرك من الولاة والحكام. فغضب غردون غضباً ما عليه من مزيد وكبر عليه أمر ذلك جداً. وكان الناس إلى ذلك اليوم لا يعرفون حقيقة بعثة غردون ويجهلون نوايا دولة الإنجليز فى شأن السودان المصرى ولا يدرون ما إذا كان الخديوى مطلق اليد فى التصرف فى بلاد هى ينبوع حياة مملكته وأم نيلها العظيم أو أنها خرجت من قبضته بحكم لاراد له ولا ممانع فيه، فدلهم يومئذ تخبط غردون وخلطه وعدم حضور عسكر من الإنجليز كما كانوا يتوهمون على أن صاحب سياسة الإنجليز لم يبعث غردون إلا ليعمل على ترك السودان للخارجى حيناً حتى إذا تم لهم ما يريدون من التحفز للوثبة انقضوا على ذلك الخارجى بخيلهم ورجالهم وانتزعوها منه أو من خليفته من بعده وضموها إلى أملاكهم فى هذه القارة السوداء وأضخموا بها جسم سلطتهم الواسعة وهى غاية فى نفسهم طالما تمنوها حتى مهد لهم رجالهم الأسباب وفتحوا لهم بحسن كياستهم مغلق تلك الأبواب بأن أوقدوا نار الثورة

العرابية فى جوف القطر المصرى ونفخوا فى ضرام نار الفتنة المهدوية فى جوف السودان وأدانوا لهم فى القريب العاجل من الأيام ما لم تكن لتناله سلطنتهم فى البعيد من السنين والأعوام.

وكثرت كتب محمد بن البصير داعية الخارجى فى أرباض الخرطوم إلى غردون مفعمة بالسباب واللعن والحط من قدره وتهديده بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يعجل بالتسليم بغير ذمة ولا عهد وظل الحال على ذلك أياماً كاد يهلك فيها غردون كمداً. قال صاحب كتاب السودان: فاجتاز غردون النيل الأزرق إلى قصر راسخ بيك وأرسل إحدى عشرة رسالة برقية إلى السير بارنج بمصر يخبره بما وصلت إليه حالته ويقول: إن العدو على وشك الزحف للإحاطة بالبلد وأن أسلاك البرق انقطعت قبل أن يتمكن من مخابرته ثانية وأرسل كذلك إلى الخديوى والوزير نوبار باشا فأجابه السير بارنج بما معناه - إنى لم أفهم ما تضمنته رسائلك الإحدى عشرة فأعلمنى بقصدك بعد التفكر الطويل - على أن كل ما فى تلك الرسائل كان يتضمن استنهاضهم إلى إرسال النجدة وحفظ الاتصال بين دنقلة وبربر - قال - ولعل السير بارنج كان يقصد بقوله لم أفهم ما معناه - ياغردون أنك لاتجهل أن مقاصد حكومة جلالة الملكة غير الذى أنت تطلبه فلذا لم أفهم منك هذه الطلبات حيث إنك لا تجهل أنها لا تتحول عما عقدت النية على تنفيذه - قال - وفى تلغراف غردون أن الاسلاك البرقية على وشك الانقطاع وأنه من المتعذر بعد هذه الفرصة وصول أخباره إلى القاهرة فكانت إشارة السير بارنج بمخابرته بعد التفكر أمراً فى غاية الصراحة بعدم لزوم المخابرة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ا. هـ.

قلت: وهذه كانت صفوة الغرض من الممانعة فى نجدة عبد القادر باشا عندما كان يقاتل الخارجى واتهامه بشق عصا طاعة الخديوى والاستقلال بحكم السودان ثم استقدامه على غرّة بعد أن كاد يقضى على الفتنة فيما وراء الدارفور وعاد بعيد ذلك غردون إلى استعطاف السير بارنج إذ كتب إليه يقول: ليس فى الإمكان إجلاء أصحاب الوظائف من المصريين بمن معهم من العيال إلا أن تفتحوا لى الطريق التى قلت لكم عنها فرد عليه رداً كله مماحكة وفيه شىء من الأمانى وفى كل عبارة يحضه على التروّى وطول التأمل أى كأنه يقول ما بالك لا تفقه ما أسره إليك صاحب سياستنا ومالك تطلب المدد ونحن على غير ذلك من العهد معك. حدثنى صاحب لى خبير قال: كانت فعال السير بارنج فى هذه الظروف الحرجة تقضى بالعجب العجاب، فإنه بينما كان يمنى غردون بالمدد ويعده بقرب وصول النجدة إليه كانت

رسائله ترسل تباعاً إلى عاصمة الإنجليز بأن فتح الطريق بين سواكن وبربر بطائفة من فرسانهم كطلب غردون ضرب من الحماقة، كما أن إرسال جماعة من عسكرهم إلى أسوان ووادى حلفا لتأمين السبل وتسهيل الجلاء عن الخرطوم كما يشير غردون لا معنى له البتة ولا هو من حسن السياسة فى شيء، فكانت كل هذه الأحاجى والمعميات قاضية على حياة غردون وحياة الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء والأطفال فى الخرطوم وأرباضها ولا ذنب لهم غير الارتكان على عزيمة الحكومة المصرية وحسن ظنهم بأصحاب الحل والعقد بها فتأمل.

ورأى غردون كثرة مناوشة العدو للجند والعسكر المرابطين بالخرطوم وتحقق من دخول سائر سكان الضواحى فى طاعة الخارجى وخروج جميع السود من سكان البلد إلى معسكر ابن البصير داعية الخارجى والانضمام إليه فأكبر الأمر جداً، وكان العدو قد جعل مركز حركاته فى الحلفايا على قيد بعض فراسخ من الخرطوم وقد تحصن بها فأمر غردون بخروج طائفة من العسكر لطرد العدو من حلفايا وإجلائه عن الضواحى المتاخمة. قال صاحب كتاب السودان: خرج من الجند لذلك يعنى لطرد العدو ثلاثة آلاف من الباشيبوزق وألفان من المنظمين وعقد لواء هذا الجيش إلى السعيد حسين الجميعاتى وحسن إبراهيم الشلالى من معه من مقدمى العسكر ولم ينج إلا بضع عشرات عادت بهم السفن إلى الخرطوم، وما انتشر نعى القتلى حتى ضجت البلد بالعويل والبكاء من كل صوب ودرب وحزن غردون حزناً عظيماً وكاد يستسلم للقضاء المحتم وقد جاءته أخبار جواسيسه بزحف الخارجى على الخرطوم فنظر فلم ير أمامه باباً يلجه فى طلب النجدة إلا استعطاف السير بارنج بمصر لعله يفرج كربته بنفر من العساكر الإنجليزية سوى إرسال الكولونيل استيورت الذى كان فى ركابه من الخرطوم إلى دنقلة ومنها إلى القاهرة مزوداً بالرسائل والكتب بطلب النجدة، فانحدر استيورت هذا من الخرطوم على إحدى البواخر فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة إحدى وثلثمائة وألف وتبعه باخرتان تحملان بعض المقاتلة وانحدر معهم كذلك نفر من المهاجرين يريدون اللحاق بدنقلة، فبينما هم فى طريقهم خرج عليهم العدو وجعل يطلق عليهم بنادقه وهم يجدون المسير حتى وصلوا بربر فرجعت باخرتا الحرس بمن فيها من المقاتلة وانطلقت سفن المهاجرين تمخر فى النيل وخلفها باخرة استيورت تشق عباب الأمواج والعدو من ورائها وعلى يمينها وعلى شمالها يطلق عليها نيران البنادق إلى أن قطعت الشلال الأول واستيورت يحث ربانها على الإسراع فى المسير أكثر فأكثر حتى ارتطمت بصخر

عظيم ولم تكن إلا لحظة حتى دخلهــا الماء وملأ جوفها فانزعج اسـتيورت ولـم يوفق لنكد طالعه إلا إلى إلقاء المدفع الذى كـان معه وسائر الذخيرة فى المـاء وأنزل متاعه فى زورق وسار به مع مـن كان معـه من الخدم والأتباع إلى جـزيرة فى وسط النيل ونزل بها فـأشار عليـه بعض من كان معـه أن يسير بالزورق إلـى حدود دنقله، ثم يرسل من يحمل الخدم والأتباع فامتنع من ذلك ولم يقبل لنفاذ القدر المقدور، وبينما هم فى تردد وحيرة إذ أقبل عليهم جمـاعة من أهل السلامانية ونادوا بأنهم فى طاعة الحكومة وأنـهم على عهد الخـديوى فأرسلوا لنا بـنفر منكم لنتكلم مـعهم فـصدق استيـورت كلامهم وأرسل إليهم جـماعة من الأتباع ومـلاحى البارجة فعـبروا النيل والتقوا بأولئك القوم وسـألوهم عما إذا كانوا باقيين على الطاعة فـأقسموا أنهم على ذلك فعاد رسل استيورت وأخبروه بالخـبر وباتوا ليلتهم تلك بالجزيرة، فلما أصبحوا جاء اثنان من القوم يقـولان لاستيورت: إن شيخ الـقرية قد عاد من غيـبته وعلم بما أصاب باخـرتكم فجـهز لكم مـا يلزم من دواب الحمل وهى فى انتظاركـم بالجانب الشرقى من النيل فـإن شئتم فاعبـروا وامتطوها وسيروا على بركة الله ـ قـال: ففرح استيورت بذلك وعبر مع من كانوا معه وهم زهاء خمسة وأربعين ونقلوا متاعهم فلم يجدوا غـير سبع من النوق ضـئيلة، فقـالوا لهم: إن الفرق آتيـة الساعة فلبـثوا فى انتظارها حتـى قريب الزوال، وبينما هم كـذلك إذا جاء رجل من أهل القـرية يقول لاستيورت: إن الشيخ أعد لـكم طعاماً فهيا كلوا واشربوا هنيئاً مريئـاً فقام استيورت من ساعته ولبس ملابسه كأنه ذاهب إلى وليمة أحـد الأصدقاء ولم يأخذ لنفسه شيئاً من الحيـطة أو الحذر وسار مـعه قـونصلا النمـسا والفرنـسيس اللذان نزلا مـعه من الخرطوم وترجمانه فلاقاهم أهل القرية بالترحاب وبشوا فى وجوههم وأدخلوهم فى مكان فسيح كان فيه خمسون رجلاً فى زى السيارة فرحبوا بهم وهنئوهم بالسلامة ثم انصرفوا عنهم لحظة لطيفة وعادوا فانقـضوا على استيورت والقونصلين وأغمدوا فى رقابهم السيوف وذهب جماعة من القرية إلى شاطئ النيل وأعملوا السيف فيمن كان هناك حتى أفنوهم جميعاً وأخذوا كل ما كان معهم من متاع وأوراق، وكتب غردون التى كان استيورت يحملها وأرسلوا بجميع ذلك إلى الخارجي ـ قال: ففرح الخارجى بها فرحاً عظيماً وأمر فدقوا البشائر وطير الخبر بذلك إلى غردون وعرّض له بذكر ما فى كتبه التى كان استيورت يحملها، ودعاه إلى الطاعة والدخول فى عداد الدراويش فحـزن غردون حـزناً شديداً وأيـقن أنه لم يبق فى طاقتـه دفع هذا المقدور، وتحـقق الناس طرا أن الخرطوم ساقطة لا محالة وأن جميع من بها هالك ولا شك وقد كانوا أحصوا من بها من المصريين فقط فكانوا مائتى ألف فلا حول ولا قوة إلا بالله.

(مطلب)

اشتداد الحال على بربر ومن بها

وإلى هذا الحين كان قد اشتدت الحال على بربر وضاقت ذرعاً بأمرها ووصل إليها دعاة الخارجي وضيقوا عليها المسالك وأمسكوا عليها الأطراف فجعل من بها من المرابطين وأهل البلد يصيحون المدد وكتبهم تأتى إلى مقر الخديوى وديوان الوزير نوبار باشا، وقد أرسلوا يوما عريضة على لسان البرق تشتمل على عبارات تؤلم الفؤاد وتفتت الأكباد فمما جاء فيها قولهم: هل من العدل أن نترك فريسة للعصاة ضحية سوء سياستكم يا أصحاب الأمر أين العاطفة الإنسانية والشهامة والحمية، أين منا جرائد لوندره وجمعياتها المزرية بالاسترقاق ما بالها أغفلتنا وقد باعنا رجالها لهالك بفساد سياستهم وها نحن نحسد الأرقاء فإنهم آمنون على حياتهم ونحن لا نأمن على الحياة والعرض والمال، فأين الدولة البريطانية العظمى التى وعدت وصرحت برغبتها فى إنقاذنا وانتشالنا مما ألم بنا ، ما بالها لا تتقدم إلى وفاء الوعد والقيام بالواجب قبل انقضاء الأجل، وهل تمد يد المعونة بعد أن نذوق حتفنا فتقيمنا من القبور أو كيف؟ وما القصد والداعى إلى تقاعدها وتهاملها بل ما كان الموجب لاسترجاعها عساكرها بعد حلولها فى سواكن وإعلان عزمها على كشف الضيق الحائق بنا . أما نحن فلا نستمد الفرج من إنجلترا وحدها بل نلتمس إسعافنا بالقوة من أية دولة كانت فإن القصد الوحيد إنقاذنا من الموت الزؤام وحفظ أعراضنا وأموالنا فالمدد المدد يا أولياء الأمر المدد اهـ.

فصاح حينئذ لصيحتهم هذه أصحاب صحف الأخبار المحلية وجعلوا يقرعون الهيئة الحاكمة وينحطون عليها باللائمة وهى لا تقدر على نجدة أهل بربر ولا على مكالمة صاحب سياسة الإنجليز فى ذلك بعد الذى تحقق لها من اشتداده فى طلب إخلاء السودان جميعه من المصريين ومن معهم مهما بلغت الضحايا وعظمت الرزايا. وأخذت الخديوى آخذة من الغمّ فجمع إليه سائر الوزراء وبينهم الوزير محمد شريف باشا ومصطفى رياض باشا وخيرى باشا وعمر لطفى باشا وثابت باشا ومحمد سلطان باشا وتناجوا فيما عليه أهل بربر فبعد أخذ ورد ظهر عجزهم عن نجدة القوم وأن الجلاء عن بربر خير من البقاء فاشتدت جلبتهم وطال بينهم الجدال فأخذت أحدهم عند ذلك «ولعله الوزير محمد شريف باشا» هزة الغضب: فقال ما بالكم تقولون غير ما تفعلون وتطلبون ما أنتم عن إدراكه عاجزون وكأنكم تجهلون

أو تتجاهلون أنكم أمسيتم كالريشة أمام مهب الريح إزاء وزير السياسة الإنجليزية لا تملكون من أنفسكم ولا من أموالكم وعيالكم شيئاً منذ احتلت جنودهم البلاد وهاكم كتب صاحبهم ناطقة بذلك ومشيرة إلى ما هنالك فعلا من هذا الاجتماع وإلام نتغافل ونتعامى عن الحقائق. قال الراوى: وبينما هم على هذه الحال إذ جاءهم الخبر بأن داعية الخارجى فى أرباض بربر أرسل كتاباً إلى حسين باشا خليفة مدير بربر يدعوه إلى التسليم هو ومن معه من المرابطين وأهل البلد فامتنع فنادى داعية الخارجى عند ذلك فى عسكره وجموعه بالتأهب لحصار البلد ومنع الوارد عنها حتى يسلم من فيها أو يموتوا جوعاً فأكبر الوزراء الأمر جداً وأرسلوا فى الحال إلى صاحب السياسة الإنجليزية يسألونه عما يفعلونه فجاءهم الجواب بأن لا نجدة إلا بعد أربعة أشهر يعنى ابان الشتاء فإنفض مجلسهم يومئذ على ذلك. وكتب الوزير نوبار باشا إلى حسين باشا خليفه يقول: إن قدرت على الدفع فادفع عن نفسك وإلا فانحدر بمن معك والسلام. فلم تكن إلا أيام قلائل حتى شاع الخبر بقيام سائر القبائل المتاخمة لبربر إلى نجدة أصحاب الخارجى على قتال من فى البلد وانضمام بعض المرابطين إليهم أيضاً، وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك فى محله والأمر لله من قبل ومن بعد.

وصل

فى سقوط أم درمان والخرطوم وما جرى بعد ذلك

لما وردت أخبار النصر على الخارجى تباعاً من كل صوب وحدب تقوت عزيمته واشتد ظهره فرسم إلى عبد الرحمن ولد النجومى صاحب الراية البيضاء الذى سبق الكلام عليه بالزحف على الخرطوم ومعه ستون راية يتبع كل راية زهاء ألف مقاتل خاضعين إلى أمير، وهذا الأمير خاضع إلى ولد النجومى، وانضم إلى جيش ولد النجومى أيضاً عبد الله بن النور فى عشرين راية أخرى ومعه بعض المدافع التى غنمها من المصريين. قال صاحب كتاب السودان: ونادى مناديه فى الناس من شاء الغزو والجهاد فى الكفار فليلحق على بركة الله بجيش ولد النجومى فخرج الناس أفواجاً أفواجاً من الأحرار والعبيد فبلغت بهم عدة الجيش زهاء ستين ألفاً، وبينهم عشرة آلاف من الجنود السود بالبنادق ونحو عشرة آلاف فارس مدججين بالسلاح فوصل هذا الجيش العرمرم إلى بلدة الجريف فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة إحدى وثلثمائة وألف ، ونزل بها ولد النجومى أياماً حتى تكامل عسكره فقسمهم إلى ثلاث معسكرات وشاد القلاع وأقام الحصون وحفر الخنادق وأنشأ

المتاريس وسلم إلى مقدمى العسكر مواقع الدفاع ومفارق الطرق، وأرسل إلى غردون يدعوه إلى التسليم ويحذره من عاقبة الامتناع - قال - وتراجع أيضاً المنهزمون من جماعة أولاد الشيخ العبيد وعسكروا فى الحلفايا كما كانوا واحتفروا الخنادق وعملوا المتاريس فكانت مقذوفاتهم تصل إلى منازل المدينة يعنى الخرطوم وشوارعها وتلحق الضرر بالسكان وتميت كثيراً منهم فى كل يوم،ولبث الحال على هذا المنوال إلى أوائل المحرم افتتاح سنة اثنين وثلثمائة حيث زحف الخارجى فى جيش عظيم، قيل: إنه بلغ زهاء الستمائة ألف مقاتل يريد أم درمان، فلما صار على مقربة منها أرسل جواسيسه فدخلوا الخرطوم ولم يشعر بهم أحد وصاروا ينشرون كتب الخارجى بين الناس وكلها حض وتحريض على شق عصا الطاعة والاجتماع على نصرته وألقوا بشوارع البلد من تلك الكتب شيئاً كثيراً. وأقام الخارجى بمكانه حتى تكاملت لمومه فرسم لهم بالهجوم على أم درمان وكان بها جماعة من العساكر المصرية والعساكر السود فهجم القوم عليها فى أوائل النصف الثانى من المحرم هجمة قوية فقابلتهم الجنود بنار حامية واشتدت عليهم برمى القنابل فتراجعوا عنها خاسرين، وقد مات منهم خلق كثير فكبر الأمر على الخارجى ونادى فى قومه بالقتال ثانية فقاتلوا قتالاً شديداً حتى ملكوا من البلد بعض المواقع الأمامية ثم حاصروها حصاراً شديداً إلى آخر ربيع الأول فنفذ ما كان عند الحامية من المؤن ولم يبق عندهم شىء يقتاتونه فسلموا إلى صاحب المهدوية بإشارة من غردون فأحسن الخارجى معاملة كبارهم واستخدمهم فى مصاف جيوشه.

فلما سلمت حامية أم درمان وشاع خبر ذلك بين من بالخرطوم من العساكر والأجناد وهنت عزائمهم وظهرت عليهم علامات الضجر وزاد الأمر شدة نفاد ما فى المخازن والأشوان من المؤن والغلال وعدم إمكان الحصول على شىء منها من الخارج لأخذ العدو بأطراف الطرق فتفشت المجاعة بأسرع ما يكون واشتد الجوع بالناس فصاروا يقتاتون ورق اللوبيا العفنة كانوا يطبخونها ويلعقونها - قال - وكان قوت الحامية من الصمغ مخلوطاً مع جمار النخل، وقد شوهد أن الذين يقتاتون هذه الأصناف يصابون بالإسهال وتظهر على وجوههم، أعراض تشبه أعراض مرض اليرقان ثم تتناقص قواهم الجسمية فى مدة ثلاث أيام وتعقبها أعراض الموت - قال - ومن غرائب ما رأينا فى حصار الخرطوم أن صيادى السمك قبل الحصار كانوا يصطادون فى كل يوم نحو ألف قنطار من الأسماك، ولما بدأ الحصار انقطع وجود الأسماك كأنها فرت من فرقعة البنادق وهزيم المدافع حتى أن غردون اشتهى سمكة

يتغـذى بها قبل سقـوط الخرطوم بأربعة شهـور فلم يتيسر الحـصول عليهـا وكما أن الأسماك هجرت شواطئ الخرطوم فـإن أراضى بساتين المدينة التى كانت تقوم بحاجة سكانها من البقول والفاكهة أصبـحت فى إبان الحصار وقد تلفت كل مزروعاتها ولم ينبت فيها شيء من البقول وذبلت أشجار الفاكهة وتلاشت محصولاتها ـ إلى أن قال وكانت أسعار الأقوات فى البلد حتى سقوطها كما يأتى ثلاثون ريالا ثمن الكيلة من الغلة وعشرة ريالات ثمن الأقة من البقسـماط وخمسة ريالات ثمن الأقة من اللحم البقـرى، وكان بعض السكان يذبحون الحـمر الأهلية والحكومـة تعاقب من يرتكب ذلك اهـ.

واختل نظام الجند بالخرطوم فـتمردوا على كبارهم وساروا عـصابات تعبث فى البلد وتسطوا على باعـة الأقوات وتخطف كل ما هو معـرض للبيع، ولحق جمـاعة كـثيـرة منهم بالخارجي عنـد أم درمان هرباً من الجـوع، وكان غـردون مع كل هذه الكروب يطن أن صاحب السياسة الإنجليزية ربما يكون غير أو بدل من أسرار سياسته فيـعمد إلى إرسال حـملة لخلاصه فـأعد لاستطلاع طلع هذه الحـملة الموهومة تسع بواخـر مدرعة كـانت إلى ذلك الحـين تناوش العدو وتأتى بالمؤن إلى الخـرطوم من القرى فسيـر بهذه البواخر إلى المتمة وبربر ولكن على غـير طائل. وكان يضرع إلى الله تعالى أن يقرب عـودتها حاملة أخبار تلك الحـملة وظل على هذه الحال أياماً ثم يئس وقنط وتولاه الحـزن والاضطراب فكان لا يستـقر له قـرار لا فى الليل ولا فى النهـار وكان يغـدو ويروح بين الحـصون والـقلاع يشـدد عزائـم الجند بلين الكلام ويحضـهم على الأمانة والإخـلاص وكان كلمـا رآهم وهم يتألمون من وخـز الجوع يذوب حسرة وتوجـعاً. ويقول: كيف يهدأ بالى وها هـى جنودى تقاسى ألم الجوع ومر العذاب، قيل: وكان يقضى اليـوم والليلة لا يذوق إلا الشيء اليسير من الطعام وأكل جمار النخل أيامـاً حتى أضناه وكاد يودى بحياته. وكـانت كتب الخارجى ترد عليه كل قليل يدعوه بها إلى التسليم وترك العنـاد ويقول له فى بعضها: إن الإنجليز إن قـدموا لنجـدتك فلا يصلون إليك ولا يـكون حظهم إلا كحظ يوسف الشـلالى وهيكس. قال صاحب كتاب السـودان: وكتب المهدى ثلاثة كتب إلى غردون، نص الأول منها : بسم الله الرحمن الرحـيم والصلاة على سيدنا محـمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد المعتصم بمولاه محمد المهدى بن عبد الله إلى غردون باشا هداه الله إلى طريق النجاة قبل أن يتلاشى آمـين. نعلمك أن جوابك ردّ المحرر منا وصل إلينا وفهمنا مضمونه وقد عذرناك علـى عدم إذعانك وإجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك

وذلك لأنك لم تدر الحقيقة التى نحن عليها وتحسب مقامنا ودلالتنا على الله وشفقتنا على عموم خلق الله حتى من هو مثلك ولكن لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ولا زلنا ندارجك عسى الله أن يهديك إلى سواء السبيل فأجب داعى الله واغتنم سلامتك من الشر الوبيل فقد رأيت ما حل ونزل ولا زلت ترى ولا طاقة لك ولا لأعوانك بحرب جند الله عز وجل وقد ذكرت أن عبد القادر ولد أم مريوم حبيبك وتقبل قوله ونصيحته وتطلب إرساله لك فعلام ذا هل أنت منيب إلى الله وقصدك التسليم لنا على يد المذكور؟ أم أنت على تصميمك على إعراضك ومعاداتك لربك فأفدنا على هذا لنعلم طلبك له على أى الوجهين ونرسله لك إن رأينا فى ذلك صلاحاً للدين وأقول لك إن عزة الإسلام خير لك وأبقى لدوام احترامك فى الدارين فتحل بها إن عقلت والسلام.

قال ـ والكتاب الثانى : بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد المفتقر إلى الله المعتصم به محمد المهدى اين عبد الله إلى غردون باشا أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن أعرضت كان عليك إثمك وإثم من معك فقد أتى الخبر عن الرسول ﷺ أن الجردة الآتية لو كان معى أمامها ستة أنفار تموت أو خمسة تموت أو واحد يموت أو وحدى كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد آتانى خبرها تموت أيسر من موت جردة ولد الشلالى وهيكس وسأملك المديريات الغربية كلها والبحر الأبيض كذلك موعود بجميع البلاد فالأمر لله ومادام أن الله القادر أيدنى بالكرامات والنصر فلا يضرنى إنكار منكر وإنما يضر نفسه فقط والأمر الذى وعدت به من رسول الله ﷺ جار على الجردة التى تعتمدونها مالها وجه يوصلها لكم لسد الأنصار الطرق فإن أسلمت وسلمت فقد عفونا عنك وأكرمناك وسامحناك فيما جرى منك، وإن أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله وسترى والسلام اهـ. تحشية ـ وإن طلبت زيادة بعد وصول جوابى هذا فتخبرك المرأة الواصلة إليك وإن رأيت التمكين واليقين إن أردت التسليم أكثر من هذا الجواب فسنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة فى الأمان ولا مانع وبذا لزمت التحشية اهـ. بنصه.

قال ـ والكتاب الثالث : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى غردون باشا وقاه الله كل شر لاشى فإن أراد الله سعادتك

وقبلت نصحنا ودخلت فـي أماننا وضماننا فهـو المطلوب، وإن أردت أن تجتمع على الانجليز الذى أخبرنا رسول الله ﷺ بهلاكهم فنوصلك إليهم فإلى متى تكذبنا وقد رأيت مـا رأيت وقد أخـبرنا رسـول الله ﷺ بهلاك من فى الخـرطوم إلا من آمن وسلم ينجيه الله ولذلك أحببت لك أن لا تهلك مع الهالكين لإنا قد سمعنا مراراً أن فيك الخير ولكن قد كاتبناك للهداية والسعـادة فما أجبتنا بكلام يؤدى إلى خيرك كما نسمعه مـن الواردين والمترددين، والآن ما أيسنا من خيرك وسعـادتك ولما سمعنا من الفضل فـيك سنكتب لك آية واحدة من كـتاب الله عسى أن تتـيسـر هدايتك بها إذ جـعلنا الله باب الرحـمة والدلالة إلى الله ولـذلك طالما كاتبـناك لنرجع إلى وطنك وتحوز فضيلتك الكبرى ولا تيأس من الفضل الكبير، أقول لك قال الله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾ والسلام، وقد قلت فى جوابك الذى أرسلته إلينا أن الإنجليـز يريدون أن يفدوك وحدك منا بـعشرين ألف جنيـه، ونحن نعلم أن الناس البطالين يقولون كلاماً كثيـراً ليس فينا وذلك ليصدوا من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه إلا من اجـتمع بنا وأنت إن قبلت نصحنا فبهـا ونعمت وإلا فإن أردت أن تجتمع بالإنجليز فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم والسلام. اهـ. بنصه.

قلـت: وقد عثرت على صورة كتـاب آخر من ذلك الخارجى إلى غردون يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم الحمـد لله المولى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد مع التسليم. وبعد، فمن العبد الفـقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى عزيز بريطانية والخديويـة غردون باشا، قد وصلنا جوابك وفهمنا مـا فيه والحال أنك تزعم إرادة إصلاح حال المسلمين وفتح الطريق لزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام واتصال المودة فيما بيننا وبينكم وإطلاق المسـيحيين من النصارى والمسلمين وأن تجعلنا سلطانا على كـردفان، فأقـول والأمر لله إنى قـد دعوت العبـاد إلى صلاحـهم وما يقربهم إلى ربهم وأن يفزعوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء ويعملوا ما يصلحهم فى آخرتهم وقد كـتبت إلى حكمدار الخرطوم وأنا بآبا بدعـوته إلى الحق وبأن مهدويتى من الله ورسوله ولست فى ذلك بمتحيـل ولا مريد ملكاً ولا جاها ولا مالا، وإنما أنا عبد أحب المسكنة والمسـاكين وأكره الفخر وعز السـلاطين ونبوهم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الحياة والمال والبـنين وهذا هو الذى صدهم عن صلاحـهم وأخذ نصيبهم من ربهم فأخذوا الفانى وتركوا الباقى واشتغلوا بما لايكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ولـم يذكروا خبر أهل القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيئـاً وتندموا على قدر الذى تمتعـوا به فأيدنى الله تعالى بالمهدوية الكـبرى لدلالتهم

إلى الله تعالى وليتركوا العز الفانى والنعيم الفانى إلى العز الدائم والنعيم الأبدى فى دار النعيم المقيم ولأعرفهم غرور من يريد العاجلة ويظن أنه ساع فى رضا الله ويكون له نصيب فى الآخرة وقد قال المسيح عليه السلام يا معشر الحواريين ابنوا على موج البحر لكم داراً وإياكم والدينا فلا تتخذوها قرار (قلت: إن المسيح لم يقل شيئاً ولا شبه شيء من هذا الكلام فى إنجيله البتة) ـ قال المدعى ـ فمن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مقهور وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون له فى الآخر شأن فأنب إلى الله الباقى واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ولا تظن أن هذه الدنيا دار بقاء حتى تسعى لملكها وعزها وكيف من يكون على خلاف طريقة النبى ﷺ ممن يرغب زيادة الكلاب كما ورد فإن الدينا جيفة وطلابها كلاب ولم يرغبها فمن عبد غير الله نسى الله وأعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الفانية فإن كنت شفيقاً على المسلمين فالأولى أن تشفق على نفسك وتخلصها من سخط خالقها وتقومها على اتباع دين الحق باتباع سيدنا محمد رسول الله ﷺ الذى أحيا ما اندثر من ملل الأنبياء عليهم السلام الذين لو حضروا لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته ومن حضر بعثته وما بعد لا يقبل منه دين غير سكته فطهر نفسك أولاً بالدخول فى ملته ثم اشفق على أمته بسلوك سنته فعند هذا فأنت الشفيق ومن غير هذا فما لك من المحقين رفيق، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين**﴾ ـ إلى أن قال: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون**﴾ وإننا امتثلنا أمر الله فما نتخذ وليا إلا الله ورسوله والمؤمنين، وعلى ذلك قد وعدنا الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هذا ومادام أن الله يقول هم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فإن رجعت عما أنت عليه من ملة غير الإسلام وأنبت إلى الله ورسوله واخترت الآخرة تتخذك وليا وتكون من إخواننا وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل أمر الله فاستحق الوعد والبشارة بعد هذه الآية فى قوله تعالى: ﴿**ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم**﴾ الآية.. فبعد هذا تظل المودة بيننا وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والإنجيل وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد ﷺ عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الأبدى، وحيث علمت من كلام الله أن حزب الله والذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون فأعلم أن حزب الله واصل إليك مزيل

لك عمـا شاركت به خالقك فادعـيت ملك عباده وأرضـه مع أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين وأن المسلمين والمسيـحيين الذين دعوت بإطلاقهم إليك فأنا أريد لهم الصـلاح والنفع عند الله وفي دار الأبد كمـا أريده لك ولكافـة عباد الله خـلاء من جنتهم إلى محنتـهم فإن الله قد أيدنى رحمة لعبـاده ولإنقذهم من الهلاك الذين هم واقعون فيه لولا رحمة الله بظهـورى فيهم واعلم إنى المهدى المنتظر خليفة رسول الله ﷺ فلا حـاجة لى بالسلطة ولا بملك كـردفان ولا غيـرها ولا رغبـة لى فى مال الدنيا وزخرفهـا وإنما أنا عبد الله دال إلى الله والى ما عنده فمن كان سـعيداً أجابنى وتبعنى ومن كان شـقياً أعرض عن دلالتى فأزاله الله عن موضـعه وأذله وعذابه عند الله إلى الابد وقـد أيدنى الله تعالى بـالأنبيـاء والمرسلين والملائكة المقـربين وجمـيع الأولياء والصالحين لإحياء دينه وقد بشرنى النبى ﷺ بأن جميع من يلقانى بعداوة يخذله الله ويهزمه ولو كان الثقلين الأنس والجن فلا تغـتر فتهلك كما هلك إخوانك فافهم وسلم تسلم.

وأما الهدية التى أرسلتـها لنا فعلى حسب نية الخيـر جزاك الله الخير وهداك إلى الصواب، واعلم أنه كـما كتبنا أنا لا نرغب فى مـتاع الحياة الدنيا وزينـتها وإنما هى قصد المترفـين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فها هى مرسلة إليـك مع ما ترغبه من الملبس لنفسنا ولأصحـابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيمـا عند الله من الخير الباقى الأبدى ليسـتحقوا بذلك نعيم الأبد وملك الدوام كمـا درج على ذلك الأنبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحـين وتعلم ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسى عليه السلام وحواريه، وقد قال: كتبت لكم الدنيا فلا تغشوها بعدى (**قلت**: والمسيح لم يقل هذه الترهات أيضاً ولا جاءت فى إنجيله) ـ قال ـ فتعلم بذلك أن من خالفه من الأحبار والرهبان وجميع من يدعى اتباعه ليسوا محقين وإنما غرتهم الحياة الفانية والأمتعة الآيلة إلى أن تكون جيفة وعـذرة ثم عدما محضاً فتكون حسرة ورزأ عند فراقها وما فوتته من اكتساب خيرات الدوام ثم إن مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعرضنـا عنه طلبا لما عند الله وأقـول لك فى ذلك كمـا قال سليـمان عليـه السلام لبلقيس وقـومها: ﴿**أتمدونن بمال فمـا آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكـم تفرحون * ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون**﴾ وأعلم إنك إذا أتيتنا مـسلما نؤنسك ونريك من النور ما يطمـئن به قلبك ويزول به طمعك فى الدنيا وما فـيها ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خـيراً وصلاحاً للمسلمـين وليناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد المشهـور بزقل مدير دارا سابقاً فإنه لما أتانا ورأى الحق وفرح

بلقائنا وندم على ما فات مما ضيعه من عمره فى الفانى واطمأن قلبه بالإيمان واختار الآخرة ووثق بالله وليناه على دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك عبد القادر سلاطين «يريد سلاطين باشا» بالتسليم فأكرمناه وإلى الآن نريد كمال تربيته وهو الآن فى خير كثير وكذلك السيد جمعة الذى كان مديرا لفاشر والآن أرسلنا إلى محمد خالد المذكور يأتى به الينا لكمال التربية والإرشاد وبلغنا حسن إسلام الدمترى سجاده وصدق اتباعه لنا وإنابته للآخرة وكذلك جميع أمراء النقط بدارفور قد أذعنوا لله كباقى سلاطين دارفور وسلموا جميعاً أمرهم إلينا فى حب الله ورسوله فحسن تسليمهم واتباعهم لنا، وكذلك الملك آدم ملك جبال تقلى الآن أتى مهاجراً لما رأى الحق وحسن اتباعه وصدقه وقد أكرمناه وهو الآن معنا بخير كثير وهلم جرا، فكل سعيد لابد أن يتصل بنا من جميع أقطار الأرض ومن أبى لابد أن يخذله الله ويعذبه فى الآخرة كما أشار إلى ذلك النبى ﷺ مراراً وليكن معلوماً عندك ياحضرة الباشا أن جميع الذين قتلوا على يدى قد أنذرتهم أولاً إنذاراً بليغاً وها هو واصل إليك إنذار ولد الشلالى بعد مخاطبته وإنذار هيكس بأجوبة عديدة وجواب مخصوص له ولأكابر جيشه وقد أرسلنا إلى باشه الأبيض بجواب فقتل رسلنا وبعد أن وقع فى يدنا أكرمناه وأعطيناه جبة جميلة ليتدرج إلى الصدق مع الله ولازلنا نكرمه ونعظمه ليقتدى بنا ويصدق مع الله فيكون من الأصحاب الذين هم كالنفس فلم يصدق ولازال يقع فيما يهلكه ونحن نصفح عنه حتى أخذته منيته فمات، ومع ذلك لأجل مبايعته لى ومجالسته معى أياماً قد أتانا خبر بعد موته أنه عفى عنه فى الآخرة فصار من السعداء والعبد إذا كان يسعد فى الآخرة فهو المقصود ولاخير فى الدنيا ولا فى نعيمها بل إنما متاعها يكثر الحسرة والحبس فقط يوم القيامة ونيتى بالعباد سعادتهم فى آخرتهم الأبدية وإزالة الهلاك عنهم من الله ولذلك لاطفت جميع الأكابر من الدولة والحكام فما عملنا معهم إلا الخير والإكرام فمن صدق منهم معنا فهم الآن فى خير كثير وازدياد شرف والسلام ـ وبعد هذا البيان فإن اهتديت وسلمت لى واتبعتنى حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وأجر جميع من اتبعك وإلا هلكت فكان عليك إثمك وآثام جميع من اتبعوك وإن كان لك حسن نور فى العقل تعلم أنى خليفة رسول الله ﷺ فلم تتهمنى فيما أسوق به إلى الله والدار الآخرة ولم تسمع على قول الظلمة الحساد الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ـ وقد قال ﷺ من شك فى نصرة المهدى فليقرأ قوله تعالى: ﴿وهو الذى

أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾، وقوله: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ ولزيادة الشفقة عليكم لزمت التحشية بهذا والهادى هو الله وكثرة البيان لاتهدى هدانا الله والعباد إلى الصواب آمين اهـ. بنصه.

قيل: وكتب الدعى على الظرف الذى أرسل فيه هذه الرسالة ما نصه سألتك بحق الله ونبيه عيسى عليه السلام أن تقف على أجوبتنا هذه بالحرف الواحد وقد أبلغنى محمد سعيد السلمانى الذى يسمى جرجو اسلامبولى أن رجلاً يسمى السيد أفندى نعيم الأجزجى له معرفة بلغتكم وبالخط العربى ومادام أنه يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على ما فى هذا الظرف جميعه حرفاً حرفاً على يد المذكور أو من هو مثله والسلام.

وأرسل إلى غردون بعد هذه الرسالة خطاباً يذكر له فيه بيان الهدية التى أرسلها إليه فى مقابلة الهدية التى كان غردون أرسلها عند مقدمه إلى الخرطوم ونص هذا الخطاب: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى غردون باشا باطلاعك على ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات طلباً لعالى الدرجات وهى جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام وسبحة فإن أنبت إلى الله وطلبت ما عنده لايصعب عليك أن نلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك وها هو الرسول الذى أتانا منك واصل إليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام اهـ.

وعندى أن هذا الجواب يجب أن يكون أول كتب المدعى إلى غردون ومع ما فيه من سماجة الأسلوب وركاكة التركيب فأنى استبعد أن يكون من إنشائه إذا جزمنا بأن الخطاب الثالث الذى هو أحد الخطابات التى نقلناها عن صاحب كتاب السودان هو من إنشائه وعلى كل حال فإنها كلها تدل على مبلغ اعتقاد الرجل فى دينه ويقينه الثابت بأنه هو المهدى المنتظر بلا جدال.

وجعل غردون منذ اشتداد العدو على حصون البلد ومعاقلها يدبر واسطة لخلاص قناصل الدول الذين كانوا معه فى الخرطوم فلم يقبلوا وقالوا: لا بل نبقى حتى تصل الجنود الإنجليزية، فأجابهم غردون إلى ذلك وقد كانت الأخبار جاءتهم بأن صاحب السياسة الإنجليزية أرسل لخلاص غردون ومن معه حملة كبيرة بعد أخذ

ورد لا محل لايرادهما هنا وأن تلك الحملة بلغت النيل عند المتمة فقاتلها أنصار الخارجى قتالاً عنيفاً فقهرتهم وغلبتهم، ووردت الأخبار كذلك إلى الخارجى بما وقع لاصحابه فاضطرب وجمع إليه خواصه وأهل شوراه وكلمهم فيما هم فيه فاختلفوا فمنهم من أشار عليه بالزحف، فى جيوش وأنصاره والوقوف فى طريق الإنجليز وقتالهم حتى ينجز لهم الله النصر ومنهم من أشار بترك حصار الخرطوم والجلاء عنها والرجوع إلى كردفان والتحصن فيها ومنهم من أشار بغير ذلك. قال الراوى: ثم سكتوا لحظة فالتفت الخارجى إلى أبى قرجة أحد الأمراء وعبد القادر على ابن عم الخارجى وقال وأنتما ماذا تقولان: فقال أبو قرجة؟ إن الفرنجة لا يقصدون إلا الخرطوم فإذا بلغها مائة منهم تعذر وقوعها فى قبضتنا فالرأى عندى أن نقاتل من بها ونلح فى قتالها حتى نفتحها فإذا وصل خبر سقوطها إليهم ارتبكوا وتولاهم اليأس فنكرّ عليهم ونقاتلهم حتى نقهرهم، وقال عبد القادر: مقالة أبى قرجة أيضاً فظهرت عند ذلك على وجه الخارجى علامات الفرح، وقال: هذا هو الرأى الصواب فنعمل به إن شاء الله تعالى وقد كان الخارجى إلى هذا الحين يظن أن المؤن عند حامية الخرطوم كافية وأن أهل البلد فى أمان من الجوع كما كان يكتب إليه غردون كل قليل من الأيام فكان لذلك يخشى الزحف على البلد وفتحها عنوة، وكان يحسب لذلك حساباً كبيراً فلما قال أبو قرجة وعبد القادر مقالتهما هذه اشتدت عزيمته وزال خوفه وعقد النية على مهاجمة البلد وفتحها وكان من عساكر الباشيبوزق سنجقان قد مالا إلى دعوة الدعاة وكأنهما استوثقا لأنفسهما منهم. قال صاحب كتاب السودان: فخرجا فى إحدى الليالى من البلد سراً ولحقا بالمهدى فأكرم مثواهما وقربهما منه وسألهما عما فيها من المؤن والعسكر فأعلماه بكل شيء وكشفا له عن عورات البلد وهونا عليه فتحها ودلاه على مكان فى طرف الخندق من ناحية النيل الأبيض قد انحسر عنه الماء فلذلك يسهل الولوج منه إلى البلد ففرح المهدى بذلك فرحاً لايوصف، فلما كان صبح الأحد ثامن ربيع الثانى من السنة أى سنة اثنتين وثلثمائة وألف خرج المدعى من كهفه وعلى رأسه مقطف من الخوص مملوء رملاً وسار فتبعه الناس حتى جاء شاطئ النيل فأحاط به الناس إحاطة السوار بالمعصم فوقف صامتاً لا يتكلم والناس كأن على رؤسهم الطير ثم صاح الله أكبر على الخرطوم وأخذ حفنة من الرمل بيده ورماها فى اليم فصاح الناس جميعا الله أكبر على الخرطوم ومازال يصيح هكذا ويلقى بالرمل فى اليم والناس يصيحون بعده بمثل مقالته حتى فرغ ما فى المقطف فالتفت إلى من هم حوله وقال يا قوم: إن النبى ﷺ قال لى يا محمد

اهجم على البلد فى هذه الليلة فتسقط فى يدك لا محالة، قال ذلك وعبر النيل إلى الجانب الشرقى يريد معسكر ولد النجومى وبعد صلاة العصر ركب جملاً فاحتشد الناس حوله فأثنى على ولد النجومى وقال له: إن النبى ﷺ بشره بالاستيلاء على الخرطوم فى هذه الليلة وأمره أن يقسم مقاتلته إلى ثلاث فرق كقلب وجناحين ويكون هو فى القلب ومعه الفرسان ويكون الحاج محمد أبو قرجة قائد الميمنة ومعه حملة البنادق ومحمد نوبارى شيخ قبيلة بنى جراد احدى بطون قبيلة الكبابيش قائد الميسرة ومعه العرب والبقارة أصحاب الحراب والسيوف وأن يكون هجوم القلب على نقطة الوسط من الخندق عند البرج المعروف باسم باب المسلمية - قال وهى مقر فرج باشا الزينى قومندان الحامية ويكون هجوم الميمنة على الخندق مما يلى النيل الأزرق لجهة برى ويكون هجوم الميسرة على الخندق مما يلى النيل الأبيض عند المكان الذى انحسر عنه الماء وتراكمت عليه الأوحال وصار فى الإمكان الوصول منه إلى المدينة وقدم المهدى عمر إبراهيم وهو أحد الصنجقين اللذين دلا على عورات البلد إلى محمد نوبارى قائد الميسرة بصفة دليل يرشده إلى ذلك المكان «يعنى المكان الذى انحسر عنه الماء» ودفع إليه شخصاً آخر اسمه بدوى الدنقلاوى، وكان كيالا فى الشون بصفة دليل ثان وأصدر المهدى إلى محمد النور أمراً قال فيه ما يأتى: لدى دخولك المدينة يجب أن تقصد سراى غردون على الفور وتبلغه تحيتى ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحدًا يتعدى عليه حتى توصله إلى سالماً بغير أن يصيبه مكروه وخطب على الجميع قائلاً لا يتعرض منكم أحد إلى حياة غردون بسوء لأننى أريد أن أفدى به أحمد عرابى باشا، ثم خطب فيهم يحضهم على الجهاد ويذكرهم بنعيم الآخرة، وقال لهم فى ختام خطبته: احملوا الحشائش لإلقائها فى الخندق حيث تجتازون عليها وقفل راجعاً إلى أم درمان ومعه عبد الله التعايشى وترك الخليفتين محمد شريف خليفة الكرار والخليفة على بن حلو خليفة الفاروق واجتاز النهر آيباً إلى أم درمان اهـ.

وكثر عبور المقاتلة من أم درمان إلى الخرطوم وجعل مقدم العساكر المهدية يطلق مدافعه من أم درمان على الخرطوم تباعاً من عصر الأحد ثامن ربيع الثانى إلى ظهر الاثنين تاسع الشهر المذكور وكان يوم الأحد يوما لا شمس له قد حجبتها الغيوم المتلبدة والضباب المتكاثف وكان البرد قارصاً وعلم غردون بحركة العدو واحتشاده فصعد إلى سطح داره ومعه قناصل الدول وجعل ينظر بالنظارات إلى كثرة العدو

وعبوره النيل فانزعج وتحقق أن العدو على أهبة الزحف على البلد فى تلك الليلة فأسرع إلى الحصون والمعاقل وجعل يستنهض همم الجند ويحثهم على الصبر فى الدفاع فكانوا فى شاغل عن كلامه بما هم فيه من الجهد والتعب وما أصابهم من الضر فعاد إلى مقره، قيل: والدمع ملء عينيه فقابله قناصل الدول فقال لهم: لاقدرة للجنود على دفع العدو وقد دبرت لكم أمر النجاة فلم تقبلوا فلا ذنب لى ولا جناح على ولابد للعدو من ولوج البلد فى هذه الليلة ثم صافحهم جميعاً قائلاً أنى أبرأ إلى الله والعالم أجمع من تبعة كل داهية تلم بكم، فقالوا: نحن نشهد بما تقول فصافحهم ثانية وكانت مناوشات العدو فى ازدياد من ناحية الخندق ومن جهة أم درمان وشاع الخبر فى نحو الساعة العاشرة ليلاً أن العدو على عزم الهجوم على البلد فوقع الهرج فى الناس وعلت الضوضاء فلم تكن إلا ساعة حتى دخل العدو بخيله ورجاله وساروا نحو مقر غردون وأحاطوا به إحاطه السوار بالمعصم. قال صاحب كتاب السودان: وكان القائد فرج باشا واقفاً وقت زحف العدو عند باب المسلمية فلما أحس بدخول الميسرة إلى الخندق مما يلى البحر الأبيض أمر بفتح باب المسلمية حيث فر منه بعد أن تنكر بملابس جندى ومعه القائم مقام سرور بهجت ولما دخل محمد نوبارى المدينة قصد بكل مقاتلته سراى غردون - قال - وكانوا زهاء مائة ألف مقاتل فأطل غردون من النافذة ونظر إليه ثم قال لحراسه لا تبدوا معارضة لأى أحد يريد الوصول إلى وإياكم أن تبدوا أقل دفاع - قال - ولبس كسوة التشريفة الصغرى التى هى ملابسه اليومية على الدوام وتقلد سيفه ولبس طربوشاً ووضع عليه رداء حريريا «كوفيه» وربطه بعقال كزىّ الأعراب فدخل عليه محمد نوبارى وجماعة من مقاتلته فوجدوه جالساً على كرسيه ممسكاً بيده منديلاً أبيض فابتدره أحد الدراويش وقال له أين أموالك ياغردون يا كافر، قال: فتبسم غردون ضاحكاً، وقال له : أين محمد أحمد يقصد المهدى فابتدره الرجل بطعنه فى صدره خر منها صريعاً على الأرض يتخبط فى دمه ولكنه لم يفقد حواسه من هذه الضربة - قال - ونقل لى أحد الحاضرين أنه سمع واحد من الدراويش صاح بالذى طعن غردون وقال له: لا تقتله بل أبقه كأمر المهدى فأجابه القائد محمد نوبارى بقوله إن الخليفة التعايشى أمر بقتله وكان صوته خافتاً حين نطق بهذه العبارة قال: ثم سحبوا غردون من رجليه ولم يكن قد فقد الحواس ولا قوة النطق حتى قيل: إنه كان يبتسم وهو مسحوب على وجهه ثم أنزلوه إلى حوش السراى وهناك قطعوا رأسه وأرسلوها إلى الخليفة

محمد الشريف الذى كان وقتئذ فى جامع الخرطوم فانتدب محمد بن عبد الكريم من أقارب المهدى فركب الباخرة اسماعيلية وأوصل رأس غردون إلى المهدى الذى أنكر قتله وصاح قائلاً لماذا قتلتموه ألم أنهكم عن قتله ؟ فقال له التعايشى: إن قتله خير من استحيائه. فبدت من المهدى علامات الغضب وأسرع بالقيام ودخل إلى منزله ونصبت رأس غردون على خشبة طولها متران وأخذ الصبيان والنساء يرجمونها بالحجارة ويهينونها بالبصق حتى تهشمت قطعاً صغيرة اهـ.

ووردت الأخبار نتفاً إلى القاهرة بسقوط الخرطوم فى قبضة الخارجى واستسلام من بها من المرابطين وموت غردون ومن كان معه من قناصل الدول فكان الناس يتحدثون فى هذا الأمر همسا ولا يصرحون به عسى أن يكون من سقط الروايات أو من تضليل الرواة وكانت الحملة التى سيرها الإنجليز لاستخلاص غردون معقوداً لواؤها إلى الجنرال ولسلى صاحب موقعة التل الكبير أو هو فاتح مصر على المشهور وقد سارت مدججة بالسلاح مثقلة بالشيء الكثير من الكراع والمدافع الحديثة الطراز والمؤن والخيل ودواب الحمل وكثير من سفن النقل فجعلت مركز حركتها مدينة أسوان وجعل الجنرال ولسلى يترفع بالجنود إلى أرض السود يريد اللحاق بالخرطوم قبل أن يتمكن الخارجى من فتحها، وقيل: بل كان فى تردد وحيرة وكتب صاحب سياستهم تأتيه تباعاً تارة بالإقدام وأخرى بالإحجام والمخبرون يأتونه من الأنباء بأشكال متضاربة حتى وقع القنوط واليأس أو كاد وكثر توارد كتب الخديوى على ولسلى أيضاً فى طلب معرفة بعض الشيء من أخبار الخرطوم وما حل بها فلم ينل مأرباً واختلط الحال كذلك على قناصل الدول وكثر تساؤلهم وترداده على ديوان الوزير نوبار باشا يسألون عما حل بقومهم النازلين بأرض السود فلم يعرفوا من خبرهم شيئاً سوى الشائع بين الناس. وجاءت الأخبارفى هذا الحين أيضاً بوصول طائفة من العساكر الإيطالية فى عدة وذخيرة عظيمة إلى فرضة مصوع وأنهم قد احتلوا بعض المواقع فى ضواحى البلد وهم على عزم الزحف إلى بربر للالتقاء بجيوش الجنرال ولسلى وإنقاذ غردون ومن بالخرطوم فكان الناس بين مصدق ومكذب إذ البلد تابعة لمصر وكان الخديوى ورجاله لايعلمون من أمر هذه العساكر ونزولها على مصوع شيئاً إلا بقدر ما تعلمه العامة وأصحاب صحف الأخبار أو كانوا يعلمون بحقيقة خبرها ولكنهم كانوا يتجاهلون كيلاً يوقظوا الفتنة الراقدة، وكان مقدم سياسة الإنجليز لما عوّل على إرسال جيش ولسلى إلى الخرطوم عن طريق

أسوان استمال السنيور كرسبى وزير إيطاليا يومئذ إلى أن يمد جيش ولسلى بمدد من العساكر الإيطالية يسيرون إلى فرضة مصوع ومنها إلى بربر فيلتقون بالجيش ويتضافرون جميعاً على غزو ما فتحه الخارجى من البلاد، وللجماعة الإيطاليين فى مقابلة ذلك فرضة مصوع وما والاها من بلاد الصومال وما جزاء الإحسان إلا الإحسان ففرح كرسبى بذلك وأرسل أولئك العسكر على السفن والشوانى الكبار فأنزلوهم فى بعض المواقع القريبة من مصوع وضربوا خيامهم ولبثوا ينتظرون الأخبار عن جيش ولسلى وهم على أهبة الزحف على بربر وجعل كبارهم يتقربون فى تلك الأيام من مشايخ القبائل الضاربة فى تلك الأطراف ويتزلفون اليهم بالهدايا والتحف فالتف حولهم بعض أولئك القوم وكشفوا لهم عن عورات الصوماليين وهونوا عليهم غزوهم والغلبة عليهم وإدخال بلادهم فى طاعة سلطتهم. قيل: فعاقدوهم وعاهدوهم على ذلك وكتموا السر إلى حين حتى كان من أمرهم وما وقع لهم ما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله تعالى.

وسار جيش ولسلى والأخبار عن الخرطوم ومن فيها تأتيه مبتورة مقتضبة لا تشفى عليلاً ولا تروى غليلاً وعيون الخارجى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم تنقل أخبارهم وهم لايشعرون، وكان أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية يظنون إلى هذا الحين أن غردون حى يرزق، وبعضهم يقول: إنه يقاتل دعاة الخارجى على بربر فإذا تقدم جيش ولسلى إلى ما وراء دنقلة تمكن غردون من مبارحة الخرطوم والإتيان إلى دنقلة بطريق بربر دون أن يلقى معارضة من أصحاب الفتنة إذ هم يخلدون إلى السكينة بمجرد نزول جيش ولسلى على دنقلة، وكان غيرهم يقول غير ذلك والعلم بمقتل غردون عندهم غير مقطوع به، وكان الخديوى قد رسم الى سائر المديرين والمشايخ والأعيان فى جميع البلاد السودانية بأن يكونوا عوناً للجيش وفى طاعة الجنرال ولسلى وشدد عليهم فى ذلك تشديداً كأنهم باقون على طاعة وولاء حكومته والأمر يومئذ على غير ذلك، وكثر توارد سفن النقل للجيش على أشكال مختلفة يديرها جماعة من رجال البحر من أهل كندا وتقاطر مرور الشوانى الكبار صعداً وهبوطا إلى أسوان وكبرت الحركة وعمرت أسوان بالبيوت والأشوان والحوانيت لارباب التجارة والصناعة وأصحاب الوظائف ومقدمى العسكر وغيرهم، وقدم بعض السعاة فى هذا الحين بكتب من غردون كان قد أرسلها قبل سقوط الخرطوم، وكلها استجارة واستغاثة وإعلان بأن لموم الخارجى أصبحت

أدنى من رمية قوس من الخرطوم ثم يقول فى بعضها: إنى لا أرى الخلاص إلا إذا جاءنا عسكر من العساكر السلطانية العثمانية وإلا فالبلد ساقط لامحالة، ويقول أيضاً: إنه إذا جاءه الزبير باشا فى نفر من أصحابه كانت النجاة على يده أيضاً وكأنه كان يخشى اشتداد الفتنة بوصول جيش ولسلى أو كأنه قد أشفق على قومه من الوقوع فى مخالب ذلك العدو الأسود، وشاع خبر تلك الكتب بين الناس وتحدثوا بها كثيراً وكلهم مجمع على سقوط الخرطوم وموت غردون وتعذر بلوغ جيش ولسلى الخرطوم فى الأجل المضروب لسرعة هبوط النيل وانحسار الماء وارتكاز أكثر شوانى النقل فى معبر الشلالات حتى تعذر المسير فيها. ووصل ولسلى مع أركان حربه إلى دنقله فلاقاه مديرها وأجله إجلالاً عظيماً فألبسه ولسلى نيشاناً إنجليزيا وأراه مرسوم الخديوى إلى سائر المديرين وأهل البلاد بمعاونة الجيش والطاعة إلى مقدمه فجمع المدير إلى ديوانه سائر المأمورين والجند والأعيان والتجار وتلا عليهم المرسوم وهو :

من خديوى مصر وجميع ملحقاتها - إلى حضرات المديريين والعلماء والقضاة والتجار ومشايخ القبائل وسائر أهالى السودان رعاياه إليكم سلامنا الخصوصى وبعد، فإن الجنرال ولسلى ذاهب إلى السودان بوظيفة قائد عام للجيوش الإنجليزية بمقتضى مأمورية خصوصية ذات أهمية سامية وقد صدرت له من لدنا ولدن الحكومة البريطانية التعليمات اللازمة لأجل قضاء الغرض المطلوب على أحسن حال ولذا فإنا نوصيكم جميعاً بأن تكونوا خاضعين له مطيعين لأوامره مجيبين لمطالبه كى تفوزوا برضانا ويتمكن من إتمام المأمورية المنوطة به بأقل ما تقتضى من الزمن والسلام عليكم أجمعين اهـ.

قال الراوى: فعند سماعهم هذا المكتوب سكتوا ولم يعجبهم ما فيه، ورسم ولسلى بجعل دنقله مركز حركة الحملة ونقطة مخازن المؤن والكراع، وجعل بلدة الدبة أول النقط الاستحكامية ورتب جماعة من المرابطين فى مروى لحفظ المواصلات، وقرر القاعدة بينه وبين أركان حربه على أنهم يسيرون بعد ذلك قاصدين بربر فإذا تمكنوا من فتحها زحفوا إلى شندى فإذا قابلهم المهدى بأصحابه جعلوا تلك النقطة حداً فاصلاً وإلا زحفوا إلى الخرطوم وأنقذوها، واشتدت الحركة لذلك فى دنقله وكثر توارد العسكر وانتشرت خيامهم حول البلد فلم تكن إلا أيام حتى تفشت بينهم الأمراض المعدية والحميات الخبيثة والجدرى فعظم قلق الجنرال

ولسلى وضاعت تخميناته هباء منثوراً. قال صاحب جريدة الغازيت الإنجليزية : يا الله إن المصاعب الحائلة دون تقدم جيش الجنرال ولسلى إلى السودان ظهرت أكثر جداً مما خمنها ولسلى وقد تعود المرء أنه إذا صحت له نبوءة مرة حاول التكهن أخرى، ولكن لعمرى ما كل مرة تسلم الجرة ولا كل مرة يصح التكهن، فقد قال هذا المقدم الكبير قبل مبارحة الآل والوطن: إن جيشه يجتمع فى دنقله سابع عشر شهر نوفمبر وأنه سيجلس مع غردون على خوان الطعام خامس عشرى ديسمبر من السنة فها قد مضى الأجل الأول ولم يجتمع من عساكره فى دنقله إلا العدد القليل، فإذا كانت نيته أن لا يتقدم إلى عطمور أبى حمد قبل احتشاد جمع عساكره فى دنقله فعسير عليه إذا المسير قبل أخريات يناير افتتاح سنة خمس وتسعين وثمانمائة وألف أما إذا بلغت به الجسارة مبلغها ونهض إلى الخروج مع فرقة الهجانة المتسلحة على خطر معاناة الفشل فيتعذر عليه التقدم قبل منتصف شهر يناير المذكور ـ قال: فقل لى بحقك إذا أين هذا التاريخ وتاريخ وصوله إلى الخرطوم من الأجل الذى ضربه ليأكل فيه مع غردون على خوان واحد إن فى ذلك العجب العجاب اهـ.

وشاع الخبر يومئذ بأن ولسلى سير رسله إلى الخارجى فى طلب تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال فلم يفلحوا فاستنتج الناس من ذلك حرج موقف جيوشه وتحققوا خبر تفشى الأمراض الخبيثة فيهم وإشفاق ولسلى عليهم، وقد جاءت كتبه إلى القاهرة بتعجيل إرسال المؤن والأدواء والأكسية وسائر احتياجات العسكر فعجلوا بإرسالها فى الليل والنهار وظهرت الحركة تحت قلعة الجبل وفى بولاق الدكرور وبالغوا فى التعجيل بتسيير قطورات السكة الحديد تباعاً حتى كان بعيد ذلك ما سيتلى عليك فى محله.

وصـــل
فى حركة بعد أخرى

بينما كانت الخواطر فى حركة واضطراب دائمين بسبب الفتنة المهدوية وتباين الأخبار عمن هم فى الخرطوم من الجند والعسكر والأهل والمال والولد ظهرت حركة أخرى، إذ جاء الخبر من زعيم سياسة الإنجليز بمقدم عظيم من عظمائهم إلى القاهرة اسمه اللورد نورثبروك ومأموريته هى أن يفحص فيما عليه البلاد من خير أو شر وما تحتاجه دواوين الحكومة من القلب والإبدال كان الذى أتاه دوفرين رسولهم من قبل

لم يكن شيئاً مذكوراً فلم تكن إلا أيام حتى وفد الرجل ونزل ضيفاً على السير بارنج ثم جـعل يجتـمع برجال الدولة وأصـحاب الحـل والعقـد وأرباب المناصب العاليـة فيحادثهم فى أمر المكوس والضرائب وأمن البـلاد ونظام عمل وعمال الدواوين وغير ذلك، ثم سار عن القاهرة فطاف الإقليمين القبلى والبحرى واجتمع بكثير من أعيان البلاد ومشـايخها وكلمهم فى الأمر كـذلك، ثم قفل راجعا إلى القـاهرة وكان قبل مبارحته عـاصمة الإنجليز قد أرسل إلى الهند فى طلب قاض من قضـاتها وأصحاب الشورى فيها فجاء إلى القاهرة رجل طويل الـقامة أسمر اللون طويل اللحية أسودها تظهر على وجـهه علامات السـذاجة اسمه سمـيع الله خان ومعه صـبى فى الرابعة عشرة من العـمر ،قالوا: والرجل صديق اللورد نورثبروك جـاء به ليطلع على قانون البلاد المعـمول به فى محاكـمها الجديدة ويعـمل فكره فى تنقيحه وفى التـوفيق بين الشريعة المدنية والشريعة الحنيفية وتوحيد المحاكم المصرية وتشريع شىء جديد يناسب روح العصـر فأدهش الناس حضـوره إذ البلاد بلاد علم وعلماء الشـرع فيها ليـسوا بقليلين فلبث سمـيع الله هذا بالقاهرة أياما زار فـيها سائر دواوين الحكومـة ورجال الدولة وقاضى القضاة بمصر وأرباب المحـاكم الأهلية فلم يظهر للناس من أمره شئ، وقد كنت يومـئذ رئيسًا للنيـابة العمومية بمحكـمة المنصورة الأهلية فـجاءنا الأمر من الوزير نوبار باشا بلقاء الرجل فلاقيناه على الرحب والسعة وجلس يتكلم بالعربية مع غاية البطء والتكـلف وعلامات الإعـجاب والخيلاء بـادية على وجهه فـقال: أنتكم تنظرون المقدمـات يريد هل أنتم تنظرون فى قضايا الأحـوال الشخصيـة وكان يتكلم وهو يقلب صفـحات نسخـة من القانون الأهلى فقلت: إن للمـقدمات التى يعنيـها الأستاذ محاكم أخرى وقضاه آخرين، فقال: وكم من المقدمات عندكم اليوم : فقلت لا شىء منها عندنا وكما قلت لك هى من خصـائص المحاكم الشرعية فسكت لحظة ثم قال : أنتكم تحكمون بشـريعة سيدنا محمد ﷺ : فـقلت قد شغلنا عن الحكم بها شـاغل من هذا الذى بيدك وأشرت إلى نسـخة القانون فدمـدم بالهندية، وقال: أنتكم تجلسـون وين فأخذت بيده وأريته قـاعة الجلسة وسائر غرف المحكمة فكان ينظر إليـها وهو باهت جـامد، ثم رحل عنا إلى القـاهرة، قيل: واجـتمع بشـيخ الأزهر وبعض كبار العلماء وحادثهم فى شىء من شريعة بلاده وما هو عليه القضاء فى مدن وقرى الهـند الإنجليزية، قـالوا: وبالغ كثـيرا فى مـدح الأمة الإنجليزيـة وفى رجال دولتها، ثم رحل عن القـاهرة إلى عاصمة الإنجليز وغاب عنا كـما غابت عن الناس

نتائج مأموريته، وكان قد حضر قبل سميع الله هذا آخر من الإنجليز اسمه كليفور دليود وهذا قد كانت مهمته تغيير نظامات الحكومة واستبدال عاداتها المعمول بها من القدم بأخرى تناسب روح العصر الجديد وتنطبق على المألوف من عادات البلاد والشريعة الإنجليزية وتنفيذ ما أسسه اللورد دوفرين من اللوائح وقننه من القوانين، فكان الرجل من شر الرجال متسرعاً مخاطرا فخوراً مختالاً مستخفا بعظائم الأمور صلفا عنيدا مكابراً فعاث وعبث وجعل يغير من شرائع البلاد ويقلب من عاداتها ويسن البدع ويبدع السنن السيئة ويكاتب مشايخ البلاد والقرى ويزين لهم الخروج عن حدودهم التى ألفوها وينظر إلى سائر المأمورين وأصحاب الوظائف العالية بعين السخط والقلى ويمدّ يده إلى كل عمل ويقع على المديرين والمأمورين باللائمة والتقريع لأقل سبب واتخذ له مقرا بديوان الداخلية وصار يسمى نفسه فى كل يوم باسم جديد فتارة يقول: مأمور الإصلاح، وأخرى يقول: مستشار الإصلاح وأنه مدير النظام، وأخرى منشئ التحسينات المستحدثة وغير ذلك من الأسماء والعنوانات المتشابهة وهو كالهر الذى عثر عليه الأعرابى وقد سماه له الناس بأسماء كثيرة فأكبر ثمنه فلما وجده على غير ذلك ضرب به الأرض، وقال :لا بارك الله فيك ما أكثر أسماءك وأقل ثمنك، وظل كليفور دليود هذا على ما وصفنا من التحرش بسائر أمور الحكومة مع بسط يده على كل شيء حتى ضج الناس وعجوا وصاح المأمورون والحكام صيحة الضجر والملل، وقد أعيا الوزير نوبار باشا أمره وعجز عن ردّه وإيقافه عند حده، فأرسل كتبه إلى زعيم السياسة الإنجليزية يشكو من فعال الرجل ويحذر أصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة الإنجليزية من شر العاقبة ويلقى كل تبعة على الرجل، فجاء الأمر بخلعه فانخلع وسار إلى بلاده متنكرا وقد ترك من آثاره إبطال دواوين أصحاب الشحنة وتقليل اختصاصات بعض الدواوين الأخرى وتقليل سلطة أعضاء مجلس شورى البلاد وعدم تقييد الهيئة الحاكمة بآرائهم والاستغناء عن العدد العديد من أصحاب الوظائف وقفل أبواب الرزق فى وجوه المرتزقة من أبناء البلاد.

وقدم إلى القاهرة فى هذه الفترة شارم سايد عامل الإنجليز على شرق السودان وسواحل البحر الأحمر يسأل الوزير نوبار باشا والسير بارنج استبقاء شرقى السودانى وعدم تركه لأصحاب الثورة قال : حتى يتمكن جيش الجنرال ولسلى من الغلبة على أصحاب المهدى، واستخلاص الخرطوم ومن فيها وكان قد جاءه الأمر بالتخلى عن

بعضها لدعاة المهدى وبعضها إلى نجاشى الحبشة بما فيها من متاع وكراع فلم ير بدا من الشخوص إلى مصر ومكالمة الوزير فى ذلك إشفاقا، فعقد الوزير مجلسه فى دار السير بارنج وحضره عبدالقادر باشا ومصطفى فهمى باشا والجنرال استيفنصون قائد الجيوش الإنجليزية بديار مصر والمستشار المالى وشارم سايد وتكلموا فى الأمر طويلا وحرروا بما وقع عليه الاتفاق محضرا وأرسلوه إلى دار السلطنة الإنجليزية وانفض مجلسهم يومئذ على ذلك، وأرسل الوزير فى ذلك اليوم أيضا إلى الجنرال ولسلى قائد الحملة يسأله عما يكون قد أخبره به جواسيسه من أبناء الخرطوم ومن فيها فلم يحصل إلا على بعض كليمات كلها أحاجى ومعميات لا تشفى غليلا، على حين أن الأخبار مترادفة على بعض ذوى المقامات بالقاهرة ومصر بوقوع النفور والوحشة بين الجنرال ولسلى ومدير دنقلة وإعراض ولسلى عن المدير إعراضا تاما، قالوا: وذلك لا متناع المدبر من المسيرة بمن عنده من عساكره فى طليعة الحملة إلى بربر وتكلم أصحاب صحف الأخبار بعزم ولسلى على تحويل سير الحملة من طريق النيل إلى سواكن وكادت تتحقق الإشاعة بعبور بعض سفن النقل والشوانى الكبار ترعة السويس إلى سواكن، وثبت الخبر القائل بأن دعاة المهدى ومن التف حولهم قد تحصنوا بمعبر بربر وإن طلائعهم نازلة فى جهات مروى أو ما يتقدمها، وإنه لما علم ولسلى بذلك أخذ الحيطة ورسم بعدم تجاوز عسكره الدبة فتربصوا بها وهم على قدم الأهبة والاستعداد لصد العدوّ عنهم وأرسل كتشنر بعض الجواسيس من الدبة إلى الخرطوم عساهم يأتون ببعض الشئ من أنبائها فلم يتسكنوا من ذلك، وجاء الأمر إلى شارم سايد عامل شرقى السودان بالشخوص إلى سواكن وإجلاء الحامية الباقية هناك وترك البلاد كافة لمن يطلبها من الحبشان وأصحاب عثمان دقنه فسار على عجل وانقطعت أخباره أياما ليست قليلة .

(مطلب)

وتوالت الطلبات على الخزينة لكثرة النفقة

وتوالت الطلبات على الخزينة وكثرت النفقة فتعذر على أصحاب الحل والعقد رتق هذا يتأهبون للقتال فلم يكن بأسرع من أن أطلق عليهم العدوّ نارا حامية وأرسل الرمى واشتد فى ذلك شدة بالغة فقتلت نيرانه جماعة كثيرة من الإنجليز وجرحت قائدهم الكولونيل استيورت جراحا بليغة فاستلم قيادة الجيش آخر اسمه

الجنرال ولسن فأودع الجرحى والمؤن وآلات الحرب فى الزريبة وسار بمن بقى من الجيش يجتاز تلالا من الرمال على شاطئ النيل، كان المقاتلون من أصحاب المهدى متترسين خلفها ومعهم طائفة كبيرة من الفرسان فتراجع المهدويون حينئذ وتبعهم ولسن بجنوده، فلما كان ثانى يوم علم ولسن بأن البلد حصينة منيعة لا ترام وأن بها زهاء الألفين من الحامية بينهم ألف من العساكر المنظمة يرأسهم الأمير نور أنقره وعندهم ثلاثة مدافع وكثير من المؤن والذخيرة. فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جاءهم الفرج حيث رأوا أربع سفن حربية من سفن غردون وعليها بعض المقاتلة مقبلة ففرحوا بمقدمها فرحا لا يوصف، فلما دنت من الشاطئ نزل منها خشم الموس باشا ومن معه من العساكر وانضموا إلى جيش ولسن ولبثوا يومهم فى تأهب واستعداد وأصبحوا وقد سير ولسن ثلاثا من تلك السفن لا ستكشاف ما فى شندى فعادوا وأخبروا بأن حامية البلد قليلة وليس عندها من الأسلحة وآلات الحرب سوى مدفع واحد فعدل ولسن عن مقاتلتهم وأنزل جماعة من عسكره بثلاث سفن من تلك السفن وترفع بهم يريد اللحاق بالخرطوم وترك بقية عسكره فى كابوت بعد أن حصن البلد تحصينا منيعا حتى صارت لا ترام، وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة ففرح به جماعة الإنجليز فرحا عظيما وقالوا: ها قد أصبح الجيش الإنجليزى على أبواب الخرطوم وغدا غردون فى مأمن من ذلك العدو فلم يبق على أولئك الأبطال البواسل إلا اقتسام الأسلاب والغنائم وبسط السلطة الإنجليزية على تلك القارة السوداء من أقصاها إلى أقصاها، كل هذا والعارفون بحقيقة ما أصاب غردون يسخرون ويقولون سبحان من يحيى العظام وهى رميم.

وجعل جيش ولسن يخرب القرى المجاورة لكابوت ويدكها دكا حتى لم يبق بها حجرا على حجر وقد تركها أهلها ونزحوا إلى الجبال مستصرخين الأهالى للأخذ بالثار، وكان إلى هذا الحين لم يعلم ماذا جرى على جيش آرل الذى سيره ولسلى عن طريق أبى حمد فخاف أصحاب الحل والعقد من الإنجليز الذين بالقاهرة أن يكون قد لحق به العطب فاستصرخوا نقلة أخبارهم، فجاء الخبر بوصوله إلى برتى الواقعة شمال أبى حمد وأنه لم يلق فى طريقه إلا شراذم قليلة من أصحاب المهدى فبدد شملهم وأوقع بهم، ولكنه عجز عن أخذ بربر ولن يتأتى له أخذها إلا إذا ساعده جيش ولسن الضارب عند المتمة وهذا عسير عليه الانضمام إلى جيش آرل إلا إذا تم له فتح المتمة وشندى وتبديد شمل من بهما من المقاتلة،وترفع ولسن بسفنه

ومعه الجنرال شارلس الذى كان ربان السفينة الحربية الكسندرا يوم ضرب حصون الإسكندرية وآخر اسمه الكولونيل ورتلى وخمسة من ضباط العسكر ومائة من عساكر البحر، فلما صارت سفنه على مقربة من حصون أم درمان لم تشعر إلا وقد علتها نيران مدافع العدو من كل صوب وتراسلت عليها القنابل من طوابى الخرطوم وطوابى عسكر المهدى واشتدوا عليها جميعا بالرمى، فتأمل آرال ومن معه حينئذ فرأوا أن الخرطوم وريعها قد تهدمت وأن منازل الحكومة قد تلاشت فلم يبق منها حجر على حجر فأسرعوا بالسفن فلم يتمكنوا من ذلك وقد أصابت قنابل العدوّ اثنتين من السفن فأغرقتها بما كان فيهما ونجا ولسن ومن معه وطلعوا إلى إحدى الجزر الواقعة أمام البلد وتمكنت الدفة الثالثة وكان عليها الكولونيل ورتلى من النجاة فانحدرت مسرعة إلى حيث مقدمة. وأخبر ورتلى بما جرى، فطيروا الخبر بذلك إلى ولسلى مقدم الجيش فأخذ فى الحال يأمر صاحب سياستهم على لسان البرق من دنقله إلى لندن عاصمة السلطنة الإنجليزية واختلط على ولسلى يومئذ الحال وفسدت تدابيره وانعكست آماله وقام أصحاب صحف أخبارهم وقعدوا وعلت ضوضاؤهم واشتدت جلبتهم وكلهم مجمعون على فساد سياستهم وسوء تدبيره فى إرسال جيش ولسلى وجعلوا يتكهنون بما أصاب غردون بالضعف من أهل البلد من النساء والأولاد حتى قال بعضهم: إن حامية الخرطوم صادقة فى الخدمة أمينة إذ كان غردون يقول لهم كل قليل من الأيام أنه إنما قدم لهم من قبل الخديوى وأمير المؤمنين السلطان عبدالحميد فكانت واثقة من صدق الرواية على الطاعة وحسن الولاء، فلما رأت العين قدوم العساكر الإنجليزية بأكسيتهم وقبعاتهم المحدّبة والمقعرة كذبت الرواية ومالت عن غردون وأبغضته ففتحت للعدو البلد فولجها وأعمل فيمن بها السيف ولربما أصاب غردون ما أصاب آحاد الناس وحدثنى فى هذا الحين رجل ممن فرّ ناجيا من الخرطوم، قال: كانت جميع القبائل حول الخرطوم إلى ما قبل سقوط البلد مخلصة فى طاعة الحكومة الخديوية غير هيابة ولا مصدّقة لدعواه ولا هى حاسبة له حسابا حتى تبدلت أحوال غردون واختلط عليه وساءت أعماله حيث أمر بتخريب المقام الخوجلى الواقع على قيد غلوة من الخرطوم خدام المقام وخليفته فنفرت عند ذلك جميع تلك القبائل أىّ نفور وأخذوا من ذلك اليوم يضيقون على البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول حتى اشتد الجوع بمن فيها من والناس فأكلوا الصمغ والجمار أياما حتى سقطت البلد وقتل غردون ذبحا ومثلوا بجثته تمثيلا شنيعا أ.هـ

وأرسل ولسلى سفينة لتأتى بالجنرال ولسن ومن معه ممن تركوا بالجزيرة بعد غرق السفينتين كما تقدم الكلام فأتوا بهم بعد العناء الشديد، وقد عثروا فى طريقهم بخمسة رجال من الفارين من البلد فأتوا بهم إلى ولسلى فأخبروه بمقتل غردون وما هم عليه وكيف مثل العدوّ برأسه تمثيلا شنيعا فى أم درمان وأكدوا ذلك بالأدلة والأيمان الغلاظ فطير ولسلى الخبر بذلك إلى صاحب سياستهم قيل: فاختلط عليه الحال واختلف مع أصحاب الحل والعقد فيما يفعلونه وفى الذى يشيرون على ولسلى بعمله وقام بينهم والقوّالون ينادون يا لثارات غردون ولبث ولسلى ينتظر الجواب وقد كان إلى ذلك الحين يظن أن قبيلة الشايفية مازالت باقية على الولاء والإخلاص للحكومة الخديوية فلما، جاءه الخبر بسقوط الخرطوم آنس من هذه القبيلة الخروج ومشايعة المهدى أيضا ومظاهرته على الإنجلير فرسم إلى سائر العساكر بالتحفظ وملازمة المعاقل والمتاريس حتى يأتيه المدد، ولكن العربان لم تتركهم بل هاجموهم عند آبار غدقول وأرسلوا عليهم الرمى بالبنادق أياما فلم ير ولسلى بدا من استمالتهم فسير إليهم رسلا يقولون: إن الإنجليز إنما هم آتون من قبل ملكتهم لبث السلام فى ربوعهم وأنه خير لهم أن يخلدوا إلى السكينة والطاعة فيكونون فى مأمن على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وهو يكفل لهم جميعا القيام بسائر ما وعدهم به غردون، وظل على هذا الحال أياما والأخبار ترد إلى القاهرة أشكالا وألوانا حتى شاع فى خلالها أن قد وقع الاتفاق بين زعيم السياسة الإنجليزية وزعيم السياسة الإيطالية على حضور جماعة من العساكر الإيطالية النازلين عند مصوع وما والاها ليحلوا محل العساكر الإنجليزية بالقاهرة فيرحل حينئذ من بالقاهرة من الإنجليز إلى السودان لنجده إخوانهم وتأكدت الإشاعة أو كادت بظهور الحركة بين قلعة الجبل ومنازل الحرب ومنازل الجند بقصر النيل والعباسية وتسابقهم فى جر المدافع وإنزال الأثقال والأحمال وآلات الحرب من مخازن قلعة الجبل وذهاب طائفة من العسكر إلى مدينة السويس بخيلهم ومدافعهم ونزولهم بخيامهم فى ظاهر البلد أياما.

(مطلب)

تحرك نجاشى الحبشة للحرب

وزاد الأمر تخوفا وخبالا تحرك نجاشى الحبشة وتأهب عسكره لتذمره من فعال الإنجليز وخرقهم للعهد الذى عاهدوه عليه من ترك مينا مصوع وبوغس حرة له

ومفتاحا لا ملاكه لا يحتلها أحد غير عساكره ورجال دولته، فإنه لما علم بتوارد العساكر الإيطالية ونزولها حول مصوع أكبر الأمر وأعظمه وراسل المهدى ومناه بالمساعدة على قتال الإنجليز وأرسل كذلك إلى عثمان دقنه واستفزه إلى قتال الإيطاليين وجاءت صحف أخبار الإنجليز وهى ملأى بالحض على إرسال المدد إلى سواكن والا اختلط على من بها الحال وتعذر الخلاص، وكانت عيون عثمان دقنه وأرصاده على أشد ما يكون من اليقظة والانتباه، فلما شاع خبر قدوم المدد من الإنجليز إلى سواكن أخبروا به عثمان دقنه فزحف عثمان بمن معه من المقاتلة وخيم فى طمانيب فأنضم إليه أكثر القبائل الضاربة فى شرقى السودان وشايعه أهالى اكجيج وغيرها واجتمعت لدية قوّة عظيمة مدججة بالسلاح وكلهم متحفزون للوثبة على القادمين من البر والبحر، وكانت إلى هذا الحين ما برحت حمله آرل السائرة عن طريق أبى حمد على قدم المسير والعدّو يتخطف ساقها ويجول على يمينها ويسارها وهى تدافع بالأمر الخفيف فلما صارت فى منتصف الطريق بين مروى وأبى حمد بأن العدوّ أمامها فى عدد كثير ثم اختفى فخاف آرل شر العاقبة وأرسل طليعة للمكاشفة فعادت الطليعة وأخبرت بما رأت فتحرز آرل وجمع جنوده وسار بهم حتى صار على مقربة من مواقع الثائرين وأحاط بهم من كل جانب فهبوا من مرابطهم كالأسود الضوارى واشتبك القتال بين الفريقين فأظهر أصحاب المهدى بسالة وإقداما غريبين واشتدوا فى الطعن والضرب شدة بالغة وأبلوا بلاء حسنا ومازالوا حتى انكشف القتال عن قتال الجنرال آرل وأربعة من مقدمى العساكر الكبار وترفع العدوّ إلى التلال الواقعة على شواطئ النيل وكان الذين يدبرون أصحاب المهدى فى هذه الموقعة ثلاثة أمراء وهم موسى: ولد أبى حجل وعلى ولد حسين وحامد ولد على وقد ماتوا جميعا فى ساحة الحرب وكان المقاتلون معهم نفرا من المناصير ونفرا من الرباطاب وجماعة من دراويش بربر ثم جعل من بقى من جيش آرل بعد لم شعثه يتابع السير إلى أبى حمد وهم على أشدّ ما يكون من الجهد والإعياء وقد تولى قيادتهم الجنرال براكنبورى بعد مقتل آرل.

(مطلب)

إرسال الأمير حسن إلى السودان
باسم مندوب فوق العادة

وبينما هم على هذه الحال إذ وردت كتب زعيم السياسة الإنجليزية إلى السير بارنج بالمكالمة مع الأمير حسن أخى الخديوى فى ذهابه إلى السودان من قبل السلطنة

الإنجليزية باسم مندوب مدنى فوق العادة بدلا من غردون الذى تحقق لهم خبر مقتله فصدع السير بارنج بالأمر وكلم الأمير فى ذلك فأجابه إلى ما طلب، وقال لى شروط أشترطها: فقال السير بارنج وما هى : قال: أن ترسل معى الحكرمة الخديوية خمسة آلاف مقاتل من الباشيبوزق وأن تكون لى الولاية العامة على السودان شرقا وجنوبا فأولى من أشاء من الحكام والمأمورين وأن يعطى لى التصرف المطلق فى سائر الأمور ولا يكون معى قط أحد من الإنجليز فلم تعجب صاحب سياسة الإنجليز هذه الاشتراطات، وأرسل يقول: إذا قبل الأمير الذهاب بلا شرط ولا قيد نال رضا حكومة جلالة الملكة فأذعن الأمير وأطاع ولم يبد بعد ذلك معارضة ففرح الناس وقالوا: إن أول الغيث قطر ثم ينهمل وبارح الأمير القاهرة فى نفر من الكتاب والجاويشية على الباخرة زينة البحرين إلى أسوان ومنها إلى قرطى مركز مقدمة جيش الجنرال ولسلى فلم تكن إلا أيام من وصوله حتى ظهرت الحركة فى قرطى والدبة وغدقول ودنقله وفى سوا كن وشرق السودان وبأن عزم الإنجليز على الجلاء عن تلك الأطراف أو كاد ووردت كتب صاحب السياسة الإنجليزية بذلك إلى الوزير نوبار باشا ثم لم تمض إلا أياما على ذلك حتى أرسل إلى الوزير يقول: أن اتركوا السودان إلى صاحب المهدوية واجعلوا وادى حلفا حدا بينها وبين مصر وعجلوا فى ذلك، فاختلط حينئذ على الوزير الحال وتولاه الاستغراب فجعل يكثر من التردد بين مقر الخديوى ودار الوزير محمد شريف باشا وهم يتكلمون فى الأمر وقد استعصى على الناس إدراك مغزى هذه السياسة إذ كيف يرسلون بالأمس الأمير حسن مندوبا بدلا من غردون ليحافظ على ما بقى من البلاد فى طاعة الحكومة ويسترجع ما يقدر على استرجاعه مما خرج منها واليوم يطلبون تخلى الحكومة عن سائر البلاد السودانية إلى صاحب المهدوية بغير شرط ولا عهد وإجلاء من بها من العساكر، واختلف الناس فى أسباب ذلك الجلاء العاجل فمنهم من قال: إنه مترتب على عجز جيش ولسلى عن مقاومة العدوّ وتفشى الأمراض الخبيثة بين أفراده وسوء الحال الذى بات بالحسنى ودلتهم على المكان أخذوا ما وجدوه وأكلوا وشربوا ما يعثرون عليه من طعام وشراب وخرجوا آمنين مطمئنين لاخوف عليهم وإذا رأوا من أصحاب الدار دفعا كانت الداهية الدهياء على البلد وجميع من فيه فيتفرقون فى أزقته ودروبه أو خارجا عنه ويصلون أهله نارا حامية ويفحشون فى القتل والتخريب وهتك الأعراض وكان الذى أكبر فيهم هذه القحة المتناهية ما التقطوه من البنادق والخرطوش مما تركه

العساكر المصرية إبان الثورة العرابية فى ميادين القتال بكفر الدوار والمسخوطة والتل الكبير، وقد كنت يومئذ رئيسا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية فرأيت من غرائب أفاعيل أولئك الطغاة أمورا لا يكاد العقل يتصوّرها من ذلك أنهم سطوا ليلة على بلدة العزيزية «إحدى بلاد الشرقية» وكان منسرهم زهاء الأربعين لصا وهم مسلحون ببنادق رمنجتون التى التقطوها من ميادين الثورة فلما أحس بهم خفراء البلد قاموا فى وجههم وأطلقوا عليهم البنادق تباعا فقابلهم اللصوص بالمثل واشتبك القتال بين الفريقين وخرج أهل البلد بما عندهم من الأسلحة وقاتلوا اللصوص قتالا عنيفا من بعد العشاء الأخيرة حتى مطلع الفجر، وبينما النيران تتراسل بين الفريقين كان جماعة من اللصوص ينقبون جدران البيت حتى اتصلوا بمكان لرجل اسمه عبدالجليل أغا المورلى فدخلوه وأخذوا جميع ما وجدوه من حلى ومتاع وقتلوا صاحب البيت وابنته وخادما أسود وخرجوا بما أخذوه من وسط زحام أهل البلد وهم على أشدّ ما يكون من القحة والجراءة وقد أحصينا ما أطلقوه من الخرطوش فى تلك الليلة فكان زهاء السبعمائة خرطوشة واهتمت الهيئة الحاكمة بأمر أولئك الأشقياء اهتماما عظيما فرتبت لمحاكمتهم محاكم فوق العادة باسم لجان تحقيق الجنايات وخوّلت لها شيئا فوق الحقوق القانونية فجعلت من يومها تقبض على كل ذى شبهة وكل شقى وتودعه الحبس ثم تتحقق من جنايته وتحكم عليه بالعقوبات الشديدة بين قتل وأشغال شاقة ومؤبدة وسجن مؤبد وغير ذلك من صارم العقوبات فامتلأت الحبوس بعديد أولئك الأشقياء فى الأقاليم البحرية والقبلية ورسم الخديوى أيضا بجمع ما تركه أصحاب الثورة العرابية فى ميادين القتال من البنادق وأدوات الحرب وبكبس دور أهالى كافة القرى والبلاد وإخراج ما بها من ذلك ومعاقبة من يوجد عنده شىء منها بأشد العقوبات فأحصينا ما جمعوه يومئذ من قرى الدقهلية والشرقية وبعض البلدان الأخرى فكان زهاء عشرة آلاف بندقية ومائة ألف من الخرطوش فخاف عند ذلك الأشقياء وانكمشوا وبطل سطو العصابات واطمأنت قلوب الناس قليلا وأمنت الطرق وبات أصحاب الزرع فى مزارعهم بعد أن كانوا لا يلتفتون إليها إذا قربت الشمس إلى الغروب، وسارت تلك اللجان فى عملها سيرا حثيثا فلم تخل من الانتقاد والتعييب ولم تتنزه أحكامها عن الخطأ بأخذ البرئ بذنب المجرم وظلت على هذه الحال عامين وبضعة أشهر حتى أمر الخديوى بحلها فانحلت وعاد النظر فى الجرائم كلها إلى المحاكم الأهلية كما كانت عليه من قبل والحكم لله وحده من قبل ومن بعد.

وصـــل
(فى آمال وفرض احتمال)

إلى هذا الحين كانت قد تبدلت وزارة غلادستــون شيخ الأحرار وزعيم السياسة الإنجليزية الـذى فعل بالسودان مـا فعل بوزارة المحـافظين القائم على رأسـها اللورد سلسبـورى وأصبح هذا اللورد زعيم السيـاسة والقابض على دفة الرئاسـة فلما علم المصريون بهذا التغيير ترامت ظنونهم إلى أبعد المرامى وتعلقت آمالهم بأعصى الموامى وجعلوا يفرضون الاحتـمالات ويتساءلون فيما بينهم عمـا عسى أن يكون من سياسة ذلك الزعـيم فلم تكن إلا أيام حتى وردت كـتبـه على قائد جـيوشهم بمصـر بلزوم التخلى عن سائر بلاد السـودان وتركها شرقا وجنوبا إلى خليفـة الخارجى وغيره ممن يشاء احتـلالها وعدم الخروج عمـا رسم به الوزير غلادستون، فلمـا كان السابع من رمضـان من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجـرية اجتمع الوزير نـوبار باشا وسائر الوزارء والمشـير مختار باشـا مبعوث السلطـان والسير ولف مبعـوث الإنجليز والسيـر بارنج والجنرال استـيفنصون قـائد الجيوش الإنجليـزية بمصر وكـبار العســاكر المصرية والكولونيل كـروف أحد مقدمى العسـاكر الإنجليزية وبعض كبار عـساكرهم أيضا، فلما انتظم عـقد اجتماعهم أبرز الجنرال اسـتيفنصون ورقة وقرأ ما فـيها علنا وإذا هى مرسوم زعيم سياستهم الذى كـانت ترجى رحمته بأهل السودان يقول فيه: إن حكومة جلالة ملكة الإنجليز تطلب من أصـحاب الحل بديار مصر ـ أولا: إخلاء وادى حلفا التى تبقى مستقرا لطائفة من العساكر المصرية فقط رباطا ـ ثانيا: استرجاع سائر الجـيوش الإنجليزية من أسـوان وتحديد مواضع استـقرارهم فى مدينتى أسـيوط والقاهرة ـ ثالثا: إمداد القبـائل المصافية بما يحتاجونه من المال والذخيـرة ليتيسر لهم مقاتلة العدوّ فى وادى حلفا أ. هـ

فمـا أتم الجنرال قراءة ذلك حـتى أخذ العجـب من جماعـة المصريين مـأخذه وعرتهم الدهشة وسكتـوا لحظة ثم جعلوا يناقشون جماعة الإنجلـيز ويراجعونهم فى الأمر فاشتـد الأخذ والرد بين الفريقين واختلفوا وذهب كل إلى مذهب فـقام حينئذ الوزير نوبار باشا وقرأ على مسمعهم نبأ ورد إليه من يوسف شهدى باشا الذى كانوا بعثوا به إلـى وادى حلفا بعد رجوع الأميـر حسن ليسهل الجـلاء على النازحين من تلك الأطراف ويكلم دعـاة المهـدى فى أمـر الصلح والتـعاهـد معـهم على الهـدو

والسكون يقول فيـه: إنه قد وصل إلى وادى حلفا خلق كثيـر من الموظفين المصريين القدماء فى الخرطوم وأخبروا بأن الفوضى ضاربة فى تلك البلد بين الأهالى والأمراء والرؤساء وأن الشقاق مستحكم بين عبد الله التـعايشى خليفة المهدى وأبى الخير أمير بربر وأن القبائل تتأهب للقتال وأن لا صحة لخـبر تحفز العصاة للوثوب على التخوم فما أتم الوزير مقالته حتى وقع الهرج بينهم وعلت الضوضاء وكبرت حجة المصريين واشتد ظهر الوزير بهم فتكلم فى الأمـر طويلا ولكنه رأى من جماعة الإنجليز غلظة فى الرد وجفـاء فى القول واشتـد السير ولف فى الكلام مع المشـير مختـار باشا ثم انفض اجتماعهم على غير طائل وهم الكولونيل كروف بالرحيل لتبليغ خبر ما جرى إلى صاحب سياستهم، وأعقب ذلك ورود الخبر من يوسف شهدى باشا بعجزه عن العمل وبعدم إمكان استتباب الأمن على التخوم إلا إذا استرجعت دنقله وأخذت من دعاة المهدى، وقد هوّن على أولى الأمر بلوغ الغايـة بنفر من العساكر المصرية وبشئ قليل من النفقة فلم يقـو المشير مختار باشا على إقناع السـير ولف بذلك ولم يتمكن الوزير نوبار من استمالة السيـر بارنج إلى رأيه، ورحل السير بارنج عن مصر إلى دار السلطنة الإنجليزية فلحق به الوزيـر ولم يلقيا عصا التـرحال حتى جاء الخـبر بنجاح الوزير فى استرجاع الصلات التجارية بين مصر والسودان والتصريح للقوافل بالخروج إلى الدروب ففرح الناس بذلك فـرحا عظيما وتأهب أصحاب التـجارة لذلك وبعثوا البعوث إلى أسيوط وحلفا وأسوان ليمهدوا لهم الطرق ويتفقوا مع المكارية وأصحاب الأبل وراجت أصناف التجارة السودانية أو كادت رغـما عن الأخبار المتواترة بوقوف الدراويش والدعاة فى جـميع الدروب والمسـالك وشنهم الغارة على الحـدود، وكان الناس يقولون كما أقول إن إعادة هذه الصلات ينجم عنها فائدتين عظيمتين أولهما: تدانى الخواطر فى السودان من جانب الصلح والسلام. والثـانية: نهوض التجارة من حضـيض الكساد إلى أوج الرواج، وكان المشـير مخـتار باشا مندوب البـاب العالى يذهب أيضـا إلى هذا المذهب ويكثـر من إرسـال الكتب إلى البـاب العـالى والمابين الهمايونى فى ذلك، ويقول: إنها مفتـاح مغالق السلام والطمأنينة وخلود العدو إلى السكينة وظل الحـال هكذا أياما حتى جـاء الخبر ثانيـة بعدم نجاح الوزير فى رسـالته وامتناع زعيم السياسة الإنجليزية من اسـترجاع دنقله ومن إعادة الصلات التجارية بين مصر والسـودان فعاد الوزير وعاد كذلك السيـر بارنج وكتب يوسف شهدى متـتابعة إلى الخديوى والوزير نوبـار باشا بالحض على فتح دنقله وانـتهاز هذه الفـرصة التى

أنشب فيها الجـوع أظافره بأصحاب الفتنة من أدنى السودان إلى أقصـاه وكبار عسكر الإنجليز بأسوان يشكون من فعل الأمـراض الخبيثة بعساكـرهم وامتلاء بيوت المرضى منهم فتـرفع الجنرال استيـفنصون قائد الجيـوش الإنجليزية إلى وادى حلفا وأقـام بها رباطا من الإنجليز والمصـريين ورتب العيون والجواسيس من الجند تخـلصا من تغرير الجواسيس من أهل البلد وأقام كذلك بأسوان رباطا ورسم بتبعيد الروم بائعى الخمور والمسكرات فأقصوهم إلى أسوان رحمة بالعـساكر الإنجليزية الذين ضاقت بهم بيوت المرضى بسبب إدمانهم على السكر وأراقوا خمـورهم فى النيل وفى الطرقات فضجوا وعجوا وانحدروا إلى القاهرة صفر اليدين وجعـلوا يرجفون ويشيعون الأخبار المقلقة عن الجنود الإنجليزية والناس لا ينكرون عليهم شيئا مما يقولون لما تولد فى صدورهم من البغض لسائر المحتلين على اختلاف طبقاتهم.

(مطلب

وإلى هذا الحين لم تقف رحى المخابرات مع الباب العالي

وإلى هذا الحـين لم تكن لتـقف رحى المخـابرات بين الباب الـعالى وصـاحب سياسة الإنجليز ولم تنكف الرسل عن التـردد بين الفريقين وهم بين أخذ وردّ وكتب الغازى مـختـار باشا تترادف على المابيـن الهمايونى وكلهـا ملأى بأوجـه الإصلاح وأسباب الخير للبلاد فكان صـاحب السياسة الإنجليزية يطاول فى ذلك ويحاول وفى كلامه شئ من الجفاء والغلظة، وكان إذ جاءت جـواسيس الحدود بخبر تجوّل نفر من السود عند التخوم فى طلب الماء أو الكلا لماشيتـهم طير الإنجليز الخبر إلى الآفاق بأن قد قامت الحرب واتسع مـيدان القتال بين دعاة المهدى والجند المرابطيـن هناك فيصيح حينئذا أصـحاب صحف أخبارهم وا حـرباه المدد المدد، وإذا تخاصم هناك اثنان من سائقى الإبل على ركـوة من الماء أو شئ من التمر قالوا: همـا من أمراء الدراويش وقد أتيا يسـترقان السمع ويسـتكشفان مرابط الجند فـيصيح حينئذ أصـحاب صحف أخبارهم وا كـرباه النجدة النجدة فإذا أغضى البـاب العالى وخفض المابين الجناح أو أظهر شيئـا من المجاملة انكفوا، وقالوا: إن الحدود آمنة مطمئنـة لا خوف عليها من زعانف السود فكانت الدول كافة تنظر مع البـاب العالى إلى هذه المغامرة نظرة الحائر فلاهم يجسرون على نبذها وإيقـاف ترهاتها عند حدّ ولاهم قادرون على إكراه هذا الأسد الرابض على الجـلاء عن البلاد وتركـها لأهلها وغـاية ما فعـله كل من زعيم

السياسة الروسية، وزعيم سياسة الفرنسيس أنهما كتاب إلى زعيم سياسة الإنجليز يقولان: إنهما لا يعترفان بصحة أى اتفاق يحصل رأسا بين الباب العالى ودولة الإنجليز فكان من وراءه ذلك أن وقفت رحى المخابرات بين الباب العالى وسفير الإنجليز بدار السلطنة العثمانية وبارح ولف رسولهم القاهرة وانكشف شيء مما خفى من تلك المخابرات وهو اعتراف السلطنة الإنجليزية بسيادة السلطان عبدالحميد خان على ديار مصر وتكفل جماعة الإنجليز بتأييد الراحة والطمأنينة فى داخلية البلاد ودفع كل عدوّ خارجى بحيث إن خزينة البلاد هى التى تقوم بالنفقة على ذلك فى كل عام، ثم جلاء الجيوش الإنجليزية عندما يصح الجلاء بامتناع الأسباب الحائلة دونه فإذا تم الجلاء لزم زيادة عدد العساكر المصرية ووجبت زيادة القوّاد بينهم من الإنجليز ويصح أن يستخدم معهم نفر من الضباط العثمانيين فإذا مضت ثلاثة شهور ولم تقم حرب على التخوم لزم جلاء العساكر الإنجليزية عنها إلى أسوان ووادى حلفا وحلت محلهم العساكر المصرية ورحلت حامية القاهرة الإنجليزية إلى مدينة الإسكندرية بحيث يبقى لجماعة الإنجليز أرجحية الرأى والإدارة فى سائر المسائل المتعلقة بالخزينة والأشغال العمومية قالوا: أما وزارة الداخلية ووزارة الحقانية فتبقيان مصريتين مطلقا مع الاعتراف بسيادة السلطنة الإنجليزية الأدبية على مصر اعترافا لا يقبل اللبس والإبهام، فلما شاع خبر ذلك قام له أصحاب الصحف المحلية وقعدوا واستصرخوا رجال المابين الهمايونى وقالوا عليكم بالتأنى فى تدبير حل هذا المشكل وإياكم والعجلة فإن الخطب جلل وخذوا برأى صاحبى سياسة الروس والفرنسيس حتى لا يكون فى عملكم ما يوجب الندم أو يدفع إلى زلة القدم، قالوا: وأنتم يا أهل البلاد « ينادون المصريين» عليكم بملازمة الهدوء والسكينة وخفض جناح الطاعة لأولى الأمر عسى أن تعترف جماعة الإنجليز بذلك ولا تنكره فينجلون عن البلاد أو يعينون ساعة الجلاء.

(مطلب)

العزم على إنقاذ أمين باشا من خط الاستواء

فلم تكن إلا أياما بعيد هذه الصيحة من أتت كتب زعيم السياسة الإنجليزية إلى الوزير بعزمه على إرسال حملة خصوصية إلى خط الاستواء بقيادة الرحالة استانلى لإنقاذ أمين باشا مدير خط الاستواء على عهد غردون وإنقاذ من معه من العساكر

والمرابطين فى تلك الأطراف فلم يعجب الوزير هذا الخبر وأكبره لما فيه من المغامز والمقاصد الخفية، قلت: وأمين باشا هذا رجل ألمانى الأصل كان طبيبا مع غردون على عهد الخديوى إسماعيل فولاه غردون يومئذ الوظائف العالية حينا ثم استعمله على عمالة خط الاستواء فبدل اسمه من الألمانية إلى العربية وديانته من النصرانية إلى الإسلامية وسار فى تلك الأرجاء سيرة الملوك والسلاطين وتقرب من مشايخ وزعماء القبائل وتمكن من المنصب أىّ تمكن فلما قامت الفتنة المهدوية وخرجت سائر الأصقاع السودانية من قبضة الحكومة المصرية بقى أمين باشا هذا متربعا فى دست منصبه لا يزاحمه مزاحم ولا يحاربه متاخم فتاقت نفسه حينئذ إلى الاستقلال بملك تلك الأطراف واستمال إليه زعماءها وتحبب لعظمائها وادّخر المؤن وأعد المعدات ليوم الكريهة - وعلم أصحاب الشركة الأفريقية الإنجليزية بخبر ما عنده من العاج وريش النعام وتحقق أهل الحل والعقد فى السلطنة الإنجليزية مما هو عليه من عزة السلطان ونفوذ الكلمة وأيقنوا أنه سيكون عقبة كؤودا فى طريق ملك مملكتهم الجديدة التى ينوون بسط يدهم عليها حتى يدخل فى حوزتهم السودان من أدناه إلى أقصاه وتتبع ذلك الأقطار المصرية إلى الإسكندرية فأوعزوا هم وأصحاب تلك الشركة إلى صحف أخبارهم فأقاموا حينئذ صيحة الأسف وضجوا ضجيج التوجع على مصاب أمين باشا وجعلوا ينادون وا غوثاه أغيثوا يا أهل المروءة سجين خط الاستواء ارحموا يا أهل الرحمة والحنان من معه من الرجال والأطفال والنساء وأمين باشا فى إبان هذه ضجة قرير العين جذل بما أتاحته له الأيام من السكينة والاطمئنان وكان فى حوزته تسعة مواقع حصينة قائمة على شاطئ النيل ومعه من الجنود نيف وألفا مقاتل مدججين بالسلاح وعشرة من المصريين بوظيفة مقدمى العساكر وخمسة عشر من السود ومعه عشرون من الأقباط أصحاب الوظائف الديوانية وكثير من النساء والأطفال والخدم والأتباع وكلهم فى صحة وعافية وظل أصحاب تلك الصحف على هذه الحال من النداء والاستغاثة أياما حتى صدّق الناس أو كادوا يصدّقون أن خلاص أمين باشا والإتيان به من تلك المجاهل البعيدة عمل من أجل الأعمال المشكورة التى تفردت بها أمة الإنجليز، ولم تمض بعيد ذلك إلا أيام حتى جاء الطلب من صاحب سياستهم إلى الوزير بتقدير النفقة لإرسال حملة لإنقاذ أمين باشا هذا ومن معه والإتيان بهم إلى القاهرة فراجع الوزير السير بارنج فى ذلك فلم يفلح واشتد السير بارنج فى الطلب فتقرر على الخزينة القيام بنفقة الحملة وقدرها اثنا عشر ألف ذهبا

وسار استانلى رسولهم لإنقاذ أمين باشا بحملته عن طريق الزنجبار فلقى فى طريقه بعض المقاومة من جماعات السود مما عاقه عن السير أياما ومازال حتى بلغ خط الاستواء والتقى بأمين باشا ولبثا يتجادلان أياما إذ لم يكن أمين باشا ليرضى بترك مقره ولا التسليم فى سلطانه فجعل استانلى يهدده تارة ويمنيه بالأمانى الكثيرة أخرى حتى تمكن من إحضاره مع بعض نسائه وأولاده ونفر من المصريين إلى الزنجبار فلقيه قنصل الألمان وتحادثا فيما هم فيه هناك، فحبب إليه الرجوع إلى مقره والعمل تحت ظل الراية الألمانية وعدم الالتفات إلى شىء مما يقوله استانلى، قيل: ففرح أمين بذلك وتقوّت عزيمته وامتنع من الرحيل عن الزنجبار وصمم على الرجوع إلى واد لاى ووافقه على ذلك نفر ممن جاء معه من المهاجرين ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة وتحدث الناس بها كثيرا وكبرت الوحشة بين أمين واستانلى، قيل: وتلاكما ثم تماسكا بالأطواق وانحدر استانلى إلى السويس يريد القاهرة على غير طائل فوصلها فأولم له الخديوى وهنأه رجال الدولة بسلامة العودة فلم تكن إلا أيام حتى برح الخفاء وظهر للعالمين ما خفى من سر بعثة استانلى وداعى إنقاذ أمين باشا إذ قام أصحاب صحف الألمان يرمون استانلى بالخديعة والمكر ويسمون السلطنة الإنجليزية بالخيانة والغدر، ويقولون: إنها أخلاط من أصحاب المتاجر فى ريش النعام وسن الفيل ومزيج من المرابين والسوقة ثم جعلوا يتهددونها بالحرب والقتال فى تلك القارة السوداء إن لم تقلع عن عدائها لدولة الألمان ومعاكستها فى مستعمرتها الأفريقية أو إن هى عملت عملا يكون من ورائه الإضرار بأمين باشا فردّ على ذلك أصحاب صحف الإنجليز ردّا جافيا واستطالوا على دولة الألمان بهذر الكلام وهددوا أمين باشا بالخيبة وسوء المصير إن هو عاد إلى واد لاى ليؤيد فيها السلطنة الألمانية، وقالوا: سوف يرى «يعنون أمين باشا» من الشدائد ما ليس له فى حسبان بحيث لا يستغرب عجزه عن الوصول إلى بحيرة نيانزة أو أوغانده فإن وصل فلابد أن يرى عند وصوله إليها العلم الإنجليزى خافقا عليها لأن الشركة التى قد سيرت استانلى لخلاصه ستسبقه إليها لتمد فيها النفوذ البريطانى وتمنع يد الألمان من التطاول إليها مهما كلفها ذلك من النفس والنفيس، وكأن استانلى قد أوجعه طعن أصحاب صحف الألمان ووخزهم لفؤاده الدامى بعد خيبته فى استرجاع أمين باشا فالتقى يوما بأحد مراسلى صحف الإنجليز الكبرى، فقال له: وهو يتنفس الصعداء قل لى بحقك ما الذى دفع بأصحابنا الألمان إلى كل هذه المهاترة والهراء ولقد كان من واقع أمرى

أننى خيرت أمين باشا بين خصال ثلاث ليختار إحداها: إما البقاء فى وادى لاى تابعا للسلطنة الإنجليزية براتب سنوى قدره ألف وخمسمائة جنيه مع مساعدة مادية قدرها اثنا عشر ألف، وإما أن يرحل إلى جهة أخرى من تلك القارة ليستقل بحكمها، وأما أن ينحدر معى إلى القاهرة. فهذا كل ما حصل مما لا يستلزم كل هذه الجلبة والتطاول على غير مسوغ فبلغهم عنى ما سمعت منى والله يحكم بيننا، فلما بلغت أمين باشا مقالة استانلى هذه وأن استانلى يتهمه أيضا بأنه لم يذعن إلى مبارحة واد لاى إلا بعد أن فرض له جعلا على ذلك قدره اثنا عشر ألف ذهبا أكبر الأمر وأعظمه وكتب إلى صديق له من أصحاب الحل والعقد فى السلطنة الألمانية يقول: لم يبق فى وسعى وآيم الله مراعاة السكوت والكتمان فى حق من لم يكتم السر ولم يراع حقوق الذمة فلقد عرض علىّ استانلى رسول تلك الشركة الطامعة قبول خصلة من خصلتين: إما أن أترك منصبى فى خدمة الحكومة المصرية وأدخل فى خدمة ملك البلجيك بمستعمرة الكونغو برتبة قائد مع بسط سلطتى على واد لاى وأن أطلب لنفسى ما أريده من الراتب السنوى خلاف مبلغ الأثنى عشر ألف جنيه الذى سيتقرر كنفقة للإدارة. وأما أن أجمع له جندا من السود ليكون هو قائدهم من جانب تلك الشركة الإنجليزية لا يقل عددهم عن أربعة آلاف ليسيروا معه« يعنى مع استانلى» إلى الجنوب الغربى من بحيرة فيكتوريا نيانزا ويحتلوا كاخير وندو ثم يؤسسوا فيها مركزا إذا وجدوها موافقة ويذهب استانلى فى أثناء ذلك إلى مومباسيا ليأتينى بسفينتين نقالتين لنقلى مع طائفة من جيشى لبعثة فى نواحى أوغاندا وأونبورو حتى إذا تم لنا فتح ذلك الصعيد كانت مركزا لنا نزحف منه رويدا رويدا إلى واد لاى مقر حكومتى القديمة ثم أجمع بين البلادين وأتولى الحكم فيها باسم الشركة الأفريقية الإنجليزية لاباسم الحكومة المصرية - قال - وقد ألح علىّ ذلك الإنجليزى «يعنى استانلى» بوجوب الدخول فى خدمة تلك الشركة وتفضيلها على الحكومة المصرية وكان عافاه الله يخاف كثيرا من أنى أفضل البقاء فى مقر سلطانى على الرحيل معه لعلمه أنى بانفصالى عن خدمة الحكومة المصرية لا يمنعنى شىء من الرجوع إلى خدمة دولتى إذا دعيت إليها، ولذلك قد عقد نيته وعزم عزما ثابتا على أنه إما أن يكرهنى على قبول خصلة من الاثنتين وإما أن أرضخ لامره وأبارح على الفور القارة الأفريقية وإلا سلبنى جميع ما عندى من ذخرة ومؤنة وآلات حرب وتركنى وشأنى لا زاد ولا سلاح فاضطررت إلى مرافقته كارها حزينا فظن أنه قد نال منى أربه وفاز بمغنمه وساعدته القدرة على تقليم أظافر ذلك الأسد ولكن قد خابت

آماله وفسدت أحلامه وهـا أنا اليوم خادم للراية الألمانيـة فى تلك الأرجاء والله من وراء ما يعملون.

قلت: وشاع عند وصول استانلي إلى القاهرة أنه أشار على الخديوى والوزير أن يرسلا إلى سلطـان الزنجبار فى طلب أمـين باشا وأنه إذا حضـر له عاقـه ومنعه من الرجوع إلى واد لاى فلم يفحلوا جميـعا فى ذلك لما ناله أمين باشا من المكانة وعزة الجانب بين الألمان وتحقق الناس حينئذ أن تلك الصـيحة التى بلغت عنان السماء من جانب جماعـة الإنجليز لاستنهاض أهل النخوة وأصحـاب المروءة إلى فك أسر أمين باشـا وإنقاذ من مـعه ليـست من الحنان فى شيء ولا هى لوجـه الله تعالى،وظهـر اهتمام دولة الألمان بتلك الأرجاء وبحملة أمين باشا فبـالغت فى تشييعها وأكثرت لها من المعدات وآلات الحرب وأوعزت إلى أمين باشا بأن يبسط يده على بحيرات نيانزا ومات والاها مع واد لاى، وأن لا يبـقى ولا يذر وسيرت إليـه جماعة من مـقدمى العسكر وعظيما من قومها اسمه الماجـور ويسمن قد ولته الولاية العامة على ما كان وسيكون لهـا من المرافق والأملاك هناك، ثم صـاحت على جمـاعة الإنجليـز بلسان أصحاب صـحفها الكبرى أن ارجعـوا عن طمعكم وخففوا من جـشعكم فى القارة السـوداء واعلموا أن يومكم ليـس كأمـسكم فلا ارعـاد سلطتكم القـديم ينفع ولا أزيادها اليوم يدفـع واقصروا أيديكم من التطاول الذى هو دأبـكم فعيـوننا وأرصادنا ترمقكم من كل صوب وحدب وعسكرنا يحول دون بلوغ سلطتكم كل أرب لاسيما وإن كان كلمتهـا هناك قائمـة على الإيهام والتغرير وسلطـانهـا أفـرغ من كنّ الفـقير فلا عسكر لها هناك ولا كراع ولا حصون ولا قلاع فإن أحسنت العمل فلنفسها وإن أساءت فعليهـا والسلام، فقام لذلك جماعة الإنجليـز وهموا بعمل شيء يرجون من ورائه كشف هذه الغمـة فلم ينالوا مأربا واهتمت دولة الألمان من هذا الحـين بتوسيع نطاق استعـمارها فى قارة أفريقـية بعد أن كانت تبـتعد عن ذلك وتحسـبه ضربا من الطمع وعمدت إلى المزيد من الفتح حـصل هذا كله ورجال مصر لاهون بما عندهم من المشاغل مـعرضون عن الاهتمـام بشئ مما وراء الحدود التى رسمهـا لهم صاحب السياسة الإنجليزية والناس فى دهشة مما يرون ويسمعون ـ وقد تفرق بعض من حضر من المهاجـرين مع أمين باشا فىْ أزقـة وحارات مصـر والقاهرة يستـعطون أهل البر والإحسان ويحدّثون الناس بما كانوا فيه وقد طرقوا أبواب الحكومة فى طلب ما تأخر من جماكيهـم وما يستحقون من المعاش حتى وقـفوا فى طريق الوزير فأهتم بأمرهم

وكشف عن بعض غمتهم وصرفوا لهم ثلث ما تأخرلهم وطالب كذلك أمين باشا الخزينة بماله من المتأخر مدة السبع سنوات التى لبثها فى أواسط أفريقيا فأجابته إلى طلبه صاغرة وأعطته ما يستحق كارهة ورتبت له معاشا شهريا يتقاضاه من الخزينة، وأشاع جماعة الإنجليز عن أمين باشا بعيد ذلك الإشاعات المختلفة والأقوال المقلقة عند قومه فيوما يقولون: إنه مريض، ويوما يقولون: إنه فقد السمع والبصر ويوما يقولون: أنه جن وآخر أنه سقط من شرفة مكانه فدق عنقه ومات، وغير ذلك من الإشاعات المتباينة حتى قدم الماجور ويسمن من الزنجبار إلى القاهرة ومعه بعض الخدم من السود والأتباع فاحتفل بمقدمه جماعة الألمان وبالغوا فى إكرامه وأدبوا له المآدب الفاخرة فوقف مرة خطيبا فى إحدى تلك المآدب وقال: أشكركم على المقابلة التى قمتم بها نحوى كلما أسعدنى الدهر بالمرور فى هذه العاصمة الزاهرة ثم إنى أخبركم بأننى قد قمت بالمأمورية التى عهدا إلىّ امبراطور ألمانيا وأؤكد لكم بأن السلام الذى عبث به بعض الثائرين قد استتب فى جميع سواحل أفريقيا الشرقية والفضل فى ذلك للعساكر والمدافع التى استخدمتها لإخضاعهم ولكننى مع ذلك أقول: إنه يتهدد مصالح ألمانيا فى أملاكها الآن مصاعب سياسية ولذلك فقد دعانى عظمة الأمبراطور «يعنى امبراطور ألمانيا» لأبين له نتيجة بعثتى وأعين الرسوم الجديدة لاملاكنا فى أفريقيا حسما للنزاع الذى ربما ينشأ عن هذه المصاعب السياسية ثم إنى أؤمل أن أعرض على دار ندوتنا حالة دولتنا فى أملاكها فى أفريقيا وأسأل النفقة اللازمة لإقامة مملكة استعمارية ألمانية ثابتة فى تلك البلاد وأؤكد لكم أنه رغما عن المساعى التى يبذلها البعض لمنع النفوذ الألمانى فى أفريقيا فإن ألمانيا لا تتأخر البتة رغم أنوف الذين يحولون دون أعمالها المدنية.

هذا وأنى أنقل لكم سلام أمين باشا الذى لا يزال يذكر أصدقاءه فى مصر وأبشركم بأنه على غاية الصحة والعافية خلافا لما تقوله الجرائد عنه من أنه مريض كفيف البصر معتوه العقل بل هو لا يزال كما عرفناه من عشر سنوات بدليل أنه بدلا من أن يعود إلى بلاده للمعالجة قد أحب أن يعاود سفره إلى أواسط إفريقيا رئيسا لحملة عظيمة ولقد أخذه العجب من الذين كانوا يدعونه بالشهير «يعنى الإنجليز» أيام كان فى خدمتهم ثم أصبحوا الآن يدعونه بالكفيف العاجز المعتوه بعد أن فارقهم وعاد إلى خدمة دولتنا فسبحان مغير الأحوال أ. هـ .

وعاد استانلى إلى عاصمة الإنجليز فأجزلت له سلطنتها العطاء ولقبته بأكبر

الألقاب عندها وأسندت إليه مسندا عاليا وهو اليوم فى مصاف أهل الرأى وأصحاب الشورى فنشط إلى استنهاض أصحاب الحل والعقد إلى الوقوف فى وجه الدولة الألمانية ومنعها من التغلغل فى جوف القارة الإفريقية ووقوفها سدا قويا فى طريق الإنجليز هناك وجعل يخطب فى الناس ويملأ صحف أخبارهم بعبارات الحض والاستنهاض والأنين والشكوى من تقاعد رجال السلطنة الإنجليزية عن تدارك الخطب قبل استفحاله لاسيما وقد تمكنت دولة الألمان من قلب القارة الإفريقية أوكادت فتحركت حينئذ خواطر القوم وهمّ صاحب سياستهم بإرسال عظيم منهم إلى عاصمة الألمان يرجو امبراطورها الوقوف عند حد ومنع ذلك الخصام واللدد فلبث الرجل هناك أياما حتى رسم الإمبراطور لرجل من قومه اسمه الدكتور كرانل بأن يناقش رسول الإنجليز فيما جاء فيه فأقاما على هذه الحال أياما طال فيها الأخذ والردّ بين صحف الفريقين وكثرت بينهم المهاترة والقول الهراء على ما تقدم بيانه فجعلت حينئذ أصحاب صحف الفرنسيس تسخر بهم وتهزأ بفعالهم، فما قالته إحدى تلك الصحف الإفرنسية عبارة لا بأس بإيرادها هنا فإنها تشخص لقارئها واقعة الحال بأجلى مظاهر التعبير وتدله على نوايا السلطنة الإنجليزية فى تلك القارة من أقصاها إلى أقصاها ـ قالت لعمرى إن من تأمل مساحة تلك القارة الواسعة على صفحات الخريطة تبين له من أول نظرة أنها كافية لاستعمار سائر الدول حتى دولة البرتغال، ولكن متى تذكر ما اتصفت به الدولة الإنجليزية من الطمع والأنانية واستعمار الدولة الألمانية واندفاعها فيه عاد به الأمر إلى عكس ماتوهم من كفايتها حتى لنسأل عن الدولتين بعد إذ حرمتهما منها دولة البرتغال حتى لا ينتهى بهما الحال إلى الخصام عليها وقد رأينا أن نمثل للقارئ دورا لطيفا بين هذين الرسولين، نعنى بهما رسول دولة الإنجليز ورسول الألمان بكلام نسطره لهما مما يوافق الحال وإن لم نبلغ فيه إلى ما دار بينهما من الجدال بحرفه ولكنه يبين للقارئ بأجلى بيان نوايا الدولتين فى تلك القارة السوداء فنقول ليتمثل القارئ البنيه رسول الإنجليز منكبا علي خريطة إفريقيا وفي يده قلم يخط به خطا من الدرجة الخمسين طولا على طول طريق يؤدي إلي أواسط إفريقيا من بوغاز السويس ثم التفت إلي صاحبه الألمانى وقال: أليست هذه أرضا إنجليزية فانحنى له الألمانى وتبسم فأردف الإنجليزى عبارته هذه وأتبعها بقوله: إننا إذا اتبعنا الدرجة الخمسين طولا نجد أنها تقطع النيل فى موضعين أو ثلاثة مارة به فيكون نهرا إنجليزيا إن شاء الله تعالى ـ فقاطعه الألمانى بقوله: نعطيكم إياها إن شاء الله ـ فقال الإنجليزى وبذلك نصل إلى الخرطوم ولا ننكر عليكم أن غردون قد مات

ولكن لابد من الأخذ بثأره لأن استانلى عندما عاد إلينا فى هذه المرة جعل يقول إن ترك السودان يعد جريمة لنا لا تغتفر وأن أخذها من الهنات الهينات إذ لا يلزم لافتتاحها سوى مد خط حديدى بين البحر الأحمر والنيل كما بين سواكن وبربر مثلا وهو خط لا يكون طوله أكثر من ثلثمائه كيلو متر وذلك ليس بالشئ العسير ثم نمتد من بربر مقتفين الدرجة الخمسين طولا فنأخذ العبيد وسنار ثم نصعد فى النيل الذى هو ملكنا كما لا يخفاك حتى بلغ كوندوكورو وبذلك نضمن لتجارتنا سلامة النهر بطوله على مسافة ألف وخمسمائة كيلومتر تبتدئ من بربر ومن ثم نتصل إلى البحيرات العظمى بلا مشقة ولا عناء - فقاطعه الألمانى على رسلك يا صاح لقد وصل الدكتور بترس عالمنا الشهير إلى تلك البحيرات العظيمة أيضا وكنا نظنه ميتا قد دفن فإذا بنا نجده حيا يرزق وفى وعائه الشئ الكثير من المعاهدات والاتفاقيات التى عقدها مع ملوك وزعماء تلك الأصقاع بعد المخاطرة فى قطع جبلى كينا وكليمنجارو اللذين قد أصبحا جبلين تابعين لدولتنا بعد الآن ولم يقتصر على ذلك بل دار حول بحيرة نيانزه فيكتوريا حتى صار الآن فى أواسط أوغانده حيث يتبعه أمين باشا عما قليل ويلاقيهما الماجور ويسمن قادما من الزنجبار فإذا الدرجة الخمسون التى قد اتخذتموها لأنفسكم ملكا حلالا ليست لكم فإنها تمر فى درجة نفوذنا ولا يصح قط التسليم لكم فيها - فقال الإنجليزى: إذا أنتم تريدون أن تنازعونا فى البحيرات العظمى التى هى خزانات النيل ومنبع حياته كأنكم تجهلون أنها إنجليزية وأن مكتشفيها من الإنجليز فإن كنتم تجهلون ذلك أو تتجاهلونه فانظروا إلى اسمها تجدوا فيكتوريا وكفى بهذا الاسم دليلا على أنها إنجليزية فضلا عن أن سكان تلك الجهات لا يعرفون من الأمم الأخرى سوانا وفوق ذلك فإن الرحالة استانلى لم يسمح لزعيم سياستنا بأن يتخلى عنها وهذا الزعيم لم يسمح لى بأن أتخلى لكم عن قيد شبر قط بل ولا عن محط أصبع من تلك الأرض ثم أنتم تعلمون أن أمين باشا كان حاكم السودان وقد بسط يده عليها باسم الحكومة المصرية أى باسم السلطنة الإنجليزية كما أنكم لا تنكرون أن تلك الدرجة الخمسين إنما هى طريقنا إلى تانفانيكا أفتريدون أن نتخلى عنها ونتركها لكم - فأجابه الألمانى ما هذا يا صاح إن تانفانيكا هذه التى تقول عنها إنما هى قلب النفوذ الألمانى وفلذة كبده وأنت هداك الله لا تجهل أننا عزمنا على أن نمد مستعمراتنا من الزنجبار إلى الكونغو وتانفانيكا كما هو واضح ومعلوم واقعة فى طريقنا فهى إذا لنا ولا كلام - فهز الإنجليزى رأسه وقال هيهات

ذلك فقد أخذناها وقد عقد لنا استانلى المعاهدات القوية مع زعماء القبائل الضارية فى شماليها وستتخذها شركتنا الإنجليزية الإفريقية قاعدة لنفسها سيما وأن استانلى رجلنا عافاه الله لا يدع صاحب سياستنا يتخلى عنها قط ـ فقال الألمانى وصاحب سياستكم أظنه لايدعك أنت أيضا تتخلى لنا عن شئ منها ـ فقال: أجل وكيف أتخلى عن شىء من ذلك فتقطعون طريقنا بين البحيرات وتانفانيكا من جهة وبين أملاكنا فى نياسا من جهة ـ فصاح الألمانى رويدك رويدك ماذا وكيف تقول ألا تدرى أننا ملكنا نصف نياسا وأنها إحدى طرقنا المطروقة إلى الكونغو وغيرها حتى أن البرتغاليين قد تركوها لنا إننى أراك متسرعا متعديا على حدود نفوذنا وهذا لايمكن أن يكون وفينا قطرة من الدم ـ فقال الإنجليزى: كيف تزعمون امتلاك بحيرة نياسا ونحن الذين حمينا منازل المرسلين الأيكوسيين حواليها بل من الذى مدّ الطريق بين تانفانيكا وبينها ومهده غير جماعة المرسلين الإنجليز أماما تدعيه دولة البرتغال من الحقوق فإنكم معشر الألمان تعرفون أننا نجهلها ولا نعترف بشئ منها ولذلك فإنها لم تقدر أن تتنازل لكم عن أراض ليست لها فى الحقيقة وفضلا عن ذلك فكيف تقدرون إن تقطعوا علينا الطريق الوحيدة التى توصلنا من أملاكنا الواقعة فى خط الاستواء إلى أملاكنا الشمالية إلى بورنتال مارة فى دالاكوا التى إن لم نبسط يدنا عليها اليوم ففى غد وغد لناظرة قريب ـ فقال الألمانى: يا لله ولماذا إذا لا تقول أن الدرجة الخمسين هى كلها لكم لالسواكم ـ فأجابه الإنجليزى: ولكن هذا هو الحاصل وإذا أنصفتم وعدلتم لم يسعكم إلا جعل الحق فى جانبنا وأن تلك الدرجة هى طريقنا من مصر أرض الفراعنة إلى رأس الرجاء الصالح ثم أنتم إذا تبصرتم فى الأمر رأيتم أننا لا نطلب إلا طريقا بين مستعمرتين إنجليزيتين فأين يكون الشطط أو الاجحاف فى ذلك ونحن لا نطلب إلا الوصول إلى أخواننا فى طرفى القارة وذلك ويعلم الله أقل ما يكون فعند ذلك تمطى الألمانى وقال: فماذا نصنع إذا وماذا يصنع البرتغاليون والإيطاليون ـ فأجابه على الفور ما لنا وللبرتغاليين الآن أما جماعة الإيطاليان فقد طاب لهم المقام بمصوع فإذا أرادوا الحبشة أيضا فليأخذوها وإن كنا قد دخلناها بجنودنا فيما مضى وصار لنا فيها بعض الحق ولكنا نتركهما لهم هبة كريم مسامح ـ فقال الألمانى: ونحن ـ فأجابه: أما أنتم فقد أعطيناكم الزنجبار بين جزيرتها وشاطئها وذلك فوق الكفاية بل قد نكون أخطأنا فى ذلك لانه سيأتى يوم نحتاج فيه لنقل محصولات خط الاستواء إلى البحر من غير بدّ فإذا ظل أصحاب المهدى آخذين

علينا طريق النيل لم يكن لنا ندحة عن إيـرادها من البحيرة إلى البحـر ولا سبيل لنا غيـر الزنجبـار ولذلك كانـت هذه الجهـة أولى بنا من سواها لاننا إذا أطعنا الرحـالة استانلى ـ فـعند ذلك قاطعه الألمانى واحتـد والتفت إليه محـملقا وقال إنى لا أرى فائدة مـن هذا الجدال وإنه خيـر أن نرفع الأمر إلى امـبراطورنا لأنى عـلى ما أرى عسير علىّ أن أسالك شيئا بشـأن تحديد النفوذ بيننا فقام الإنجليزى وانصرف مقطب الوجـه وهو يقـول أجل ومن قـال دائرة النفـوذ الإنجليـزى فكأنما يقـول دائرة الكرة الأرضية بتمامها أ. هـ.

وجاءت فى هذه الأيام أيضا كتب صاحب السياسة الإيطالية إلى ديوان الخديوى والوزير نوبار باشا بطلب فتح باب المخابرة بينهم بشـأن السودان وتوسيع دائرة النفوذ الإيطالى فيه من حد سـواحل البحر الأحمر يعنى من فرضـة مصوع وما والاها إلى ضفة النيل الأزرق فأكبـر الخديوى هذا الطلب وأعظمه وكلم قنصل إيطاليا فى ذلك فلم تكن إلا أيام حـتى وردت كتب صـاحب السيـاسة المذكـور بأنه إنما يريد إطلاق الحرية له فى احتلال كسله والاعتراف بسيادة الايطاليان على البقعة المأهولة بقبيلة بنى عامر والممتدة إلى ناحية بركة التى قـبل أهلها حماية دولة إيطاليا لهم. قال: فإن لم تتفق معنا الحكومة المصرية على ما فيـه المصلحة كلمنا فى ذلك زعيم سياسة الإنجليز فأن لم يوافقنا هو أيضا تصرفنا فى الأمر بحسب ما تقتضيه مصلحتنا وبسطنا سلطاننا على كل قسم من القارة الإفريقيـة بدخل ضمن دائرة نفوذنا، وجعلوا من هذا الحين يحاولون مباغته القبائل الصومالية المصافية للحكومة فكانوا إذا انسوا منهم إخلادا إلى السكينة ورأوا من نجاشى الحـبشة تغاضيـا أو من الرأس ألولا مقدم جيوش الحـبشان تقاعـدا عن الحركـة تقدمـوا بعسكرهم ببطء ومـدّوا يدهم إلى بعض البقـاع بلطف وسايروا أهل القرى وكبار القوم فيها وأجزلوا لهم العطاء وأتحفوهم بالتحف والهدايا وخابروا صاحب سياسـة الإنجليز فيما هم فيه وعلقوا أملهـم بالمحال فإن أحسوا من مقدم عـسكر الحبشان بالحـركة وزحف الجنود ورأوا الكتائب تتلو الكتائـب انكمشوا وعاودا صاحب سياسة الإنجليز فى الكلام فيمنيهم ويهوّن عليهم ويشير بالتأنى وترك العجلة فلما طال على نجاشى الحبـشة الحال ورأى أنه لا هو دافع شر الإيطاليان عن تلك البـلاد التى تعتـبرها جـزءًا من سلطنته بحكم الاتفـاق الموقع عليـه مع رسول الإنجليز «وقد مر بيانه» ولا هـو تاركها للإيطاليان يضمونها إلى مسـتعمرتهم الجديدة رسم إلى مقدم جيوشه بالحركة وعدم الوقوف عند حد فسار مقدم الجيوش إلى التاكا

وضرب القبائل النازلين حولها ونهب أموالهم ومـاشيتهم وأفحش فى قتلهم ثم قفل راجعا إلى عدوه مقر كرسى النجاشى ولبث بها أياما ثم سار إلى جندع الواقعة بين عائلة وأسمره على مرحلة من مصوع وعسكربها بجيوشه وجعلها مقره ومركز حركته وأخذ يتأهب لقتال الإيطاليان وشاع الخبر بـذلك فخاف الناس كثيرا وأخذوا يلجئون بعيـالهم ومتاعـهم إلى الجزيرة وتتابع خـروجهم من البلد حـتى لم يجد الرائى فى طرقها سوى النوق المحملة بالأثاث والمتاع فقلق عند ذلك جماعة الإيطاليان واشتدوا فى عمل الحصون والمتاريس وأكثروا من وضع المدافع والمكاحل على الأبراج وسيروا إلى كتشـنر باشا عامل الخديوى على سـواكن فى طلب المدد فأرسل إليهم سفـيتتين حربيـتين من سـفن الحرب الإنجليزية وجـاءهم كذلك بعض السـفن الإيطالية وكـبر خوف المرابطين من العساكـر الإيطالية من اهتمام الحبشان بإقامـة الحصون والمتاريس بمعسكرهم فـأنشأوا هم كذلك قلعـة حصينة على رأس الـناحية المعروفـة بحرقيـقو وسموها طابيـة وعا ووضعوا عليها كـثيرا من المدافع الكبار وبث الحبشـان عيونهم وأرصادهم حول البلد فانقطع عنها الوارد من المأكول والمشروب ورحل من كان نازلا حولها من العربان والمرتزقة فطير الجنرال جنيه قـائد العساكر الإيطالية الخبر بما جرى إلى زعيم سـياستهم ثم كتب يـقول له قد استحكـمت النفرة بيننا وبين الرأس ألولا قائد الجـيوش الحبـشيـة فالمدد المدد فلما أبطـأ المدد لم ير بدًا من تسليح الموالين من أهالى حرقيقـو بالبنادق وأعطاهم شيئا كثيرا من الذخيـرة والمؤن واستحلفهم على أن يكونوا عونا لهم على الحـبشان وتصـاريف الزمان فلم تكن إلا أيام حتى جاء الخـبر إلى مقدم العساكر الإيطالية بحـاجة المرابطين منهم فى موكوللو إلى المؤنة والذخيرة فأزعجه هذا الخبر لحراجـة الموقف ويقظة العدوّ فجعل يراقب الفرص حتى آنس من الحبشان بعض الخلود إلى السكون فسير قافلة صغيرة بما تيسر لديه من المؤن والذخرة إلى موكوللو وأتبـعها بطائفة من المقاتلين فلم يتم خروجـهم من البلد حتى داهمهم العدوّ بخيله ورجله وأعمل فيهم القـتل بحد السيف حتى لم يبق منهم أحد وخرج من كانوا فى مـوكوللو من المرابطين على وجـوههم إلى مصوع لعـدم قدرتهم على البقاء وتركوا رباطهم بما فـيه من متاع وكراع فلم يتعرض لهم جماعـة الحبشان بسوء واحتلوا مكانهم وغنموا مـا فيه غنيمة باردة فـأكبر قائد العساكـر الإيطالية هذا الأمر وأعظمه جـدا ولكنه لم يجسر على الخروج بعـسكره من البلد وسير الكتب تبـاعا إلى صاحب سياستهم فى طلب المدد ولكن يالله ماذا ينفع هذا كله وأرض السود هوّة

عميقة تبتلع الشيء الكثير من الأموال والأحمال والأثقال والعدد العديد من الرجال وتزهق دون إخضاع جبابرتها أرواح الأبطال ولقد طالما أنفق فيها الدم والمال من المماليك القديمة كما يدل على ذلك تاريخها ورأينا رأى العين ما أصاب الإنجليز والمصريين من نار هذه الأرض الغبراء حتى جاءت اليوم نوبة الإيطاليان الذين غر صاحبهم الطمع فأوقع قومه فى هذه المهلكة فلما اتصل خبر هزيمتهم هذه بزعيم سياستهم أبلغه إلى دار ندوتهم فعلم به السواد الأعظم من عامتهم وأهل الدعارة منهم فاجتمعوا حول دار الندوة ألوفا وارتفعت أصواتهم وعلت ضوضاؤهم ونادوا بالويل والثبور على زعيم سياستهم واشتد بهم اللجاج والهياج فجاءت طائفة من عسكرهم وفرقت جمعهم ومزقت بضرب العصى شملهم بعد لكم وضرب وجاء كتاب نجاشى الحبشة إلى جنيه قائد عسكرهم بالجلاء العاجل عن مصوع وما جاورها حقنا للدماء وإلا فالسيف والنار ولا هذا العار قيل فلم يردّ عليه وقيل بل ردّ بأحسن ما يكون من عبارات التلطف والتودد.

وقد هيج ظفر الحبشان بجماعة الإيطاليان ساكنا من أصحاب المهدوية النازلين حول سواكن فهبوا إلى الحركة وجعلوا يتخطفون الناس والماشية من حول البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول والمشروب فاهتم كتشنر باشا بالأمر وأكثر من تطواف العساكر حول البلد فى الليل والنهار وتقدمت بعض سفن الحرب الإنجليزية نحو البلد تأهبا للدفاع عند الحاجة وأخذ كتشنر يستميل مشايخ القبائل الذين كانوا يكرهون الانضواء إلى عثمان دقنه والطاعة إلى دعاة المهدى وخليفته فمال إليه بعضهم فأمدّهم بالأسلحة والذخرة ودفعهم إلى قتال العدوّ فقاتلوه وأبلوا فى قتاله فترفع العدوّ إلى الجبال وانجلى عن ضواحى البلد ثم انحدر إليها بعد أيام وهكذا كانت فعالة كل قليل من الأيام، وورد على كتشنر باشا يومئذ كتاب التعايشى خليفة المهدى مفعما بالتهديد والوعيد إن لم يخفض كتشنر جناح الطاعة ويترك العناد وقد ذكر له شيئا كثيرا من مناقب المهدى وصحة مهدويته ثم دعا كتشنر إلى ترك النصرانية واعتناق المهدوية فإنها أصح المذاهب وأقربها إلى الله تعالى فإن لم يأت طائعا مخلصا فى العقيدة سير إليه جيشا عظيما فيستولى على سواكن وما والاها ويطرح حاميتها فى أليم حيث يكونون طاما لأسماكه وشاع خبر هذا الكتاب بين أهل البلد فخافوا خوفا عظيما وصاروا يتوقعون وصول جيش التعايشى كل قليل من الأيام وقد زادهم خوفا ما شاع فى ذلك الحين أيضا من تواطئ الرأس ألولا مقدم الجيوش الحبشية مع كبار

المهدويين على قتال الأجانب الطامعين فى بلادهم وقطع شأفتهم وأن النجاشى يوحنا ميــال إلى ذلك وكاد يتحــقق الخبر بخــروج مشايخ الحــباب والشاكــرية والهدندوى والشيخ أمين فقيرى شيخ قبيلة الارقـويت الذين استمالهم كتشنر إلى طاعة الحكومة وموالاتهــا وامتناعهم عن مناهضــة العدو رغما عــما بذله لهم كتــشنر من الأسلحة والأموال الطائلة والهــدايا الكثيرة وكان كــتشنر قد أرسل إلى الســير بارنج فى طلب الشيخ الميرغنى شيخ سجادة الطريقة الميرغنيــة التى يتبعها أهل السودان شرقا وجنوبا ليحــمل العصاة على الرجــوع إلى طاعة الحكومة فــجاء الشيخ إلى ســواكن وجعل يبعث البعوث ويرسل الدعاة ويحض القــوم على ترك الحرب والكف عن القتال فلم يفلح وقد رموه بالمروق عــن الدين القويم واتهموه بالنصرانيــة وبيع الآجلة بالعاجلة فلاهم لذلك يعرفونه ولا هم يعتقدون مشيخته فكبر الأمر على الشيخ وسار إلى بلد اجيج وأقام بها أياما لعله ينال من القوم مــأربا فلم ينل ولم تجسر بعوثه ودعاته على لقاء أحد من كبار المهــدويين فكانت أخبار تلك الأطراف كل يوم فى شأن إن سرت يوما أحزنت أياما.

وعاد الوزير نوبار باشا إلى الرأى القائل بأن إعادة العلائق التجارية مع السودان لابد أن يكون من ورائها تفــرق العصاة فى البلاد طلبــا للرزق وعدم اجتمــاعهم فى صعــيد واحد للتألب على قــتال الحكومة فكتب ثانيــة إلى زعيم سياســة الإنجليز فى ذلك ولبث ينتظر الجواب أيامــا حتى جاءه بالقبــول ففرح الناس بذلك فرحــا عظيما واستبشروا بحسن المآب وقالوا أوّل الغيث قطرة ثم ينهمل وقد كانوا لا يتوقعون بلوغ هذه الأمنية بعد امــتناع زعيم السياسة الإنجليــزية من المكالمة مع الوزير نوبار باشا فى شأنها حينا على ما تقدم بيانه فاهتم الوزير لذلك اهتماما عظيما ورسم بعمل دستور يكون قاعدة لإعــادة تلك العلائق فأجتمع الوزراء كــافة فى مجلسهم وقرروا ســبعة أمور، حاصل ما فيها منع الاتجار فى الأسلحة وسائر أنواع الآلات والأدوات الحربية وضبط ما يوجــد منها ومعاقبة المتــجرين فيها وجعل حلفــا وكروسكو وأسوان ودراو المراكز التى تخرج وتدخل البضائع منها وأخذ العهود على مشايخ العبابدة والكبابيش وغيــرهم من قبــائل العربان بذلك وبطاعــتهم لتــفتيــش سائر البضــائع التى ترد من الســودان أو التى ترسل إليــه أوّلا فى حلفا فى كــروسكو وفى أســوان وفى دراو ثم يعطى لأصحابها تسريح، فجعل التجار من ذلك الحين يتأهبون للعمل وسار جماعة منهم إلى حلفا وأسوان ونزلوا بهمــا فعمرت أسوان وكثرت فيــها الحوانيت والمخازن

والأشوان للبضائع وأصناف المتاجر وراجت التجارة فى القاهرة بعض الرواج وشاع خبر انحدار بعض القوافل من دنقلة بالصمغ والريش وسن الفيل وأشياء أخر من محاصيل أرض السود وشوهد كذلك عير لأهل كردفان بأصناف المتاجر وجاءت الأخبار بخلود العربان والدراويش المرابطين على الحدود إلى السكينة عندما وصلت إليهم الأخبار بعود العلائق التجارية بين مصر والسودان.

(مطلب)

طلب الإنجليز تخفيض عدد العساكر المصرية

ولم تكن أيام بعد ذلك حتى تقدم الجنرال جرانفل باشا سردار العساكر المصرية إلى الخديوى فى طلب تخفيض عدد العساكر المصرية وحل بعض ألويتها لعدم الحاجة إليها يومئذ وأن الجيوش الإنجليزية تحل محلها فى سائر مضاربها وكان زعيم السياسة الإنجليزية قد رأى فى إعادة العلائق التجارية مع السودان وفى بقاء العساكر المصرية على قدم الاستعداد فى عددها وعددها شيئا يخافه فى مستقبل الأيام فأوعز إلى السردار أن اطلب تخفيض عددهم فوافقه الخديوى على ذلك وكلم الوزير نوبار باشا فى الأمر فاهتم له الوزير وجمع إليه سائر الوزراء وعقد مجلسهم وجلس الخديوى بينهم فقال السردار مقالته وبالغ فى الطلب فرد عليه عبدالقادر باشا وهو يومئذ المتولى نظارة الداخلية وأخذ يشرح الأسباب الداعية إلى بقاء الجيوش المصرية على ما هى عليه من العدد والعدد وما تحتاجه البلاد فى هذه الظروف من حفظ كرامتها فى أعين الأعداء وإعظام قوتها الدفاعية رهبة لهم فعارضه فى ذلك السردار وبالغ فى الممانعة وكان الخديوى لا يشاء أن يبرم أمرا على غير الذى يرمى إليه زعيم السياسية الإنجليزية تسكينا للخواطر وتطمينا للقلوب، قيل فعضد السردار فى رأيه وعاب على عبدالقادر باشا قوله وسفهه فامتعض عبدالقادر باشا وبالغ فى التعبير وسفه رأى السردار ورفع صوته بحضرة الخديوى فقاطع عليه الوزير نوبار باشا وقال له: أنت بحضرة مولاك فاخفض من صوتك، قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكان الخديوى يعرف من الشوائن والتهم الموسوم بها عبدالقادر باشا شيئا كثيرا وكان إلى ذلك الحين يغض الطرف عنها منعا للقلاقل وتحاشيا من سوء العاقبة وكان جماعة الإنجليز يودون لو أن الخديوى يأذن بتحقيق تلك التهم وقد جمعوا من الدلائل على صحتها وعلى سوء تصرف عبدالقادر باشا مع بعض أصحاب الأطيان بحوش عيسى

والنوبارية بمديرية البحيرة واستعماله لسلطة وظيفته وتطاول يده إلى أموال الناس شيئا كثيرا فلما رأى منه هذه الجرأة والمكابرة ومعاندة السياسة الإنجليزية فى مجلسه كبر عليه الأمر وأعظمه لاسيما وقد رأى من جماعة الإنجليز فى ذلك اليوم تحفزا للوثبة وكشف ما خفى من عورات الهيئة الحاكمة فرسم حينئذ بتحقيق كل ما هو مسند فعله إلى عبدالقادر باشا وقيد بذلك جماعة من كبار الموظفين فأصبح عبدالقادر باشا وهو يتوقع العزل فى كل لحظة من الزمان وعلم خصومه بالخبر فوردت شكاياتهم تترى على ديوان الخديوى وتم لصاحب السياسة الإنجليزية ما أراده من تخفيض عدد العساكر المصرية فى أيام قلائل، حدثنى صاحب لى قال: كان مما أوجب بغض جماعة الإنجليز لعبد القادر باشا وأكبر سعيهم وراء خلعه من منصبه أنهم رأوا أنه فضلا عن استعماله لسلطة وظيفته فى أخذ حقوق بعض الناس وتطاول يده إلى أملاكهم على غير مسوغ شرعى وتطلعه إلى ما فى أيدى الغير فقد كان يكيد للإنجليز كيدا عظيما ويدس لهم الدسائس فى السر والجهر واتفق أن خلت قلعة الوجه الواقعة على التخوم بين الأراضى المصرية والأقطار الحجازية من المرابطين وباتت خاوية على عروشها منذ انحلال الجيوش المصرية بعد الثورة العرابية فهمّ مقدم الجيوش الإنجليزية بإرسال نفر من عسكره ليحتلوها ويرفعوا الراية الإنجليزية على ما يجاورها من البقاع فأحس الباب العالى بذلك فسير فى الحال جماعة من كبار العسكر الشاهانى وطائفة من الجند إلى تلك القلعة فاحتلوها وبسطوا يدهم على ما يجاورها من السهول والبقاع وجاء الخبر بذلك إلى عبدالقادر باشا بصفته ناظرا للداخلية فأهتم له كثيرا واستحسنه وبالغ فى استحسانه واجتمع بالمشير مختار باشا مندوب الباب العالى بمصر وتناجيا فى ذلك طويلا فلما علم زعيم السياسة الإنجليزية بما جرى وتحقق أن لا قبل له على إخراج العساكر السلطانية من تلك القلعة إلا إذا دفع برجال الحل والعقد فى الحكومة المصرية إلى معمعان المقارعة مع الباب العالى أوعز إلى السير بارنج بأن يكلم الوزير نوبار باشا فى ذلك ففعل وأكثر من الاجتماع بالوزراء فكان يرى من عبدالقادر باشا جفاء وغلظة فى القول فشكاه إلى الخديوى وكان الخديوى يكره فعال عبدالقادر باشا وينقم عليه كثيرا فرسم بتشكيل هيئة من بعض كبار موظفى الحكومة لتنظر فيما هو مسند إليه من سلب أموال بعض الناس والاستطالة على حقوق الضعفاء من الرعية فسارت تلك الهيئة فى عملها سيرا حثيثا وحققت من تلك الشوائن شيئا فلم تكن إلا أيام حتى ظهر خبر تنزيل عبد القادر باشا من منصبه

وعلمَ الناس بخبر مبارحته القاهرة على عجل فتحققوا أنه مكره لابطل فولى الخديوى مكانه مصطفى فهمى باشا وولى محمد زكى باشا مكان مصطفى باشا نظارة الخزينة ا. هـ.

(مطلب)

وكاد السلطان ينجح في استمالة الروس والفرنسيس إلى معاونته

وكاد السلطان فى هذه الفترة ينجح فى استمالة كبار سياسة الروس والفرنسيس إلى معاونته على طلب تخفيض عدد العساكر الإنجليزية المحتلة لمصر وهموا جميعا بطلب ذلك فلما أحس زعيم السياسة الإنجليزية بما هم عليه أوعز فى الحال إلى قائد جيوشهم بمصر بأن أظهر الأهبة والاستعداد لجلاء الكتائب فجعل يظهر الحركة بين الجنود وأخذت كتائبهم تغدو وتروح بين الإسكندرية والقاهرة وتحت قلعة الجبل وبولاق الدكرور بأثقالهم وأحمالهم وآلات حربهم ودوابهم وانجلى من كان منهم بقشلاق الحرس الخديوى برحبة عابدين فاحتله نفر من العساكر المصرية ولم تكن إلا أيام جتى كثر الأرجاف بأن جماعة من الدراويش انحدروا إلى حلفا بخيلهم يريدون الزحف على أسوان فالقاهرة وأن الفتنة ظهرت بين أهالى ذلك الصعيد وأن قد جاء الصائح بطلب المدد العاجل فأسرعوا فى إرسال طائفة كبيرة منهم إلى الحدود قالوا لمنع العدوّ وأنزلوهم بالمواقع والمعاقل التى قد كانوا أخلوها وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فسكت حينئذ أصحاب المابين وانكف السلطان عن استنهاض الدول ولبث كعادته يراقب الفرص فعلم الناس أنها خدعة وحيلة وظن السواد الأعظم بالوزير نوبار باشا السوء ورموه بالخيانة وعاد أصحاب الصحف الحازبة إلى صيحتهم الأولى وهى طلب تنزيل الوزير نوبار باشا من منصبه وإرجاع الوزير محمد شريف باشا إلى منصة الرئاسة وبدأت تظهر طلائع التحزب بين الناس وشوهد بعض الأوراق التحريضية ملصقة على جدران بعض محال الحكومة فتناقل خبرها مراسلو الصحف الأجنبية وأكبروها جدا فلم تكن إلا أيام بعد ذلك حتى مرض الوزير محمد شريف باشا واشتدت علته فجمعوا له الأطباء فأشاروا بسرعة مغادرته للقاهرة والترفع فى النيل إلى الصعيد الأعلى فاندهش الناس من هذا الحادث الغريب وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فمن قائل إنه مريض بذات الجنب ومن قائل إنه مريض باهة فى

الكبد ومن قائل بأنه قـد سم فى التبغ بيد أجنبية ومن قائل غـير ذلك وسار الوزير على ظهر باخرة من الركائب الخديوية إلى الصعيد الأعلى فلبث أياما ثم انحدروا به على غيـر جدوى إذ اشـتدت علتـه وكبر سقمه فـأشار الأطبـاء بقيامـه إلى الديار الأورباوية فسار فى نفـر من الاتباع إلى تريستا وأقام بها والناس كـافة يسألون الله له السلامـة والعودة إلى منصب الرئاسة فلم تكن إلا أيام حـتى جاء الخبر بموته فـحزن الناس جـميـعا وبكوه ورسم الخـديوى إلى الوزير نوبار باشـا بتعطيل سـائر دواوين الحكومة حدادا عليه وإلى كبير التشريفات الخديوية بالشخوص إلى تريستا على باخرة مخصوصة ليأتى بالجثة إلى مصر التى كـان يحبها وكانت تحبه وتحنّ إليه وجلسوا فى داره للعزاء أياما حتى وصلت جثته على ظهر سفينة قد استأجرها ولده قبل أن تصل إليه سفينة مصر فما ألقت السـفينة مرساها حتى هرع الناس من كل رتبة ودرجة إلى المسير أمـام نعشه فسـار أوّلا جمهور المشايـخ والعلماء ثم صفوف جند البـر والبحر ورجال الحرس الخديوى تتقـدمهم موسيقى باخرة المحروسة ثم وجـهاء البلد وأعيانها على اخـتلاف أجناسـهم ثم تلامذة المدارس ومـازالوا سائـرين بالنعش والناس على جـانبى الطريق يبكونه حـتى وصلوا به إلى مـحطة الباب الجـديد فـأنزلوه فى قطار مخصوص وسـار القطار إلى القاهرة فلما وصلها حمل النعش جماعـة من العساكر المصرية وسـاروا بالجنازة على شكل مـهيب وترتيب عـجيب أسكب عـبرات الناس وأبكاهم حتى واروه التراب، وكان شريف باشا رحمه الله معروفا بالإخلاص والترفع عن الدنايا مـشهـورا بالحزم والحكمـة والدراية وسعـة الباع فى المـعارف السـياسـية والعلاقات الدولية وغير ذلك من علوم العـصر ـ تلقى علومه فى مدارس الفرنسيس العليا وقـضى فى خدمة البـلاد وأهلها زمنا غيـر قليل فى الجندية على عهـد الحاج محمد على باشا الكبير ثم على عهد إبراهيم باشا وعباس باشا الأول وسعيد باشا ثم فى ولاية إسماعيل باشا وتقلد فى كل هذه الأزمنة وظائف خطيرة أدار مهامّها بالحزم والجد والغيرة مات وله من العمر ثمان وستون سنة وقيل سبعون وهو القائل إن تركنا السودان فلا تتركنا فذهب مثلا عند المصريين رحمه الله برحمته الواسعة .

وكان مما زاد الناس كرها للهيئة الحاكمة توالى الحوادث وظهور الكوارث واشتداد الإنجليز على أهل البلد وإذلالهم لأقل سبب وأصغر حادث فقد وقع فى هذه الأيام أن اثنين من كبار عسكر الإنجليز خرجا يوما للصيد فى أرباض أهرام الجيزة فاتفق أن أحدهمـا أطلق بارودته يريد صيداً فـأصابت نارها وجه صـبى لأحد الفلاحـين كان

يرعى جاموسته فانذعر الصبى وذهب مولولا مستصرخا أباه فلحق به الضارب وأخذ يلاطفه ويخفف عنه وأعطاه شيئا من الدراهم ولم ينصرف عنه حتى جاء أبوه وقبض على الإنجليزى وأوسعه سبا ولكما فصاح الإنجليزى على رفيقه فأتاه مسرعا وصوب بارودته نحو الرجل فاستصرخ الرجل أهل قريته وأكثر من النداء عليهم فأطلق أحد الإنجليزيين بارودته على الرجل فسقط ميتا وجاء أهل القرية مسرعين وقبضوا على الإنجليزيين وأخذوا ما كان معهما من سلاح وذخيرة وساقوهما إلى قرية وزجوهما فى دار هناك وحملوا القتيل إلى القرية بين الصياح والجلبة وعويل النساء ثم ساروا بالإنجليزيين إلى ديوان مديرية الجيزة وسلموهما إلى ولاة الأمر فلما اتصل خبر ما جرى بقنصل جنرال الإنجليز وقائد جيوشهم قاما وقعدا واشتد القنصل على الوزير نوبار باشا فى طلب معاقبة أهل تلك القرية جميعا لقبضهم على القاتل والجارح من الإنجليز ولم يكن إلا يوم أو بعض يوم حتى سار إلى تلك القرية طائفة من فرسان الإنجليز وأحاطوا بها من كل صوب ودرب وأخرجوا جميع من بها من الرجال وساقوهم كالأنعام إلى خيمة قد ضربوها على مقربة من الأهرام وبها جماعة من الإنجليز فأخذوا يستنطقونهم ويسألونهم ثم عاقوهم أياما ثم حكموا عليهم جميعا بالجلد بالسياط فضربوهم ضربا مبرحا وسجنوا بعضهم وقد جمعوا ما فى القرية من سلاح وهراوى وانصرفوا وقد راح دم ذلك المقتول هدرا تم هذا كله والهيئة الحاكمة لا تبدى حراكا ولا تظهر عراكا سوى أنها وافقت على زج أهل تلك القرية فى الحبوس حتى تحكم عليهم المحاكم بالعقوبات التى يقتضيها القانون فكان من وراء ذلك أن ظهرت عصابة من شبان أهل القاهرة ومصر القديمة المتخرجين من بعض المدارس وسموا أنفسهم باسم «الوطنيين الأحرار» فالتف حولهم جماعة من المحازبين لمصطفى رياض باشا وجلعوا يجتمعون فى بيت أحدهم فى السر والعلن ويتكلمون فيما وصلت إليه الحكومة من الضعف وزوال الهيبة وفى استسلام الوزير نوبار باشا وجماعة الوزراء إلى السير بارنج وشوهدت بعض الأوراق المفعمة بالتقريع والتنديد على جماعة الوزراء ملقاة فى بعض دور الحكومة ودواوينها وجاء مصطفى رياض باشا من مزرعته فى طود البحيرة وأقام بالقاهرة فتزاحم على بابه أهل الدعارة والمملقون ومن فى قلبه مرض وتحققوا أن الوزير نوبار باشا معزول لا محالة وظهرت يومئذ الحركة فى ديوان الخديوى وترددت رسله على بيت مصطفى رياض باشا لغير سبب ظاهر سوى الإرجاف بعزم الوزير نوبار باشا على التخلى عن منصب الرياسة

وماهـو شائع بين الناس من أن كـبار الإنجليـز أرسلوا إلى الأقاليم القـبلية نفـرا من اليونان والمـالطيين جواسـيس يسعـون فى استطلاع أفكار أهل البـلاد بشأن احـتلال الإنجليز لمصـر وغير ذلك من التـرهات التى ما أنزل الله بهـا من سلطان، وكان من دهاء السير بارنج وقوة شكيمتـه أنه كلما آنس من أولئك الزعانف خلودا إلى الحركة أو سمع لهم صوتا فى مـجتمعاتهم أو رأى لهم مقالا فـى إحدى الصحف المحازبة عمد إلى المساهلة مع الوزير نوبار باشا وخفف من طلباته وهوّن عليه كل صعب من الأمور كأن يقول خـففوا عنكم فوالله ما استعملنا صـاحبكم « يعنى مصطفى رياض باشا» إلا بعد أن نكون قـد دبرنا له المكايد والإحن وقلبنا لكم ظهر المجن ونلنا على يديه ما لا تستطيعون عليه صبرا، حدثنى صاحب لى قال: كان بعض هؤلاء الصبية يراسلون بعض مديرى الأقاليم وأصحاب بعض الـوظائف الديوانية بكتب الاستمالة والانعطاف إلى مصطفى رياض باشا وهو لا يأنف من ذلك ولا يراه معيبا بل كان إذا زاره أحد من أعيـان البلاد أو مدبرى الجهـات زلفى أنّ واشتكى وعاب على الهـيئة الحاكمـة ضعفها وتأفف مما وقـعت فيه البلاد من الدمار وكـان كثير الوقيـعة برجال القضـاء يقول إنهم أحداث أغرار لا خـبرة لهم بالأمور ولا دربة حـتى خيل للناس يومئذ أنه إن عاد إلى منصة الرئاسة أراح جميع الخلق وسلك فى سائر أموره مسالك الحق ـ قال: وأخذت الحمية من أولئك الصبيـة مأخذها فنجحت سعايتهم وتحرجت صدور الناس من الوزير نوبار باشا أو كادت فتجرد حينئذ السير بارنج إلى النهج فى منهاج جديد والقـبض على زمام سائر الأمور بيد من حديد ـ قـال: وكأنه كان على اتفاق مع الوزير نوبار باشـا بأنه إذا شاء إنفاذ أمـر من الأمور التى تقتـضيهـا سيطرة الاحتلال الإنجلـيزى وحفظ هيبتـه فى أعين أهل البلاد من مثـل إحداث الإحداثات المخالفة لعـاداتهم أو إبداع البدع الداعية إلى سقـوط نفوذ الحكام المصريين أو ترتيب النظامات الجديدة الحـاملة على إقصاء أصحـاب الوظائف من أبناء البلاد عن أبواب الارتزاق جعل إنفاذ ذلك كله على يدى من كـان معتمد أولئك القوم عـليه وأرغمه على العمل به ـ قـال: فقد مـضى على رئاسة الوزير نوبار باشـا فى هذه المرة حين وكلمة السير بارنج معه فى شئون البلاد لم تتـجاوز حد النصيحة والإرشاد ولم تتعد عبارات التـشجيع والاستنهـاض ماعدا ما يتـعلق منها بالسودان شرقـا وجنوبا وكان الوزير إذا رأى منه يومـا إكراها على عمـل شىء أراده صرفه عنه بالتـى هى أحسن واستـماله إلى التأنى وترك الـعجلة فينثنى عنه راضـيا ولذلك قـد تأخر إبرام الشىء

الكثير من مقاصد زعيم سياسة الإنجليز فى الأمور الداخلية وظلت كلمة المديرين والمحافظين وأصحاب الوظائف الأخرى مسموعة وأيديهم مطلقة وسلطتهم مرعية وكان الذين تولوا الوظائف العالية من جماعة الإنجليز إلى هذا الحين يعدّون على الأصابع وقد تمكن الوزير نوبار باشا بحزمه وقوة شكيمته من فك قيود الحكومة من العقود التى كانت مرتبطة بها مع الأجانب النزلاء الذين فى خدمتها ونادى على رؤوس الأشهاد بالكف عنها وعدم العود إليها فهيج هذا العمل أصحاب بعض الصحف الأجنبية فقاموا يستصرخون قناصلهم وظهر التحزب والتألب بين أصحاب الوظائف من كل جنس وطبقة ولبث الحال على ذلك أياما كثر فيها أنصار مصطفى رياض باشا وتقوت عزيمتهم بما كانوا يسمعونه من ضوضاء أصحاب الصحف الأجنبية وتكهنهم بقرب سقوط الوزير نوبار باشا من أعالى منصة الرئاسة، وكأن مصطفى رياض باشا قد استبشر بما سيكون من وراء هذه الحركة فجعل يكثر من التردد على مقر الخديوى ويظهر التودد والعطف إلى رجال ديوانه الخاص ويوالى المآدب إلى كباره ويدنى من مجلسه أصحاب صحف الأخبار ويوحى إليهم بالذى يعمله إذا أفضت إليه الرئاسة.

وأشاع المرجفون فى هذا الحين أن الوزير نوبار باشا أكره الشيخ المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى الحنفية وجماعة من كبار العلماء وأصحاب المقامات العالية على عمل محضر يطلبون فيه ضم مصر وسائر ملحقاتها إلى أملاك السلطنة الإنجليزية واستخلاصها من سيطرة الدولة العثمانية التى أثقلتها كل هذه السنين والأعوام وتكلم فى ذلك أصحاب صحف الأخبار على اختلافها فصدق ذلك السواد الأعظم من الناس وأرجفوا إرجافا عظيما والأمر على غير ما كانوا يسمعون وذلك أن الشيخ المهدى مالت نفسه فى ذلك الحين إلى الاستبداد بتقليد وظائف القضاء الشرعى إلى صنائعه والأغرار الملتفين حول ولده الشيخ عبدالخالق وقد كان إعطاء هذه الوظائف لذويها من أهل العلم والفضل موكولا إلى لجنة يرأسها بطرس باشا غالى وكيل الحقانية يومئذ والشيخ عضو من أعضائها فمانعه بطرس باشا فى ذلك واشتد فى ممانعته بحكم اللوائح المعمول بها عندهم فامتعض الشيخ وأخذته هزة الأحزاب فاستمال إلى رأيه جماعة من العلماء وأعضاء شورى البلاد فكان لا حديث لهم فى سمرهم إلا خبر وقوف بطرس باشا فى وجه الشيخ والحيلولة بينه وبين هواه واتفق أن رجلا من أهل الجزائر التابعين لدولة الفرنسيس امتلك دارا بأحد شوارع القاهرة

وآخر يمتلك دارا أمام دار ذلك الجزائرلى قد تداعت إلى السقـوط فأخذ صاحبها فى لم شعثها وترميم ما تهدم من جدرانها وتنسيق شبابيكها على الطراز الجديد فقام عليه ذلك الجـزائزلى ومنعـه من العـمل وقـال له إن منافـذ دارك تكشف عـورات دارى فعـارضه صـاحب الدار المتـداعيـة وقال إن بين الدارين طريقـا ولا سبـيل قط إلى المعارضـة وطال بين الاثنين الخصـام أياما لم ينكف فيـها صاحـب الدار عن العمل فشكاه الجـزائرلى إلى قاضى قضاة مـصر فحكم له القـاضى بسد منافذ دار خصـمه فهال صاحبها حكم القاضى وأزعـجه أىّ إزعاج فرفع ظلامته إلى المحكمة المختلطة لتابعية خصمه لدولة الفرنسيس فأنصفته وحكمت ببقاء منافذ داره كما هى وحكمت على خصمه بشىء من المال تعويضا عما لحق صاحب الدار من الخسارة بسبب الحكم الشرعى فلما شاع خبر ذلك بين الأحزاب هاجـوا وماجوا وأكبر الشيخ المهدى الأمر وأعظمه جدا وقال إنما هو عمل من أعمال بطـرس باشا غالى التى يقصد بها إلصاق الخزى بأصحاب الشريعـة الحنيفية ونصرة أصحاب شريعـة الفرنجة وسعى الشيخ مع جماعة من أعضاء مجلس شورى البلاد والأعيان عند الخديوى ووشوا فى حق الباشا ومازالوا بالخديوى حتى كادوا يستهـوونه ويغرّرون به فعلم بطرس باشا بما فعله القوم فدخل على الخديوى وأعلمه بحكاية الجزائرلى وما جرى لصاحب الدار المتداعية وما حكم به قاضى قضاة مصر وحكم المحكمة المختلطة فكبرت عليه فعال الشيخ المهدى وأعظم مـقارعـة المحازبين له من الأعـيان وشـورى البلاد وأرسل فى طلب الشـيخ وكلمه فى ذلك طويـلا ورسم إلى بطرس باشا بعمل مـا فيه المصلحـة تسكينا لتلك القلاقل فأشـار على الشيخ بتكذيب كل قال وقيل فى هذا الصـدد فلم ير مناصا من الإذعان وكتب من يومه إلى الجريدة الرسمية وصحف الأخبار المحلية يعلمهم بأنه لم يحصل شىء مما ذاع خبره ألبتة وأن جماعة العلماء براء من كل تهمة أو فرية يفتريها عليـهم المفتـرون وأن لا أصل لما أرجف به المرجـفون العـاملون على إيقـاظ الفتـة فاختلف الناس يومئذ حتى كادوا يفتتنون وداخل الخديوى ما داخله من بغض الشيخ المهدى حـتى رسم بخلعه من منصبى الإفـتاء ومشيخة الجـامع الأزهر فخلع وولى مكانه فى مشـيخة الجامـع شمس الدين الشيخ محـمد الأنبابى وفى منصب الإفـتاء الشيخ مـحمـد البناء الاسكندرى واتفق فى هذه الأثناء أن مرض الوزيـر نوبار باشا واحتجب عن الناس أياما فعاد الإرجاف بخلعه وتنزيله عن منصب الرئاسة .

(مطلب)

وقوع القتال بسواكن مع عثمان دقنه

وبينما كانت الأحزاب فى قيل وقال وأمانى وآمال إذ وردت الأخبار من سواكن بوقوع القتال بين أصحاب عثمان دقنه والقبائل المصافية للحكومة والمرابطين من العسكر المصرى وبأن العدوّ أبلى فى قتال المرابطين بلاء حسنا، وتحرير الخبر أنه لما كثرت مناوشات العدوّ للقبائل المصافية وكثر تعديهم على ضواحى البلد رسم كتشنر باشا العامل يومئذ على سواكن إلى نفر من الجند والمولدين المرتزقة والى أولئك المصافين بقتال العدوّ وإجلائه عن ضواحى البلد فخرجت طائفة من قبيلة الرمادر وجماعة من الباشيبوزق والمرتزقة مع طائفة أخرى من السود الذين نجوا من حامية كسله وغيرها فى منتصف الليل يتقدمهم كتشنر وبعض كبار العسكر من الإنجليز وبعض الفرسان والهجانة المصريين وساروا بجوار الخط الموصل إلى هندوب وما زالوا فى طريقهم حتى إذا كان ما بعد زوال اليوم الثانى وصاروا على مقربة من هندوب بانت لهم طلائع العدوّ فهجم عليهم جماعة الباشيبوزق والعبيد وهزموهم أو كادوا فلم تكن إلا لحظة حتى أحدق العدوّ بكتشنر وجنوده من كل صوب ودرب فثبتت الجنود فى مواقفها واشتدت فى رمى القنابل ورصاص البنادق على العدو وأصلته نارا حامية فقابلهم العدوّ بالمثل وهجمت طائفة من فرسانه على ميمنة الجنود هجمة شديدة كادوا يسحقون فيها الميمنة سحقا وأصابت كتشنر رصاصة فى فكه الأيمن وأصابته كذلك جراحة عظيمة فتفرقت عساكره شذر مذر وتعذر جمعهم للقتال أو الدفاع وكثرت القتلى والجرحى واقتفى العدوّ أثر من بقى من العساكر يصليهم نارا حامية حتى دخلوا البلد وهم فى أسوأ حال واشتدت علة كتشنر وعظمت جراحته فانحدر من سواكن إلى السويس وجاء القاهرة فاهتم السير بارنج لحضوره وزاره الكبراء والعظماء وجعل أصحاب صحف الأخبار ينقلون للناس أخبار صحته وما يطرأ عليه فى كل ساعة من ليلة ونهاره كعظماء الملوك أو أقيال القوم إذا مسهم مرض ومازالوا حتى برأ وعوفى وزال عنه البأس.

وكما كانت أحوال سواكن إلى هذا الحين فى قلق واضطراب بسبب هجمات العدوّ المتتابعة فقد كانت أحوال مصر أكثر قلقا وأكبر اضطرابا لتفشى الأمراض الخبيثة بين الجنود الإيطالية وفعلها فيهم وفى خيلهم ودواب حملهم ووقوف الحبشان

لهم بالمرصاد وتخطفهم كل من بعد ولو قليلا عن البلد حتى سئمت نفوس العساكر وخارت عزائمهم من السهر ليلا على حراسة البلد والطواف حولها نهارا دفعا لذلك العدوّ الرابض كالأسد وكان قائد الجنود الإيطالية يتقرب زلفى من القاضى إبراهيم شيخ قبيلة الأسورتيين ويستميله بالرشا والبراطيل إلى معاونة الإيطاليان وحماية أجنحة الجيش بنفر من قومه فكان هذا الشيخ كثير التقلب إذا قرب يوما ابتعد أياما وإذا أظهر الرضا والحركة يوما فبالشىء الكثير من المال حتى أعيت الحيلة زعيم السياسة الإيطالية وهمّ بإجلاء العساكر عن مواقعهم والتخلى عما بأيديهم إلى ذلك العدوّ الذى أشبعهم ضربًا وطعنا قد طأطأت لشدتهما الرؤوس وكان قائد الجيوش الحبشية يرسل فى كل قليل رسله إلى الحماسيين يستحثهم على اليقظة وعدم ترك السلاح ويستنهضهم إلى إجلاء العدوّ عن أرضهم فكان دعاته يجوبون البلاد شرقا وغربا وأهل البلاد فى حركة متتابعة ونهضة عظيمة وقد زاد الحال شدة على الجنود الإيطالية اشتداد القيظ وكثرة الموات من تفشى الحميات الخبيثة بينهم، وإلى هذا الحين كان قد تم الاتفاق بين صاحب سياسة الإنجليز والدول الكبرى على عزلة بوغاز السويس وجواز سير سائر السفن فيه وكيفية الحكم فى الخلاف الذى يقع بين الدول فى ذلك وفى حق سيادة الباب العالى وملكيته لسائر الأراضى التى يشقها الخليج من أدناها إلى أقصاها فلما اشتدت الأمراض بالعساكر الإيطالية المرابطين بمصوع وفتكت بهم ذلك الفتك الشديد كلم زعيم سياستهم وزير السياسة الإنجليزية فى أن يأذن لهم بالنزول فى قطعة أرض بمدينة السويس وجعلها مصيفا لهم إبان القيظ فرارا من هذا العدوّ الذى قد ضم عداءه إلى عداء الحبشان فكادوا لا يبقون على أحد منهم فأجابه وزير سياسة الإنجليز إلى ما طلب فهب حينئذ أصحاب صحف الفرنسيس من رقادهم وتبعهم أصحاب الصحف المحلية واستصرخوا الدول كافة وحذروهم سوء عاقبة هذا الأمر وأكثروا من الجلبة والضوضاء ولم يشغلهم عن هذه الصيحة إلا ورود الخبر بهجوم عثمان دقنه ولمومه على حصون سواكن مرة ثانية فإنه لما تم له الظفر بالقبائل المصافية للحكومة وقهرهم طمع فى مقاتلة المصريين فكان لا ينكف عن شن الغارة على ضواحى البلد ولا يقف عند حدّ من تخطف القادمين إليها أو الخارجين منها ورمى حصونها بالقنابل رميا متتابعا ليل نهار حتى فرغ صبر المرابطين وأعياهم الدفاع من خلف الأسوار فتقدمت عند ذلك سفينتان من سفن الحرب الإنجليزية وجعلت ترمى قنابل مدافعها على العدوّ كلما اقترب من البلد وظلت على

هذه الحال أياما فلما كان بعض الأيام رأى الكولونيل تاب مقدم عساكر المصرية أن العدوّ قد احتل عند مطلع الفجر مرتفعات القلعة المسماة بقلعة هدسون وهى لا تبعد عن سور البلد إلا بقدر فرسخ وأن قد جاءه المدد من المشاة والركبان من هندوب فخاف تاب العاقبة ونادى فى العسكر بالخروج من وراء الحصون فخرجوا جميعا بمدافعهم وآلات حربهم وخرج كذلك طائفة من الجنود الإنجليزية ومعهم بعض مدافع السفن وساروا جميعا لإجلاء العدوّ عن تلك القلعة فاشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس والتقت السنابك بالسنابك فلم تكن إلا ساعة أوبعض ساعة حتي تقهقرت العساكر ورجعوا إلى الوراء على أعقابهم فتبعهم العدوّ وأصلاهم بناره ثم انقض عليهم من كل صوب فقتل الكولونيل تاب وقتل وجرح كثير ممن معه ومازالت نيران العدوّ تتساقط تساقط المطر حتى غابت شمس ذلك اليوم وتمكن من بقى من العساكر من دخول البلد فرجع أصحاب دقنه بما ظفروا به من الغنائم والأسلاب وشاع الخبر بما جرى ووردت تفاصيل الواقعة إلى الخديوى والوزير نوبار باشا فانزعجا وكان كتشنر باشا قد عوفى فكر راجعا إلى سواكن قيل وأوصاه الخديوى بعدم خروج العساكر من وراء الحصون كى لا يحركوا ساكنا من العدوّ وجاءت كتب زعيم سياسة الإنجليز بالتخلى عن سواكن أيضا وتركها إلى العدوّ فكبر أمر ذلك على الخديوى وأقلقه جداً ووردت أيضا كتب كتشنر إلى الوزير نوبار باشا بأن جماعة من المهاجرين الذين قدموا إلى سواكن أخبروا بأن عثمان دقنه أرسل إلى الخليفة عبدالله التعايشى فى طلب النجدة على قتال المرابطين في سواكن فإذا جاءته النجدة هاجم البلد بخيله ورجله ولم يتخل عنها حتى يفتحها عنوة ويقتل جميع من بها بحد السيف وكبر خوف كتشنر يومئذ واهتم كثيرا باستطلاع أخبار العدوّ ومراقبة حركاته ورسم إلى جميع العساكر بملازمة الحصون والسهر على حراستها وأرسل دعاته إلى مشايخ قبيلة الرمادر يستفزهم إلى الوقوف فى طريق عثمان دقنه ومنعه من التقدم إلى البلد قيل فأجابوه إلى ذلك وسيروا رسلهم إلى دقنه يقولون له لا تبارح هندوب وإلا قاتلناك أشد القتال ومزقنا جموعك فلم يلتفت دقنه إلى قولهم ولم يهمه أمرهم وقال للرسل: السيف يحكم بيننا فارحلوا عنا فعادوا كما ذهبوا، واتفق أن جماعة من عساكر السفن الإنكليزية الراسية أمام البلد نزلوا إلى البر لحاجة وابتعدوا عن البلد قليلا فخرج عليهم نفر من أصحاب دقنه وأعملوا فيهم الطعن بالحراب والضرب بالسيوف فرأى المرابطون بالقلعة ما حل بالإنجليز فأطلقوا على

العدو مدافعهم فلم تكن إلا ساعة أوبعض ساعة حتى اجتمع العصاة واحتشدوا ألوفا وهاجموا القلعة هجوم الأسود الضوارى حتى كادوا يأخذونها عنوة لولا اشتداد نيرانها عليهم وتراسل قنابل مدافعها ولم يرجعوا عنها إلا بعد قتال عنيف للغاية، وخاف من فى البلد فكادوا يتركونها وينزلون إلى السفن ولم تطمئن قلوبهم إلا بعد رجوع العدوّ عن القلعة وكف المرابطين عن إطلاق المدافع وأصبحوا وقد رأى كتشنر أنه لا يمكن الذب عن البلد وردّ العدوّ عنها إلا إذا أنشئوا قلعة أخرى فأنشئوها وأتموها على أحسن ما يكون وسلحوها بالمدافع الكبيرة وعبوها بالأسلحة وآلات الحرب والمؤن الكثيرة وأقام بها المرابطون فكانوا يدفعون العدوّ عن البلد كل قليل من الأيام وهو لا يتكف عنهم فلما أعياه الحال وعجز عن مناجزة من فى هذه القلعة عاد على أعقابه إلى هندوب فكبر أمر رجوعهم على عثمان دقنه وأعظمه وأرسل الكتب إلى الخليفة عبدالله التعايشى فى طلب المدد ويبشره بقرب الفتح والخليفة يمنيه ويرد عليه الرد الجميل ولم يمده بشىء.

وصـــل

(فى ارتياب وانقلاب)

قد كانت الرئاسة على طول أيامها لم تصف إلى الوزير نوبار باشا من أكدار الوشاية وأوضار السعاية إذ كان له مع الخديوى من أمرها فى كل يوم شأن ومع السير بارنج فى كل لحظة أخذ ورد بشأن أعمال بعض المأمورين وأصحاب الوظائف وفى نظام بعض الدواوين وفى غير ذلك مما يتعلق بشئون البلاد الداخلية وقد كبرت فى هذه الأيام شدته وعظم إلحاحه فى طلب تنفيذ الكثير من الإحداثات المخالفة للمألوف عند أهل البلاد وإبداع البدع التى لا يقوى الوزير على عملها خوفا من صيحة الأحزاب وتألبهم عليه فكان إذا دافعه وحاجه وكادت حجته تغلب حجته تأفف وقلب للوزير ظهر المجن حتى يكاد يخلط عليه الحال ويفسد عليه كل عمل وتدبير وإذا سايره وعمل بعض الذى يريده كارها قامت صيحة الأحزاب وأخذت الوزير من كل جانب واشتدت جلبة أعدائه وأكثروا من الاجتماع تارة فى بيت مصطفى رياض باشا وأخرى فى مقر الغازى مختار باشا فإذا علت أصواتهم وسمع الناس صيحاتهم ورأوا كثرة اجتماعهم أقبل السير بارنج على الخديوى وتبرأ من تبعة كل عمل وشجعه على الأخذ بأطراف الحزامة وحبب إليه الاستبداد بشئون مملكته

فداخل الخـديوى من هذا الحين ما داخلـه وصار لا يأذن بانعقـاد مجلس الوزراء إلا تحت رئاسته ولا يبرم فى شئون البلاد أمر إلا برأيه ولا يعمل عمل إلا بمشورته حتى كاد يستبد بالأمر ولا يترك لأحد من رجال دولته عملا وتعذر على الوزير حينئذ أن يوفى الرئاسة حقها أو أن يأتى عملا إلا ويكون من ورائه اللدد والكمد فكثر توجعه وعظمت شكواه إلى بعض قـناصل الدول وضعـفت عزيمـتـه عن العمل وضـاعت تدابيـره فخاب منه الـرجاء والأمل وظهرت عـلامات الوحـشة بينه وبيـن الخديوى وكادت تستـفحل فأرسل الوزير تكران باشا وكـيل نظارة الخارجية يومـئذ إلى زعيم سياسة الإنجليز يشكو إليه علة الوزير وما يلاقـيه من أفاعيل السير بارنج وما نجم عن ذلك من الاضطرابات الداخلية التى لابد وأن تودى بنظام الحـكومة وترجع بالأحوال إلى أسوأ مما كانت عليـه ولبث تكران باشا فى عاصمة الإنجليز أيامـا ثم قفل راجعا إلى القاهرة وشاع الخـبر بعد رجوعه بوصـول كتب صاحب السيـاسة الإنجليزية إلى السير بارنج بالإقلاع عن كل عداء وعدم مساس كرامة الوزير بشىء ولا مراجعته فى شىء من أعمال منصـبه فلم يكن هذا الخبر ليرضى الأحـزاب ولا ليوقف الأرجاف عند حد بل زاد النفور وربك الأمور ومال بالخـديوى إلى التفرد بالعمل والبحث فى الصغـيرة والكبيرة من أمـور الحكومة وقد أحس مـصطفى رياض باشا بما وراء ذلك فعاد يومئذ إلى عمل المآدب للكبراء والأمراء وأصحاب الوظائف وبالغ فى التودد إلى الناس والإقلاع عن التحجب فكثر تردد المديرين وأعيـان البلاد على بيته تزلفا فلما كان شهر رمـضان من السنة أى سنة خمس وثلثمائة وألف هجرية جـاء من مزرعته بمحلة روح إلى القاهرة وأكثر من عمل تلك المآدب فـقويت حينئذ ظهور المحازبين له وظهرت جلبتهم وكـثرت اجتماعاتهم وفى تاسع عشـرى الشهر أرسل الخديوى إلى الوزير نوبار باشا كتابا يقول فيه:

إنه بناء على ما وقع فى جلسة المجلس بالأمس وماهـو إلا تكرار ما حدث أكثر من مرة من التـباين فى الآراء مما رأيت معـه استحـالة بقائك فى منصبك فلهـذا قد أقلتك منه وعـهدت رئاستـه وتشكيل هيئـة جديدة إلى صاحب الـدولة رياض باشا أ. هـ.

ثم أرسل إلى مصطفى رياض باشا يستقـدمه إلى الإسكندرية وقد كان الخديوى يومئذ هناك فجـاءها فى ظهر الثلاثين من رمضان واجتمـع بالخديوى ولبث بحضرته سـاعة ثـم نزل وطاف يزور بيـوت الكبراء والأمـراء وقناصل الدول وغـيـرهم من

الأجانب أصحاب الحيثيات فزاره الجم الغفير منهم وازدحم على بابه الشعراء والمهنئون وأصبحوا وقد خرج الناس من الأمراء والكبراء وأصحاب الوظائف لتأدية واجبات التهنئة بالعيد وصعدوا إلى مقر الخديوى برأس التين فهنئوه، وسمعت بعضهم يقول للخديوى ونحن بقاعة التشريف ساعة التبريك عيد مزدوج يا أفندينا يريد بذلك عيد الفطر وعيد خلع الوزير نوبار باشا وكان ممن سمع معى هذا القول جماعة ممن لا يفضلون فريقا على الآخر فنظر الىّ أحدهم بعد أن خرجنا من حضرة الأمير وقال أو تظن أن الخديوى أقال الوزير نوبار باشا للأسباب التى تضمنها مرسومه؟ قلت لا أظن غير ذلك ـ فقال: اعلم أنه لما كبرت الوحشة بين الوزير نوبار باشا والسير بارنج وعظم الخلاف وضاعت تدابير السير بارنج أدراج الرياح فلم ينل من الوزير مأربا عمد إلى المواربة فكان إذا اجتمع بالخديوى ورأى منه انقباضا خفف عنه وقال: يا مولاى إن البلاد إسلامية وقد بلغت فيها المعارف الحديثة مبلغها فليس من حسن السياسة أن يكون وزيرها نصرانيا ولا من الحزامة أن تترك البلاد هدفا لغايات الأحزاب الذين قد ظهر صوتهم وارتفع نداؤهم، وكان إذا طرأ شىء من الخلاف بين الخديوى والوزير على أمر من الأمور دخل على الخديوى وأظهر التأفف وبالغ فى الإشفاق ـ كل ذلك ليتمكن من خلع الوزير من منصب الرئاسة لكرامة الوزير عند صاحب سياسة الإنجليز وتقديره له حق قدره ـ قال: ومازل بالخديوى وهو يهوّن عليه خلع الوزير حتى ظن الخديوى أن السلامة فيما يشير به السير بارنج وأن الخلاص هين وميسور فلما آنس منه ذلك أشار عليه بتولية الرئاسة للوزير مصطفى رياض باشا وهو يرمى بذلك إلى غايتين أولاهما التنكيل بالوزير نوبار باشا وثانيتهما بلوغ ما يتمناه لدولته من المآرب على يدى مصطفى رياض باشا لشهرته بالوطنية وإعجاب السواد الأعظم بكياسته وحسن تدبيره حتى إذا ارتفعت أصوات الأحزاب يومئذ وعلت ضوضاء أصحاب صحف الأخبار وقالوا فعل الإنجليز بالبلاد كذا وتركوا كذا وكذا أجابهم السير بارنج خففوا عنكم فما هى إلا فعال زعيمكم ومقدام وطنكم فلا لوم على الإنجليز ولا تثريب فتأمل - فقلت ياهداك الله هذه ظنون وأوهام ولله وحده علم ما فى مستقبل الأيام فقال نعم ولكن الأمر ظاهر للعيان والنتيجة لا يختلف قط فيها اثنان واعلم أن الخديوى ما برح ذاكرا للوزير نوبار باشا حسن طاعته وولاءه لذاته وعرشه وهو يعلم أنه أسلم الوزراء نية وأنقاهم طوية وأحب الناس إلى البيت العلوى وأحفظهم لنعمته ولكن وقع القضاء فلا خلاص ولا مناص ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم تم تشكيل هيئة الوزراء فكان الوزير مصطفى رياض باشا للرئاسة ولنظارتى الداخلية والمالية ومصطفى فهمى باشا للحربية والبحرية وذو الفقار باشا للخارجية ومحمد زكى باشا للأشغال العمومية وحسنين فخرى باشا للحقانية وعلى مبارك باشا للمعارف العمومية، وجعل الوزير مصطفى رياض باشا يغدو ويروح على مقر الخديوى إلى يوم الثلاثاء ثم عاد مع الوزراء إلى القاهرة وطير الخبر بتوليته إلى الآفاق وكتب إلى سائر المديرين والمحافظين بالقيام بواجب وظائفهم وحذرهم من عاقبة التراخى والإهمال ثم لم تمض إلا أيام حتى استقدمهم إلى القاهرة وأشبعهم تأنيبا وتقريعا ثم حضا على الاستقامة والأخذ بأطراف الحزامة والسهر على راحة العباد وتأمين الطرق والمسالك فى أنحاء البلاد وقد شاع يومئذ أنه على عزم خلع سائر وكلاء النظارات كنظارة الخارجية ونظارة الحقانية ونظارة المعارف فقام لذلك بعض أصحاب الصحف الأجنبية والصحف المحلية وقعدوا وأخذوا يرمون بعض أولئك الوكلاء بشىء من التهم ويوجهون إلى بعضهم اللائمة فكان ممن أكثر الكلام فى ذلك صاحب جريدة الغازيت الإنجليزية وهى لسان الإنجليز بمصر فإنه شط فى المقال وأغلظ فى التعبير وكان إذا أمسك عن الكلام يوما أتته كتب الخصوم فى ذلك تترى فيرجع إلى المهاترة وهذر القول حتى ظن الناس أن مناصب القوم باتت على شفا جرف الزوال وأن قول صاحب الغازيت فى ذلك موحى به إليه من المراكز العالية ولكنه لم يمض على هذه الجلبة إلا أيام حتى نهض أصحاب صحف الإنجليز الكبرى يعيبون على صاحب سياستهم ما وقع من خلع الوزير نوبار باشا ويظهرون الميل والعطف إليه وإلى مباديه وأمياله الشريفة ثم جعلوا يعرّضون بدسائس الغازى أحمد مختار باشا مبعوث الباب العالى ويقولون إنه هو علة هذا الانقلاب وداعية ذلك المصاب بإيقاظه الفتنة الراقدة وتشجيعه السير بارنج على ما زين للخديوى عمله وأخذوا من هذا الحين يقلبون للغازى مختار باشا ظهر المجن ويتوعدون الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراه بسوء العقبى والمصير إن لم يقلعوا عن هذا المنهاج المعيب ويعتدلوا فى سيرهم وتطرق بعضهم إلى القول بأن الرئيس إنما يريد من هذه الضوضاء تولية ولده منصب وكالة الحقانية وزج سائر ذوى قرباه فى مصاف أصحاب الوظائف العالية وقالت بعضهم غير ذلك، وأخذ الرئيس يتصرف فى الأمور فمد يده إلى أعمال سائر الدواوين وبسط عليها نفوذه فتعذر على كبارها توفية وظائفهم حقها واستعصى عليهم رده عن هواه أو مخالفة كلمته فاختلط يومئذ الحابل

بالنابل وفشلوا أى فشل وهو لا ينكف عن ترديد نداء الوعد والوعيد إلى المديرين والمحافظين وسائر أرباب الوظائف بالالتفات إلى تأمين الطرق وقطع شأفة اللصوصية وأصحاب السطوات إذ كثر عبثهم فى هذه الأيام واشتدوا على القرى والبلاد بين قتل ونهب وإفساد فكان كلما اشتد الرئيس على أصحاب الوظائف بسبب ذلك ازداد اللصوص قحة وجرأة على الإفساد وإراقة الدماء وفتكوا بالناس فتكا ذريعا فى مشرق البلاد ومغربها حتى فى القاهرة ومصر القديمة إذ سطوا على بيت حسين فخرى باشا ناظر الحقانية وأخذوا منه شيئا من الحلى والأعلاق النفيسة وكذلك فعلوا ببيت نوبار باشا بعد رحيله إلى الديار الأوروباوية وبيت الطبيب جرانت بك الإنجليزى وأزعجوا أهل القاهرة ومصر وبلغ خوف الناس منهم معظمه فكان إذا خرج الرجل من بيته لحاجة وكل جاره بحراسة بيته حتى يعود والرئيس مع هذا كله كان يقول: عسير علىّ أن أرى فى أيام رئاستى غير ما هو صائر من تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وقطع شأفة أصحاب الشقاوة .

واجتمع به يوما مكاتب جريدة الستاندرد الإنجليزية فحادثه فى أحوال البلاد وما عليه أهلها من القلق والخوف المتزايد بسبب عبث اللصوص فى مشرق البلاد ومغربها وفى التهم الفاضحة الموجهة إلى أصحاب بعض الوظائف الديوانية وأشار على الرئيس بتشكيل لجنة شبيهة باللجان التى يتولاها مجلس الأشغال العمومية فى عاصمة الإنجليز وأن تكون أعمال هذه اللجنة علنية لا تخفى على أحد من الناس فقال له الرئيس: إن مثل هذه اللجان فى بلادكم لا تتناول إلا أبناء جنسكم فقط على حين أنها إذا أنشئت هنا حال دون بلوغها الغاية موانع شديدة إذ تقوم الأحزاب ويندفع كل منهم على الآخر ويرمى غيره بالتهم والوشاية وهناك تكون الطامة الكبرى- إلى أن قال: وحقيقة الأمر أن الأحوال فى السنوات الست الماضية « يعنى بها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا» قد بلغت حدا من الخلل والارتباك لم أكن أخالها تبلغ إليه عند ما استلمت زمان الرئاسة فى هذه المرة والذى أراه أنه ليس فى الإمكان الآن فحص جميع الأعمال المخلة التى عملها بعض موظفى الحكومة لا سيما وأنهم فيما يظهر قد أقدموا عليها مدفوعين ممن كانت واجباتهم تقضى عليهم بمعاقبتهم قال: وأؤكد لك أنه لا يكاد يمضى يوم حتى يظهر فيه مظهر جديد مشوّه بالعيوب والخلل مما كان يدفع بى أحيانا إلى القنوط إذ أجد نفسى تجاه أمور ثقيلة تقضى على بالعناء الكثير والذى يدهشنى ويوجب مزيد استغرابى هو عدم تداخل الدولة

الإنجليزية فى ذلك الأمر وإغماضها الطرف عن الأعمال السابقة «يعنى أعمال الوزير نوبار باشا» قال وإنى لا أقصد محو المغايرات القديمة والإغضاء عنها ولكنى سأجهد النفس فى نسيان الماضى لا سيما وأن المستقبل معقودة نواصيه بنزاهة الأعمال الحاضرة أ. هـ.

قلت : ومحصل بعض هذه التهم التى أشار إليها ذلك المكاتب الإنجليزى أنه لما سقطت الخرطوم وانحدرت الجيوش الإنجليزية وتحقق الناس خروج الأقطار السودانية من قبضة الخديوية المصرية تقدم إلى ديوان الخزينة جماعة من اليونان والروم الذين كانوا يتجرون فى السودان يطالبون بمال لهم فى ذمة غردون أيام الحصار ودفعوا إلى الخزينة صكوكا موقعا عليها بخاتم غردون تشبت أن فى ذمته لأصحابها مالا اقترضه للنفقة أيام الحصار وتزاحمت أقدام هؤلاء القوم على أبواب الخزينة وهم فى كل يوم يلحون فى طلب مالهم فاهتمت الخزينة يومئذ بالأمر وأكبره رجالها وشكلوا لفحص تلك الصكوك هيئة ممن أشار بهم جماعة الإنجليز فتقرب أصحابها حينئذ من بلوم باشا وكيل الخزينة وأورنشتاين كاتب سر المستشار المالى قيل ومنوهما ووعدوهما بالوعود الكثيرة ففصلا فى الأمر وقاسا وألبسا كلا من أصحاب تلك الصكوك ما لاق فهمّت الخزينة بالوفاء وهى فى إمحال وعسر فلم تتمكن فانبث أصحاب الجباية يومئذ يجوبون البلاد شرقا وغربا ويجمعون الأموال والضرائب مع العنف والشدة وطلب أصحاب تلك الصكوك مترادف حتى برح الخفاء وبان فساد تلك الصكوك وتحققوا أن خاتم غردون مزوّر فامتنعت الخزينة من القيام بتعهداتها وخابت مساعى كل من كان فى قلبه مرض بعد قيل وقال ضربنا عنهما صفحا فلما ذاع كلام الرئيس مصطفى رياض باشا مع ذلك المكاتب على ما تقدم وتناقله الناس أخذت الرئيس ألسنة الأحزاب وعابوا عليه خيلاءه وتفاخره وقالوا عسير عليه أن يدرأ عن نفسه وصمة هذا التزلف وعار التقرب من الإنجليز وهو رجل الوطن ووحيده وتطيروا من ذلك وحسبوا للمستقبل أيام رئاسته فى هذه المرة حسابا كبيرا.

وكان قد حدث على عهد الوزير نوبار باشا حادث فى الفيوم ـ وذلك أن أحد أصحاب الحيثيات بها واسمه مصطفى بك واصف قتل فى إحدى ليالى شهر رمضان فى بيت وجيه من البلد اسمه خليل الدهشان فاهتمت الحكومة يومئذ بالأمر ورسم الوزير نوبار باشا إلى جماعة من المأمورين بتحقيق هذا الحادث وإظهار الجانى فلم يفلحوا واختلط عليهم الحال أياما فلما تولى الرئيس مصطفى رياض باشا الرئاسة

وآنس من الناس قلقا واضطرابا لفقدان الأمن وعبث اللصوص فى سائر البلاد عمد إلى إظهار شيء من الشدة فى تحقيق مقتل مصطفى بك هذا ورسم به إلى جماعة اصطفاهم وهم حشمت بك رئيس محكمة المنصورة،وأحمد خيرى بك قاضى تحقيق جنايات محكمة مصر، ومحمد صبرى بيك أحد ضباط قسم الضبط فساروا جميعا إلى مدينة الفيوم وقبضوا على خليل الدهشان صاحب البيت الذى قتل فيه مصطفى بك وعلى جماعة آخرين ممن حصروا الشبهة فيهم وزجوهم فى الحبوس وضيقوا عليهم وشددوا فلم يصلوا إلا إلى معرفة أن الرجل أصيب بطلق نارى وهو يلعب النرد مع خليل الدهشان ثم شاع الخبر بعد ذلك أن خليلا وأخاه خير الله هما القاتلان ـ قالوا: وتحرير الخبر أن مصطفى بك هذا جاء فى إحدى ليالى شهر رمضان من مزرعته إلى بيت الدهشان ليزوره لمودة وصحبة بينهما فبعد الإفطار وأداء صلاة التراويح جلس مصطفى بيك مع الدهشان على مسطبة فى صحن الدار يتحادثان لحظة لطيفة ثم طلب مصطفى بيك من الدهشان أن يلاعبه النرد « الطاولة» فأجابه إلى ذلك ونادى على أحد أتباعه أن هات لنا الطاولة فأتى بها الخادم فبينما كان خليل يرتب أحجارها نظر مصطفى بيك مسدسا بجانب خليل فقال ما هذا؟ قال هو مسدس من الطراز الجديد قال أرنى إياه ومد يده وأخذه فقلبه وأعجب به كثيرا ثم ناوله إلى الدهشان فجعل الدهشان يقلبه أيضا ويطرى على صانعه فلم يشعر مصطفى بيك إلا وقد خرجت منه رصاصة أصابت كتفه فانزعج وصاح فى وجه الدهشان وقال «أهي خونة يا كلاب فلا كنتم ولا كانت صحبتكم» فجاء فى الحال خير الله أخو خليل وصاح على أخيه ما هذا وما الذى تنتظره بعد الذى جرى عجل بإزهاق روحه ـ قال وأخذ هو المسدس وأطلقه على مصطفى بيك ثانية فأماته ـ قالوا وقد شهد شهود الحال بهذا المقال فأتم جماعة المحققين عملهم وانحدر حشمت بك إلى القاهرة وأخبر الرئيس بما جرى قيل فأعجب الرئيس فطنته وذكاؤه واهتم بالأمر ورسم إلى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية بتشكيل محكمة مخصوصة للحكم في مقتل مصطفى بيك فرفعوا بذلك طلبا إلى الخديوي فأجابهم إليه وتشكلت تلك المحكمة من خمسة قضاة وهم: عبدالحميد باشا، وأحمد بليغ بيك، وإبراهيم نجيب بيك، ومحمد كمال بيك صهر الرئيس مصطفى رياض باشا، وسليمان رؤوف بيك، وأحمد حشمت بيك، لأداء وظيفة المدعى العمومى وتقرر بأن تتبع هذه المحكمة فى أحكامها نصوص القانون الجديد المعمول به فى المحاكم الأهلية بالأقاليم البحرية

لأنه إلى ذلك اليوم لم تكن تأسست المحاكم بالأقاليم القبلية وبأن يكون حكمها فى ذلك نهائيا لا يقبل طعن على أى وجه كان فلما كان صباح الاثنين خامس عشرى المحرم افتتاح سنة ست وثلثمائة وألف هجرية انعقدت هيئة تلك المحكمة وأوقفوا أمامها خليلا وأخاه خير الله ووقف معهما أحمد أفندى الحسينى وخليل أفندى إبراهيم المحاميان عنهما وبعد دفاع يومين كاملين حكمت المحكمة بإعدام خليل وأخيه شنقا، وصادق قاضى قضاة مصر والخديوى على ذلك وأعطى للمحكوم عليهما مهلة ثمانية أيام من يوم صدور الحكم لكى يدبر أمر عيالهما وعلاقاتهما ثم نفذ الحكم على خليل بمدينة الفيوم وعلى خير الله أخيه باهربيت إحدى قرى الفيوم فلما وضعوا حبل المشنقة في عنق خليل وأزاحوا الكرسى الذى كان تحت أقدامه انقطع الحبل وسقط خليل مغمي عليه فأجلسوه على كرسي وذهب الجلاد يشترى حبلا آخر من سوق البلد ففتح خليل عينيه وقال ائتونى بقليل من الماء فأتوه بركوة فشرب قليلا والتفت إلى الجمع وقال: أشهدكم بأنى مظلوم مظلوم ويعلم الله - القصاص قريب - ثم أغمض عينيه وسكت فضج الناس وتوجعوا وظهرت حركتهم وعاد الجلاد بالحبل ووضعه فى عنق خليل وشده فبقى معلقا وفاضت روحه فى الحال وشاع خبر هذا الحادث فانقبضت صدور الناس لسماعه وعاب كثير من القضاة على تلك المحكمة حكمها ورموا بعض رجالها بالمروق عن جادة الحق وكثر تحدث الناس فى ذلك ولا سيما بعد أن خلع الرئيس بعض أصحاب الوظائف العالية وحاكم البعض الآخر ممن كان لهم يد فى التحقيق الأول. حدثنى وجيه من وجهاء الفيوم قال: أيظن الناس أن خليل الدهشان وأخاه خير الله هما قاتلا مصطفى بك واصف - قلت: لم يبق على ما أظن من ريب عند أحد فى ذلك بعد أن حكمت به تلك المحكمة العليا فأطرق ثم رفع رأسه وقال عرفت مصطفى بك منذ حين وأعرف ولدى الدهشان من قبل فأحدهما وهو خليل صعب المراس قويّ الشكيمة جبار عنيد ولكنه جواد كريم حسن المعشر بعيد عن الجور وكان بينه وبين مصطفى بك صحبة ومودة عظيمة لا لغرض سوى محض الإخلاص وكان أعرابى اسمه منصور مستأجرا لشيء من أطيان خليل الدهشان بإحدى قرى الفيوم وله زوجة جميلة قد علق خليل بحبها وعلقت هى كذلك به فكان خليل يزورها فى خدرها كل قليل من الأيام وتزوره فى بيته بالبلد وكانت مع شدة مراقبة حليلها وغيرته لا تخشاه ولا تنكف عن الإتيان إلى خليل وشاع خبر ذلك بين الناس وعرفه كبار البلاد وصغارها حتى ندّد بعضهم يوما بزوج المرأة وناداه بعضهم بفحش القول فصمم الرجل على الانتقام من

خليل وجعل يراقب الفـرص وخليل يعلم ويحذر ويدفع بالرجل إلى المهـالك رجاء الخلاص منه واتفق أن حضر مصطفى بك فى إحدى ليالى شهر رمضان لزيارة خليل فى داره باهربيت والإفطار عنده فى تلك الليلة فـفرح خليل بحضـوره وبعد الإفطار جلسا على مسطبـة بصحن الدار يتحدثان ساعـة ثم قال مصطفى بك لخليل أو ليس عندك طاولة للعب فقال عندى قال: هاتها لنلعب معا قتلا للوقت فنادى خليل على أحد أتباعه أن ائتنا بـالطاولة من بيت النساء فدخل الخادم وأبطأ كثيـرا فقال مصطفى بك أين الطاولة ياقوم ما هذا الإبطاء فخـجل خليل من إبطاء الخادم وأسرع إلى بيت النسـاء فلاقـاه الخادم عنـد الباب وقـال له: سيـدى فـلان «يريد به ابن أخى خليل المتوفى» منعنى من أخـذ الطاولة ويقول إن أختـه ماتت منذ خمـسة أيام فكيف يليق لعب الطاولة وقد لطمنى على وجهى فلما سمع خـليل ما قاله الخادم غضب وأسرع بالدخول وكان ابن أخيه قد رآه على هذه الحـال فأسرع إلى الطاولة وأخذ حجرا من أحجـارها ليمنع من الاستـفادة منها فمـال عليه خليل وأشبـعه ضربا ولكمـا وأخذ الطاولة وخرج مسرعا وجعل يعتذر إلى مصطفى بك ومصطفى بك يضحك فجلس خليل وفتح الطاولة يريد رص أحـجارها فوجـد حجرا فاقـدًا فنادى على الخادم أن أحضر لنا قرشا نحاسًا نضعـه بدل الضائع من الحجارة فذهب الخادم، وعلم منصور العربى فى تلك السـاعة بخبـر جلوس خليل وضيفـه فى صحن الدار فأتى مسـرعا يتأبط بارودته ووقف خلف سـور صحن الدار والسور لا يتجـاوز ثلاثة أذرع ارتفاعا وصوب بارودته نحو رأس خليل وكان فى هاته اللحظـة قد رجع الخادم وناول سيده القرش فـأخذه وانحنى قليـلا وجعل يرص الحـجارة ثم رفع رأسه قليـلا ثم طاطأها فأطلق الأعرابى بارودته فـخرجت رصاصتها عند انـحناء خليل واحتكت برأسه من خلف إلى الإمـام وأصابت كتف مـصطفى بك ثم استـقرت بقلبـه ففـاضت روحه لساعته واختفى الأعرابى فلم يعلم به أحد فقامت ضجة فى بيت خليل وامتلأ صحن الدار بالعدد العديد من أهل البلد وطيروا الخبر بما حصل إلى المدير وإلى أهل الفقيد فـوردت يومئـذ كتب الوزير نوبار باشـا مشـددة بالقـبض على القاتل وجـاء بعض مأمـورى الحكومة لتحـقيق الحادث وبثوا العـيون فدلت التـحقيـقات على أن الطلق النارى كـان على بعد بضـعة أمـتار وأن مـقذوف البـارودة شظية من الـرصاص لا رصاصة من رصاص المسـدسات واستخرج تلك الشظية جمـاعة من الأطباء فلم يبق موضع للريب عند أحد فى أن القاتل هو غـير الدهشان. قال: ولكن أين هو القاتل يا ترى لم يحصل العثور عليـه إلى ذلك الحين، واتفق أن عزل الوزير نوبار باشا من

منصبه فتولى الرئاسة مصطفى رياض باشا فاهتم بهـذا الحادث اهتماما عظيما لسعاية بعض الخصـوم وتقرب أصهار مـصطفى بك من مجلس الرئيس فوردت كتـبه على مدير الفيوم بالتشديد فى طلب القاتل والتحذير من عاقبة التوانى ثم لم تكن إلا أيام حتـى أرسل أحمـد حشمـت بك أحد رؤساء المحـاكم الأهليـة ومعـه جماعـة من المأمورين فما لبثوا أن قبضوا على خليل وأخيه خير الله وزجوهما فى الحبس مع نفر من أهل البلد وعملوا مـا لا خير فـيه إذ نبشـوا جثة المقتـول وأخرجوها من قـبرها وكبسوا بعض الدور وفتشوها ونقلوا شيئا مما وجدوه بها ومنعوا المسجونين من الراحة فى الليل والنهار واشتـدوا عليهم فى الأخذ والرد شدة بالغة وقـالوا إن الجراحة التى شوهدت فى رأس خليل ليست إلا كيا بمسمار محمى فى النار يراد به درء فعل القتل عنه. قال: وقـد كان السـواد الأعظم من أهل الفيـوم يعلم بأن الحقـيقـة غابت عن أولئك المأمورين أو هم أخـفوها لغرض فى النفس فأخذتهم الطـيرة وكانوا إذا تكلم بعضـهم مع بعض فى شىء من ذلك تكلمـوا همسا خـوفا من العـيون وكثـر غدو ورواح حشمت بيك إلى القاهرة فكان كلمـا ذهب وعاد قلب الأعمال بطنا إلى ظهر وبالغ فى الحيطة والتشـديد على المسجونين ثم جاء جماعـة من القضاة للحكم على خليل وأخيه فى محكمة مخصوصة أو هى مـحكمة عليا كما سموها وجلسوا لذلك يوما وبعض يوم قـام فيهمـا حشمت بك مدعـيا فبـالغ فى القول وشط فى الطلب وعاب على بعض مأمـورى التحقيق عملهم وارتاب فى ذممهم ولم يتـرك جارحة إلا وطعن بهـا جسم خليل وأخيـه خيـر الله ثم أخذ بعـد كلام طويل ينادى القـصاص القصاص احكموا لنا بتعليق هذين السفاكين على خشبة احكموا احكموا على قاتلى ذلك البرئ احكموا فكان السامعون يدمدمـون فيما بينهم ثم قام المدافعون عن خليل وأخيـه وتكلموا واحتجـوا بأقوى الحجج وبرهنوا بأعظم مـا يكون من البراهين على براءة خليل وأخيه واسـتلفتوا أصحاب الحكم إلى صوت الحق الصـارخ أمامهم حتى بكى بعض الحاضرين وبعد أخذ وردّ تقدم خليل وكانوا قد فكوا قيوده وأغلاله وقال بصوت استلفت إليـه الأنظار: يا سادتى اتهمنى وأخى خيـر الله حضرة هذا المدعى الذى لم يراع الذمـة ولم ينصر الحق واشـتد على وعلى أخى شـدة الله يحكم فيـها بعـدله وزعم أن الجراحـة التى أصـابت رأسى من الطلق النارى الذى أصـاب قلب فقيدنا مصطفى بيك إنما هى جراحة أحدثها لى أحد الحـلاقين إخفاء لحقيقة جريمتى وقد سمعتم من دفاع المدافعين عنى ما أسأل الله أن يوفقكم به إلى الصواب فلم يبق إلا أن أسألكم أمـرا هو إن وفقتم إلى الحكم على وعلى أخـى بالقتل ولا أظنكم إلا

فاعلين فأستحلفكم بمن ترجون منه الرحمة من هول هذا الموقف الرهيب أن تبدءوا بي وتستبقوا أخي خير الله أياما حتى تفحص الأطباء جراحتي بعد الموت فإن كانت إصابة حقيقة وليست جراحة من يد حلاق كما يزعم مدعيكم فأطلقوا سبيل أخي ليعول صبيتي وأهلي ويكون قد خفف الله عنكم وزرا من وزرين وكفاكم عقاباً من عقابين وإن كانت جراحتي كما يقول صاحبكم فأنتم في حل من دمي ودم أخي والله.على ما أقول شهيد ثم ذرفت عيناه الدمع فانتحب وبكى الناس لبكائه وكادوا يضجون ويرفعون أصواتهم. قال الراوي: فعند ذلك قام القضاة واختلوا برهة ثم خرجوا وجلسوا على كراسيهم ونطق الرئيس بالحكم على خليل وأخيه بالإعدام شنقا فانذعر الناس وخرجوا وكأن على رؤوسهم الطير. قال: واتفق أن عاد السير بارنج قنصل جنرال الإنجليز إلى القاهرة بعد غياب وشاع خبر حضوره فعلمت به عجوز هي أم خليل وخير الله فقامت لساعتها ومعها صبي لخليل لم يناهز الخامسة وانحدرت إلى القاهرة واتصلت بباب السير بارنج واستجارت فأدخلها إليه وسألها عن سبب حضورها فقصت عليه الخبر وقالت جئتك يا سيدي لا لتخلص ولدي من الموت بل ليبدءوا بقتل خليل وفحص جراحته فإن كانت كما يقول فأبقوا لي خير الله يعولني ويعول صبيته وصبية أخيه وإن كانت كما يزعم مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراه فهم في حل مما يفعلون. قال: وبكت العجوز بكاء مرًا وترامى الصبي على أقدام السير بارنج فطيب السير خاطرها ووعدها خيرا. قال: وكأن السير بارنج أرسل إلى الرئيس مصطفى رياض باشا يستعلم عن هذا الحادث فلم يكن إلا يوم أو بعض يوم حتى جاء أحمد حشمت بك إلى الفيوم يحمل الأمر بتنفيذ الحكم على خليل وأخيه، ولم يكن قد مضى الأجل المضروب لذلك قانونا فأنفذوه على ما اشتهر خبره يومئذ وبلغ السبع الطباق أ. هـ

قلت: وكأن الرئيس كان يظن أن في قتل ولدي الدهشان، وعبرة وإرهابا لأهل الشقاوة وأصحاب اللصوصية الذين ملئوا البلاد شرقا وغربا ينهبون ويقتلون ويقطعون الطرق فلم يصب ظنه المرمى فإنه ما انتشر خبر هذا الحادث حتى كبرت قحتهم وعظمت جرأتهم وانبثوا في سائر أنحاء الإقليمين فكانت الأخبار تأتي إلى الرئيس تباعا بوقوع النهب والقتل وإتلاف المزارع وتسميم الماشية حتى ضج الناس وذهب منهم الصبر وتولاهم القنوط واليأس وقد زادهم قلقا واضطرابا ورود الخبر بظهور الوباء في مكة واشتداد الموات بين الحجاج شدة بالغة فاهتمت رجال الحكومة لذلك اهتماما كبيرا ورسم الخديوي بناء على ما قرره مجلس الكورنتينات بإرسال قوّة

كبيرة من العساكر والأجناد إلى مدينة السويس لتقوم بعمل طوق صحى ما بينها وبين طور سينا وعيون موسى وتشديد مراقبة الحجر على الحجاج فى الطور عند قيامهم من جده وغيرها وبالغت الخزينة فى بذل النفقة اللازمة لذلك وتحوطت الدول الأجنبية كافة فضربت الحجر على سائر ما يرد إلى موانيها من الموانى المصرية وسواحل البحر الأحمر وأرسل بعضهم إلى السويس رسلا ليراقبوا مرور الحجاج بالترعة الملحة عند عودتهم إلى أوطانهم وخاف الناس من تناقض الأخبار وورودها متقتضبة مبتورة عن ظهور هذا الداء أيضا فى رواندوز من بلاد الموصل وفى جزيرة ابن عمر وغيرها من البلاد العربية وهو آت إليها من الهند الإنجليزية وكثر اجتماع الرئيس مصطفى رياض باشا بكبار موظفى ديوان الصحة ليروا رأيهم فيما يجب عليهم عمله لقاء هذا العدوّ الفتاك وطاف أطباء أقسام مصر والقاهرة فى الأزقة والحارات ومعهم أصحاب الشرطة ومشايخ الحوارى يستحثون العامة إلى نظافة بيوتهم والعناية بتطهيرها وصارت الأخبار تأتى فى كل يوم من مكة والمدينة بعدد الوفيات فكان مبلغها فى اليوم نيفا وألفًا فاشتد الخوف بالناس وكبرت حيطة رجال الحكومة ورسم الخديوى بمنع عمل الموالد ومنع الناس من الاحتشاد فيها وأرسلوا بعض سفن الحرب لحراسة السواحل من السويس إلى دبه ومنها إلى الزعفرانة وأقاموا أربطة من الجنود على هذه السواحل لمنع الفارّين من الحجر والأخبار ترد فى كل يوم باشتداد الوباء فى مكة وفى المدينة ودخوله إلى جدة وفتكه بالحجاج فتكا ذريعا ثم كثر توارد الحجاج على ظهور السفن إلى الطور وعيون موسى فأنزلوهم هناك محجورا عليهم وبقى الحال هكذا أياما وجاء الخبر يوما إلى محافظ السويس بفرار أربعة من الطوق الصحى ودخولهم المدينة ثم فرارهم منها ليلا إلى القاهرة واختفائهم فى بولاق مصر فطير الخبر بذلك إلى محافظ مصر فاهتم له المحافظ وبث جماعة من أصحاب الشرطة فى طلب الفارّين فعاثوا فى بولاق مصر وكبسوا على كثير من الدور والوكائل على غير طائل واتفق أن مرض رجل من سكان بولاق مرضا عاديا سبقه بعض القئ والذرب فأخبر شيخ حارته طبيب القسم بخبره فسار الطبيب إلى منزل المريض ليبحث عن علته وسبب مرضه فوجد أن الرجل قد مات وأن أهله يستعدون لتشييع جنازته فمنعهم من ذلك وأرسل فى طلب عربة الموتى من مركز صاحب الشرطة ببولاق وطير الخبر إلى محافظ البلد بأن الرجل مات بالهيضة الوبائية ثم منع الناس من الاقتراب من الجثة وبالغ فى ذلك فقام عليه حينئذ أهل الميت وأشبعوه ضربا ولكما ووخزا وأخرجوه خارج الدار وقفلوا دونه الباب فلم تكن

إلا لحظة حتى أتى رجال الشرطة ونفر من رجال الصحة ومعهم عربات نقل الموتى وتطهير متاع المصابين بالأمراض المعدية وشيء من العقاقير ومواد التبخير ودقوا باب بيت الميت فلم يفتحوا لهم فظلوا على هذا الحال ساعة اجتمع فيها العامة وزعر بولاق بعصيهم وهراويهم واشتدت جلبتهم وصياحهم فى وجه أصحاب الشرطة ورجال الصحة وعلا عويل النساء وصراخهن من شبابيك الدور ورموا رجال الصحة بالحجارة من أسطحة البيوت وكثر الهرج والمرج فأتى محافظ المدينة فى نفر من الجند والأتباع ومازال بأهل الميت حتى فتحوا الباب فدخل أصحاب الشرطة ورجال الصحة وحملوا الجثة عنوة ووضعوها فى عربة الموتى فسارت بها على عجل إلى مستشفى القصر العينى والناس محتشدون حولها وهم فى ضجة وصياح فكان المشهد مريعا وخاف الناس خوفا عظيما وظن بعضهم أن قد أنشب الوباء أظفاره فى جوف بولاق القاهرة بدخول الفارّين من الحجر الصحى إليها واستصرخ أصحاب الصحف على اختلافها رجال الصحة واستنهضت أصحاب الشرطة إلى الأخذ بأطراف الحزم والثبات وسألت أصحاب الحل والعقد أن لا يبخلوا ولا يقتروا فى النفقة حتى يدفع الله عن البلد شر هذا العدوّ القاهر وأكثر الأطباء من نشر الإرشادات الطبية والنصائح الصحية لعل الناس يعوّلون عليها ويعملون بها، فلما كان اليوم الرابع من ظهور هذا الحادث ظهر الخبر وتحقق أن ذلك الميت لم يمت بالهيضة الوبائية وأن مرضه إنما هو من الأمراض العادية التى تحصل عادة فى فصل الصيف من كل سنة وأن الرجال الفارين من محجر الطور ليسوا من الحجاج وإنما هم ممن ذهب مع ركب الحج يوم خروج المحمل من القاهرة ثم تخلفوا بالسويس لضيق ذات اليد ولبثوا بالبلد ينتظرون رجوع الحجاج فينزلون معهم إلى القاهرة كأنهم حجوا وطافوا وتمموا المناسك كلها زورا وبهتانا وتكلمت فى ذلك الجريدة الرسمية وأقامت عليه الدليل فاطمأن الناس وزال عنهم الخوف وكبرت عناية أصحاب الحل والعقد بمراقبة السواحل والتشديد فى النطاق الصحى بمحجرى عيون موسى وطور سينا.

وبينما كان دعاة الصحة يطوفون المدن والبلدان شرقا وغربا وشمالا وجنوبا يحضون الناس على تنظيف دورهم وإصلاح حالة طعامهم والعناية بماء شربهم والامتناع عن كل ما من شأنه تسرب ذلك الداء الفتاك إلى البلاد وفتكه فيهم وفيمن يحبون كان جباة الخراج يطوفون كذلك البلاد زمرا يجبون الأموال فى غير آجالها ويشددون على الناس فى ذلك تشديدا بالغا وكان بعض المديرين يبذلون من الهمة فى ذلك والعناية به ما أعجب الرئيس مصطفى رياض باشا وأرضاه إذ كان يخشى

عاقبة إمحال الخزينة وفراغها من الدرهم والدينار وعجزه عن القيام بالنفقة المطلوبة - قيل وهو فى كل يوم يقول لجماعة الإنجليز إن أيام رئاستى خير ورخاء على البلاد وأهلها فرسم للمديرين كافة يومئذ بخروج الجباة والتشديد عليهم فى جمع الأموال وعدم الوقوف فى التحصيل عند حدّ فطافوا وعاثوا واشتدوا على الناس فضج الناس وعجوا إلى الله تعالى وأرسلوا الشكاوى تترى إلى ديوان الرئيس بطلب المهلة وكف أيدى الجباة إلى حين فلم يلتفت الرئيس إلى ذلك بل رسم أيضا بتحصيل سائر المتأخرات على اختلافها وعدم التجاوز عن شىء منها وسير بعض المأمورين وأصحاب الوظائف إلى الأقاليم يستحثون الجباة على التعجيل وعدم الإبطاء فضاق خناق الناس وتولاهم القنوط وانحدر منهم جماعة كثيرة إلى القاهرة ووقفوا على أبواب الداخلية والمالية يرجون لقاء الرئيس أو لقاء صهره محمود باشا دبوس أوغلى فلم تمكنهم الحجاب من ذلك أياما.

واتفق فى هذه الأثناء أن تولى وكالة الخزينة المستر منلر أحد كبار الإنجليز «وقد كان مديرا لحسابات الخزينة» بدلا من بلوم باشا الذى تولاها فى عهد الخديوى إسماعيل ويقى شاغلا لها حتى أقصاه الإنجليز عنها فى هذه الأيام صاغرا لأسباب لا محل لإيرادها هنا فتزاحم القوم على باب منلر وصاحوا واستغاثوا ووردت على ديوانه كذلك صكوك الظلامات من كل فج عميق فأكبر منلر الأمر واهتم له اهتماما عظيما لأنه أعلم الإنجليز بحالة البلاد وأهلها وما هم فيه من شظف العيش وخلو ذات اليد وأعلمهم كذلك بقدر اهتمام الرئيس بجباية الأموال وميله إلى قهر الناس على دفعها صاغرين فسار من فوره إلى الإقليمين القبلى والبحرى وطاف كثيرا من المدن والبلدان وخبر من أحوال أهلها ما زاده شفقة وعاد إلى القاهرة فسير إلى المديرين والمأمورين فى منع الجباية إلا فى آجالها المقررة وكف الجباة عن المطالبة بالبقايا والمتأخرات إلى ميسرة وشدد عليهم فى ذلك تشديدا فلم يعجب الرئيس فعال منلر وعابها وحسبها تعديا وافتياتا على منصبة وهمّ بردّ كل شىء إلى ما كان عليه وأرسل فى طب سائر المديرين ووكلاء المديريات فحضروا فخلا بهم فى ديوانه يوما أو بعض يوم ثم أرجعهم إلى مراكزهم فلم تكن إلا أيام حتى ظهر لمنلر وجماعة الإنجليز أن بعض المديرين يكرهون مشايخ البلاد على تقديم عرائض يسألون بها دفع جميع الخراج معجلا عن السنة الجارية أى سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية وأن قد ورد على ديوان الخزينة شىء من تلك العرائض فاهتم منلر بالأمر كثيرا وطال الأخذ

والردّ بينه وبين الرئيس أياما ثم أرسل منلر كتبه إلى المديرين ثانية بالكف عن الجباية والإقلاع عن كل إكراه وإلا ساءت العاقبة وعظم الحساب وبدت من هذا الحين دلائل الوحشة بين منلر والرئيس ونفر كل من رفيقه واهتم منلر بإيقاف الرئيس عند حده وبالغ فى السعى وراء ذلك وعلم الناس بما جرى ففرحوا وحمدوا منلر وشكروه فتكلم فى ذلك بعض أصحاب صحف الأخبار وعابوا على الرئيس فعاله وقالوا ما ضره لو أقلع عن هواه وقلل من حدّته ولم يمكن منلر من الغلبة عليه وتنفير قلوب الناس منه وهو رجل الوطن وكاشف غمته ومفرج كربته فردّ عليهم بعض أصحاب الصحف المحازبة للرئيس ردا كله مماحكة ومهاترة ووقعوا على المستر منلر باللائمة وأشبعوه تأنيبا وتقريعا، وتلاقيت يوما مع أحد المقربين من مجلس الرئيس فقلت قد ذهبت أتعاب صاحبكم فى التعجيل بجباية الخراج قبل أوانه وفى تحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة هدرا وقد كان عهدنا به أن لا يصرف وجه أصحاب الظلامات عنه ولا أن يمكن أحدا من طرق باب غير بابه فان ذلك كما تعلم أدعى إلى الصغار وأدنى إلى مهواة البوار وكلنا يعلم ما لصهر الرئيس من الحيطة والقدرة على تلافى مثل هذه الفلتة المزرية المعيبة خصوصا فى هذه الأيام التى قويت فيها شوكة الأجنبى واتسعت سلطته فسبحان الله ـ فتبسم الرجل عند ذلك وقال: وأى حيطة تنفع أو قدرة تدفع والرئيس قد خص ذاته بقضاء أشغال الخزينة ولجناتها ومجلس الوزراء وجلساته وأشغال الداخلية وفروعها واهتم بمعرفة أسرار وعورات كل فرد من أفراد مستخدمى كل ديوان وإدارة من الصغير إلى الكبير فضلا عن عنايته الكبرى بنشر المنشورات والإكثار منها وقلب النظامات وغير ذلك من دوام التفكير فى أحسن التدابير مما لا يقدر عليه أحد غيره ـ قلت: إنى لا أراك مصيبا فى ذلك لأن ما لا يقدر على عمله بنفسه وقلمه وهو على كرسى إدارة الخزينة مثلا يقوم بعمله صهره محمود باشا وهو فى مسند وكالة الداخلية ـ قال: وهل لصهره من الوقت ما يكفيه لقضاء مثل هذه الأعمال الخطيرة كلها وقد هجر منزله فى بولاق مصر ولازم دار الرئيس بالحلمية نهارا وليلا ولا يجد مع ذلك ساعة يقضيها فى حوائج نفسه لأنه يأتى نظارة الداخلية فى صباح كل يوم فيجد على مكتبته الشىء الكثير من الرسائل الرسمية والكتب الخصوصية فيفض ختامها ويقرؤها جميعها ويحفظ الخصوصى منها ثم يرد الباقى إلى أصحاب الوظائف الديوانية كل هذا وهو يقابل الكتاب والحجاب وأصحاب الحاجات الخصوصية وأرباب الوظائف العالية وأصحاب الحاجة من مشايخ البلاد حتى الساعة الأولى بعد الظهر فيذهب إلى دار الرئيس ويجلس معه على مائدة

طعام الظهر ويقص عليه حوادث الصباح وما فيها وقصص أفراد السهارة فى الليل وحاجات أصحاب الحاجات منهم ثم يذهب فيستريح قليلا ويقوم بعد ذلك إلى حيث يستقبل الوافدين فيرد عليه رواة الحوادث والأخبار اليومية والجواسيس الخصوصية ثم المرتزقة وطالبو الخدمات ووظائف مشيخة البلاد وأرباب الصحف وأصحاب الوساطة فيقضى بقية يومه فى سماع ظلاماتهم وربما حنّ لشكوى بعضهم وتوجع لبلواهم حتى الغروب فيأخذ فى قراءة الصحف بتأمل وإمعان فيذم الذامة منها ويضرب بها عرض الحائط ويقبل على المادحة ثم يقوم إلى تناول الطعام مع الرئيس فيقص عليه ما اتصل به من أخبار نقلة الأخبار والجواسيس ثم ما قرأه فى الصحف من مدح وقدح ثم يشير على الرئيس بأن يأمر بإقصاء زيد عن خدمة الحكوّمة وبإدخال عمرو فيها ويردّ بكر إلى مشيخة بلده كما كان وغير ذلك من المقاصد والآراء إلى أن ينتهى من الطعام فيرجع إلى حيث يستقبل الناس فيدخل عليه حينئذ المدلسون والمملقون والمداهنون والواشون والآكلون للحوم إخوانهم والزوار فمن كان من هؤلاء مقبولا فى مجلس الرئيس استأذن له وأدخله وإلا أخذ يسمع له شكواه ويتأوّه لبلواه حتى منتصف الليل فيتركه ويذهب إلى غرفة نومه أو يشعر الرجل بثقل وطأته فيرحل من ساعته وهو يعض أصبع الندم على ما أضاعه من الوقت فقل لى بعيشك أين الساعة التى يتمكن فيها من نظر تلك الظلامات وهذه الحال حاله بين ليله ونهاره فقلت إن لله فى خلقه شئونا.

(مطلب)

عدم بلوغ النيل حده المألوف من الزيادة

ولم تكد تطمئن القلوب بزوال الوباء وعودة الحجاج إلى أوطانهم وسلامة البلاد كافة من تسرب الداء إليها حتى ظهر انخفاض فيضان النيل عن معتاده فى كل عام وعدم بلوغه حده المألوف الذى ترتاح إليه الخواطر فكان قلق أهل الإقليم القبلى والحوف الشرقى عظيما إذ ارتفعت عندهم أسعار الغلال من القمح والفول والشعير والعدس والحلبة وقلّ علف دوابهم فانحدروا بها إلى الأقاليم الوسطى والإقليم البحرى طلبا للكلأ والعلف فاهتمت الحكومة لذلك وظهر اهتمام جماعة الإنجليز بالأمر تقربا من أهل البلاد وزلفى وسار محمد زكى باشا ناظر الأشغال إلى الإقليم القبلى لينظر فى تدارك الخطر قبل استفحاله وسار معه الماجور روس مدير رى الإقليم القبلى وهو من كبار مهندسى الإنجليز رجل كبير الدراية واسع الخبرة عالى

الفكر مهندس حاسب مقدام لم يضارعه أحد ممن تولى عمل الرى قبله وقل أن يضارعه أحد من بعد فاهتم الماجور روس بالأمر وعمل من خوارق الأعمال الهندسية ما أزال الخوف وأمن الناس فعاد من نزح منهم إلى بلده وجاء زمن الرى فلم يتعذر سوى رى الجزر المرتفعة والحوف الشرقى وقليل من الأحواض العالية ببلاد إسنا وقنا وجرجا فأصاب أهلها الضر ولا سيما أهل الحوف الشرقى منهم فمات بعضهم وأنشبت الأمراض الخبيثة أظفارها فيمن بقى منهم وكبرت عناية الماجور روس بأمر رى ذلك الصعيد واهتم بتنسيق جسوره وتنظيم أحواضه على أحسن ما يكون من الأشكال الهندسية وعمل من خوارق الأعمال شيئا كثيرا ولم تبخل الخزينة بالمال وأكثرت من بذل النفقة حتى جاءت أعماله آية من الآيات الهندسية وهى باقية إلى ما شاء الله تشهد للرجل بالفضل وطول الباع.

(مطلب)

مجيء ولي عهد السلطنة الإنجليزية إلى مصر

وجاء الخبر فى هذه الأيام إلى ديوان الخديوى بقيام الأمير دى غال ولى عهد السلطنة الإنجليزية على ظهر إحدى سفنهم الحربية يريد ديار مصر والمكث فيها أياما معدودة فرسم الخديوى إلى الرئيس مصطفى رياض باشا بالتأهب للقاء هذا الضيف العظيم فقام رجال الدولة حينئذ من مصريين وإنجليز لذلك وقعدوا وبالغوا فى الاستعداد فلما كان يوم الأربعاء سابع ربيع الأوّل من السنة أى سنة سبع وثلثمائة وألف هجرية سير الخديوى أخاه الأمير حسن وذو الفقار باشا ناظر الخارجية وعبدالرحمن رشدى باشا كبير التشريفات ومحمد زكى بك التشريفاتى إلى الإسكندرية على قطاره الخاص لينوبوا عنه فى استقبال الأمير فساروا إلى سراى رأس التين وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد جاءهم الخبر من بورسعيد بقرب وصول الأمير إليها وأنه قد رجع عن عزمه على القدوم إلى الثغر الإسكندرى وأنه أراد الذهاب إلى القاهرة عن طريق الإسماعيلية فقاموا من ساعتهم إلى الإسماعيلية على القطار الخديوى ومنها إلى بورسعيد ولبثوا يومهم ذلك حتى وصل الأمير فى نفر من الحاشية والأتباع فقاموا فى ركابه إلى القاهرة وكانت قد توجهت ساعة الظهيرة كوكبة من العساكر المصرية وأخرى من العساكر الإنجليزية إلى محطة السكة الحديد للقاء الأمير وكذلك وفد إليها الوجهاء ومقدمو العسكر ورؤساء النظارات ثم تبعهم الخديوى بلباس الزينة والتشريف ومعه جماعة الوزراء وكبار الدولة بزينتهم ووقفوا

جميعا على أكمل هيئة ونظام حتى أقبل القطار الذى يقل الأمير وأولاده ورجال حاشيته فأطلقت عند ذلك مدافع التعظيم واستقبله الخديوى بالتجلة والتكريم وأركبه على يمينه فى عربة تجرها أربعة من جياد الخيل يتقدمها طائفة من الفرسان المصريين والإنجليز وخلفها عربة أولاد الأمير ومعهم الأمير حسين أخو الخديوى ثم عربات الوزراء وكبار الدولة ومازالوا سائرين حتى وصلوا إلى دار قنصلاتو الإنجليز فنزل بها الأمير وحاشيته وذهب الخديوى إلى مقره بعابدين وأقام الأمير فى تلك الدار لحظة تناول فيها طعامه ثم سار فى موكبه إلى سراى الجيزة وقد كانت أعدت لنزوله فزاره الخديوى فرد له الزيارة على الأثر ولما كان فى مساء ذلك اليوم أقبل الأمير إلى سراى عابدين بموكب حافل لمأدبة أدبها له الخديوى وفيها ثمانون مدعوا فلبث إلى ما قبل نصف الليل بقليل ثم عاد إلى مقره بالجيزة وفى اليوم الثالث خرج إلى شوارع المدينة وجعل يتجول فيها وفى ركابه السير بارنج وشاع الخبر فى ذلك اليوم بأنه سيستعرض الجيوش الإنجليزية والمصرية معا بميدان العباسية عند الجبل الأحمر فهرع الناس إلى ذلك المكان أفواجا وانتشر أصحاب الشحنة على طول الطريق ذات اليمين وذات الشمال ثم أقبل الخديوى فى موكبه فلم تكن إلا ساعة حتى برز كل من الأمير والخديوى إلى الميدان فى ملابس زينته وتشريفه ممتطيين جوادين ووقفا وحولهما كبار الجند ومقدمو العسكرين وخلفهما حاملو العلمين فهتف لهم الجند بأصوات التهليل وصدحت الموسيقى بألحان السلام ومرت من أمامهما العساكر والأجناد مشاة وركبانا وكذلك أصحاب المدافع وما يتبعهم فكان المنظر مهيبا والناس فى دهشة وسكون كأن على رؤوسهم الطير إشفاقا مما عساه أن يكون من وراء مجيء ذلك الأمير إلى هذه الديار، واتفق أنه فى مساء ذلك اليوم كانت الليلة الكبرى لمولد صاحب الشريعة المحمدية المعتاد عمله فى كل عام فبعد أن تناول الأمير العشاء مع الخديوى ركب عن يمينه فى موكب حافل مشى فيه الوزراء وكبار العسكر وساروا إلى ساحة المولد ونزلوا بفسطاط شيخ مشايخ الطرق لحظة لطيفة. ثم انتقلوا إلى فسطاط الخديوى وجلسوا به ساعة كثر فيها لغط العامة وتساؤلهم وترامت ظنونهم إلى أسمج المرامى ثم انصرفوا جميعا وباتوا وأصبحوا وقد ركب الخديوى فى موكبه وسار إلى محطة السكة الحديد وخلفه سائر الوزراء والأمراء وكبار العسكرين يريدون وداع الأمير حتى إذا كانت الساعة التاسعة صباحا أقبل الأمير وولده يحف بهما موكب حافل من الفرسان وطائفة من الحرس الخديوى فاستقبله الخديوى وبالغ فى وداعه فركب الأمير مع حاشيته القطار إلى الإسكندرية فلما وصلها نزل فى سفينته فأقلعت به إلى بعض الثغور الإيطالية .

وما تحركت سفينتــه حتى تحركت معها أقلام أصحاب الـصحف العربية المحازبة للسياسة الإنجليـزية بمصر فجعلوا يتكهنون وينبئون بمستقـبل الأيام ويقولون قد قضى الأمـر ونفذ القـضـاء وأذن الله بضم الديار المصـرية من أقـصاها إلـى أقصـاها إلى ملحقات السلطنة الإنجليزية فلا دافع ولا راد لقضاء الله ولا مجير لأهل البلاد سوى الاستــسلام وخفض جناح الطاعـة لأولى الأمر من الإنجليـز وأن تقلع الأحزاب عن تلك الضــوضاء وتنكف عن استـصراخ الدول لتـخلصهم من سـيطرة الإنجليز فـقام حينئذ فى وجههم أصحاب الصحف الأخرى وكـذبوا فيما يقولون ورموهم بالخيانة وبيع الذمم وقالوا لهم إنما أنتم فى إضرام نار هذه الفتنة مريدون السوء للبلاد وأهلها وكثر اللغط فى ذلك كـثيرا حتى أرجف بعض أصحـاب تلك الصحف بأن الخديوى قد استسلم وأطاع وعقد النية علـى تسليم البلاد بشروط وقع الاتفاق عليها بينه وبين الأمير دى غال وعندى أنها فرية ما أنزل الله بها من سلطان .

واشتدت عـزيمة السير بـارنج بمقدم الأمير دى غال وأظـهر ما كان يخفـيه من الشدة والجبروت وكـان الرئيس قد تمكن من بسط يده على سائر الدواوين والإدارات وقلب بعضهـا بطنا إلى ظهر ومسخ نظام بعضـها واشتد على قضـاة المحاكم الأهلية فخـلع بعضـهم لغيـر علة ولا سبب ظاهر وهدد بعـضهم بشىء من قـارص الكلام فاختلـط الحال على من بقى منهم وأصبحـوا وهم فى ريب من استقلالهـم وسلامة مراكزهم وبات حـسين فخرى باشا ناظر ديوانهم مـغلوبا على أمره ليس له من حق النظر سوى الاسم والأمر للرئيس مصطفى رياض باشا وحده فكان إذا أخذت حسين باشا يوما عزة النفس وهمّ بعمل يرضى الله والناس قام فى وجهه محمود باشا صهر الرئيس فينكف وفى النفس ما فيها وظل الحال على هذا المنوال حينا حتى تحركت من جراء ذلك خـواطر جمـاعة الإنجليـز القابضين علـى زمام بعض المصالح الـديوانية وأكبروا عمل الرئيس وأعظموه وعابوا عليه عـسفه وخيلاءه وشكوه إلى السير بارنج فعمد السير بارنج حينئذ إلى إيقاف كل عند حده قيل وقد زاده اهتماما بهذا الأمر ما عرفه من دخائل حادث مـقتل خليل الدهشان وأخيه خير الله وما تحـققه من أسباب التعجيل فى تنفيذ الحكم بإعدامهـما قبل الأجل المفروض وجعل من هذا الحين يكيد للرئيس كيـدا فكان إذا همّ الرئيس بأمر من الأمور وقف فى وجهــه ورده عنه ومنعه من هواه فيتركه أيامـا ثم يرجع إليه فيرده وهكذا حتى اشتد الجفـاء وكبرت الوحشة بين الاثنين وظهر للعـيان بغض بعضهـما لبعض فتحـقق الناس من خذلان الرئيس وقالوا بأنه معزول لا محالة وأن رئاسته باتت على شفا جرف الزوال ومال الخديوى

أيضا عن مسايرته وعاب عليه الشيء الكثير من أعماله وأنكرها فظهرت عند ذلك جلبة الأحزاب وترددت رسل الرئيس على دار السير بارنج يسترضونه ويستميلونه وهو يكيد له كيدا ويعمل على تسليم زمام الوظائف العالية إلى جماعة الإنجليز ويطلق لهم الكلمة فيما هم قابضون عليه منها ويفسح لهم نطاق سلطتهم بلا حد ولا تقييد وظل الحال على ذلك حتى بات أصحاب الوظائف من الأهلين وهم لا يملكون من أمرهم فى مناصبهم شيئا سوى جماكيهم وما يتبعها من الألقاب والنعوت وذاع الخبر بأن السير بارنج سيتقدم إلى الخديوى فى طلب إقامة مستشارين من كبار الإنجليز فى كل وزارة من وزارات الحكومة ليحولوا بين هوى الرئيس وحقوق المأمورين وأصحاب الوظائف الذين أثقلهم نير الرئيس وعسفه فقام عند ذلك أصحاب الصحف المحازبة يقرعون السير بارنج ويرمونه بالجور فرد عليهم أصحاب بعض الصحف الكبرى الإنجليزية كصاحب التيمس وصاحب الدالى نيوز وصاحب مجلة القرن التاسع عشر ردا كله إيعاد ووعيد وإرهاب وتهديد ثم نادوا صاحب سياستهم أن اضرب على يد أولئك الأغرار الذين زينت لهم أنفسهم الإمارة إذهاب ما صنعته أيديك من الإصلاح فى أرض الفراعنة وأدراج الرياح ولا تكن ضعيفا مستضعفا فيشمت بك الشامتون ويستخف بك المستخفون فلم تمض على هذه الضجة إلا أيام حتى تقدم السير بارنج إلى الخديوى فى طلب إقامة رجل من الإنجليز مستشارا قضائيا يكون مقره بديوان الحقانية ويختص بالإشراف على سائر أعمال المحاكم الأهلية والشرعية على السواء فلا يبرم أمر إلا بإشارته ولا يتم عمل إلا برأيه- قال : كى لا يبقى للرئيس مصطفى رياض باشا دخل فى شيء من هذه الشئون وكى لا تزول بهجة ذلك النظام الذى أحدثته يد السلطة الإنجليزية بعد ذلك العناء الكبير. قيل فمال الخديوى إلى مقالة السير بارنج ووقعت عنده موقعا مقبولا لأنه كان يكره من الرئيس استبداده بسائر الأمور وضغطه على صغار وكبار المأمورين وأصحاب الوظائف وكان ينهاه عن ذلك ويتألم من اندفاعه وراء صغار الأمور وإيغار الصدور على غير مسوّغ فكتب صاحب جريدة الأهرام لمحة فى هذا المعنى بعنوان «صهوات المناصب لفوارس التجارب» وهى من حسن السبك وخالص النصح بمكان عظيم قال فيها:

سأل أحدهم حكيما من أجلّ الرجال فقال: من قام بأجل الأعمال قال من هو وما هى قال من قاد أبدان الناس بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها بأسبابها قال إذا تعنى رب المنصب ومنصبه أجاب أنت قلت وإلى هذا المعنى أشار أرسطو

الفيلسوف على الإسكندر حيث قال املك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها واعلم أنك إنما تملك الأبدان فاجمع لها القلوب لأن الرعية إذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل فاجتهد أن لا تقول تسلم من أن تفعل. نتج مما ذكر أن سياسة المنصب من أجل الأعمال وأن القائم بمواجبها له امتياز الفضل بين الرجال ولا غرو فإن المرء ليتولاه الشعور بالفخر وتتلقاه نوافل الثناء وهو لم يحسن القيام إلا بسياسته وسياسة خاصته فكيف به وقد أضاف إلى ذلك إحسانه سياسة العامة، ولما كان مقدار فضل المرء على سواه موقوفا على مقدار نفعه سواه كما جاء فى الحديث الشريف «إن خير الناس من نفع الناس» كان لرب المنصب ما ليس لغيره من الذرائع التى تعدّ له سعة المجال فى سبيل نفع الناس وليس بخفى على البصير أن المرء يطالب بقدر مكنته ووسائطه إذ لا جود إلا من وراء موجود فإذا أمسك موسرا ليم لوم من بسط معسرا وإذا نشرت له الأيام بساط العمل فطواه إما بذراع أدماها سهم الخمول والكسل أو بيد أشلها الغرض والحمق قضى عليه العدل بعقاب من عاكس إحكام الوضع والطبع وخالف قانون العرف والشرع وهل تفترش الأيام بساط العمل لرجل أولى من رجل المنصب فهو ولا مراء شريك الطبيعة فى المحافظة على قوانينها والاحتفاظ على نواميسها بل هو آلتها المنفذة لأحكامها والقائمة بحركة دقائقها فإذا لم تكن صالحة حالت دون الحركة فنشأ الضرر وقد قيل إذا زل العالم زل بزلته العالم ومثل ذلك زلة من يتولى مصلحة العباد ويقوم بسياستهم فهو قد عهد إليه أهم أعمال الإنسان فكان مركبه خشنا وموقفه هائلا وحسبه من صعوبة المراس جمعه من الأضداد ما قاله عمر رضى الله عنه وهو لين لا يتولاه ضعف وقوة لا يمازجها عنف أو ماقاله آخر تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وإنصاف عن قوة.

وإذا سبرنا غور الحقائق بإمعان الفكرة وإنعام النظرة وأنسنا إلى صحة المبادئ التى شرحنا متونها وقفنا أمام المنصب وقد حفرت بنان الحق على قوائم كرسيه الأربع أربع كلمات وهى وطنية حكمة همة مسئولية فوجدنا الموقف هائلا لأن من ورائه التقاضى إلى محكمة مهيبة عادلة قانونها الذمة وقاضيها الضمير ومنفذ أحكامها الشرف فمن العبث إذا أن تسند المناصب إلى من لا تهصر أعطاف الوطنية فى مقامه ولا يجنى ضرب الحكمة من ضروب بنانه ونفثات أقلامه ولا يسل سيف الهمة من أجفاف نشاطه وأغماد إقدامه ولا تشام بارقة شعور فى أفق ضميره من سحب نقضه وإبرامه إلى أن قال: أما الوطنية فهى المحور الذى تدور عليه كرة الخواطر أو النقطة التى ترسم منها دائرة الشعور والعواطف يولدها الطبع وتنميها التربية ويكفلها الشرف

وتعززها الأريحية ولها على المرء من الحرمة ما لوالديه عليه لأنها تقوم بكفايتهما ليقوما بكفايته ولم تعمر البلدان إلا بمحبة الأوطان ولذلك قالوا إن حب الأوطان من الإيمان فعلى صاحب المنصب أن يتصف قبل كل صفة بالوطنية الصادقة ويأنس إلى وفاء حقوقها العامة قبل النظر فى وفاء حقوقه الخاصة لاشتمال الأولى على الكل والثانية على الجزء والجزء داخل فى الكل وأن له من احتضان الطير لعشه مهمازا لشاكلة تنبيهه.

وأما الحكمة فهى الدعامة الثانية المتممة للوطنية لأن مجرد إرادة الميل إلى العمل لا يغنى مالم يشفع بقوة فاعلة مدركة تستبين أوجه العمل والذرائع التى تنطبق على ذاك الميل وتجاوب على تلك الرغائب الصادقة وإلا ضاع الميل القويم باستكانة عن خمول أو نزق عن جهل فأتى الضرر من حيث يرجى النفع ووقع الخطأ من حيث يرام الصواب ومن هذا القبيل قولهم عدوّ عاقل خير من صديق جاهل.

وأما الهمة فمن متممات الحكمة لأنها القوة المنفذة لها والكافلة لاغتنام نتائجها بل هى التى تمتطى الليل والنهار فى مجاهل العمل إنفاذا لما تشعر به الوطنية ويقضى بإيجابه الحكمة فمن ثبطت همته عن السعى إلى الأمام نقلته إلى الوراء أدوار الأيام.

وأما المسئولية فما هى إلا خلاصة القوى الثلاث ومن خصائصها التنبيه والتحذير وصون رب المنصب من الخطل فى القول والزلل فى العمل صونا ناشئا عن رعاية لحرمتها وإدراك لأهميتها فمن لا يسئل عما يعمل يأخذه دافع من اثنين إما قعود يمازجه كسل وإما غرور يخالطه طيش وفى الأول سقوط وخمول يفضيان إلى الإضاعة والضعة وفى الثانى استبداد وظلم يؤديان إلى النفرة والضغينة وبئست نتيجة المقدمتين .

ولكن بأى شىء تقوم الوطنية يا ترى أبالدعوى بها قولا والإغماض عنها عملا أم بمجرد الانتماء النسبى دون القيام بمواجبه أم بالتحامل على قريب لم يسئ أم بكسر الأبواب الموصدة دون تداخل الغريب أم بنسيان الواجبات التى تستلزمها الوطنية على مبدأ الدين والشرف ـ كلا ليس ما ذكرناه من الوطنية فى شىء فالقول لا يصدق حتى يشهد به العمل ولو أنك لم تقل ولم تفعل خير من أن تقول ولا تفعل وأفضل منه فعل لا يسبقه قول وما ألطف ما قاله صفى الدين الحلى فى مثل ذلك إذ ضمن فى شعره مثل البلبل والصقر فقال البلبل مخاطبا الصقر:

وقــال أراك جـليـس الملــوك ومن فــوق أيديـهــمــو تحــمل
وأنت كــمــا عـلمـوا أخـرس وعن بـعض مــا قلتـه تنـكل
وأحــبس مع أنني نـاطـق وقـدري عندهمـو مـهـمـل
فــقــال صــدقت ولكـنهـم بـذاك دروا أني الأفــضـل
لأني فــعـلت ومــا قلت قط وأنـت تـقـول ولا تـفــعـل

وأما مجرد الانتماء دون القيام باللوازم فكالصفر عن يسار العدد لا قيمة له أو كواو عمرو تكتب ولا تقرأ بل هو عيب لا يستر وذنب لا يغفر ومثله إيقاع الأذية بمن لم يسئ تشفيا وانتقاما على جهل بدعوى أن ذاك ليس منا مع أن السياسة تقضى بأن تعتبر من ليس عليك فى مصاف من هو معك ويعاكس ذلك تمهيدك لمن هو عليك السبيل الذى تمهده لمن هو معك وهذا من قبيل وضع الشيء فى غير موضعه ومثل ذلك إغضاؤك أو صمك الأذنين دون استماع صوت الدين والشرف اللذين يقضيان عليك بأن تفدى وطنيتك بما عز وهان وتحتقر فى جنب صونها كل مصلحة خاصة وإن عظمت وتحترم كل مصلحة عامة وإن حقرت تلك هى الوطنية الحقة الصادقة التي يجب أن يتجلى بها كل ذى منصب ورئاسة .

ثم بماذا تقوم الحكمة الوطنية يا ترى أبالاستبداد فى الرأى والعمل أم باتخاذ المنصب ذريعة للإضرار بالناس إجابة لداعى الانتقام أو إصاخة لإشارة أم بتفريق كلمة أبناء الوطن وإيجاد الشقاق بينهم ودفع الواحد منهم للإيقاع بالآخر أم بإنفاذ الغرض الخاص وتحميل المؤتمرين بالأمر ما ليسوا مكلفين باحتماله أم بأسر الإرادة فى شئون الإدارة وإطاعة كل إشارة أم بتفضيل حلاوة المنصب مجردة على مرارته مركبة وقد نتجت المضرة من بينها وحكم العقل والعيان بها وأبى الطبع الشريف قبولها فكل ذلك بينه وبين الحكمة بون شاسع وبعد سحيق ـ فأما الاستبداد فضرب من ضروب الحماقة وقالت الحكماء: الرجال ثلاثة رجل ونصف رجل ولا رجل فالأول من له رأى ومشورة والثانى من له رأى ولا مشورة له والثالث من لا رأى له ولا مشورة فالمستبد لابد من أن يكون ثانى الثلاثة أو ثالثهم ولا يعزب عنا قوله : ﴿وشاورهم في الأمر﴾ والمشورة من الروح القدس قال الشاعر:

أقرن بـرأيك رأى غيـرك واستشر فــالأمـر لا يخــفي علـي الاثنين
للمــرء مــرآة تــريـه وجـهـه ويــرى قـفـاه بجـمــع مرآتـين

وقال آخر :

شـــارو ســـواك إذا نـابتك نـائبـــة   يومـا ولو كنت من أهل المشـورات
فـــالعين تنظر منهـــا مـــا دنا ونأي   ولا تـــري نـفـســـهـــا إلا بمـــرآة

وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم فقال: نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم، وأما اتخاذ المنصب ذريعة للمضرة فمن أكبر المعايب وأخس الأفعال فـعلى رب المنصب أن ينسى صفته الخاصـة وهو فى منصبه ولا ينظر إلا فى صفته العامة التى تحظر عليه الانتقـام إما لغاية داخلية أو لإشارة خارجية فإن ذلك من الدنايا التى يتـرفع المنصب عن النزوع إليهـا ومن سوء الطبع اندفـاع القوى إلى الإضـرار بالضعـيف وإن لم يحل دون ذلك حـائل فكيف به وقـد قـام حاجـز حصين هو منصة تحمل دعـامتها نجاد حسام العدل والحق ولذلك امـتاز كبار الرجال بتنكبهم عن هذه الخلة وشرفوا مناصبـهم برعاية ما ظهر لهم صوابه ولو بدا من عدوّ ألد فـضلا عن صـديق أودّ، ثم الإغـضـاء عمـا لم يأت على مـرادهم أو لم يلائم سياسـتهم، بل ما هى الحكمة الوطنيـة من وراء نثر النظيم وتشتيت الجـميع إذا كان رب المنصب يثـير ثائرة الحـقد من هذا على ذاك ويفـرق كلمة الرعـية المؤتمرة بـأمره ويولد الضغائن والأحقاد فى القلوب بإنشاء الأحزاب المتباينة وتعضيد البعض للتغلب على الآخر إمـا لانتقـام خاص عن كـره لذاك وإما لغـاية أخرى مثل أن يـتوهم أنه بتفريق كلمتهـم تسود كلمته فيأمن فى سربه وينال مرامه ويجـاوب جشع طمعه بينا تقضى الحكمة بجمع الشتيت ونظم النثير وإزالة الأحقاد وتأليف القلوب ونبذ التنافر ومثل ذلك يقال فى تحميلهم ماليسوا مكلفـين باحتماله بأن يكرههم وهوغير مصيب أو مسوق إليه بموجب قـانون على قبول ما يكرهون وهم مصيبـون وغير مكلفين به بقانون ولله در من قـال من تداخل فيـما لا يعنيه سـمع ما لا يرضـيه وأن ليس فى القانون محاباة وجوه ومراعاة خاطر على حد قول الشاعر:

ولـم أنس المليحـة حين راحـت   إلى قاضـى المحبـة تشتكينـى
فقلت لها ارحمى ضعفى فقالت   وهل فى العشق يا أمى ارحمينى

وكيـف يليق به وهو يرى نفسـه أهلا لمنصـبه أو أسـمى منه أن يكلف من يأتمر بأمره إما عن رجاء أو عن تهديد بتـحمل ما يكره وهو غير مكلف به وهل ذلك من قبـيل الحكمة الوطنيـة والطبع الشريـف والمنزع السامى ومن هذا القـبيل أيضـا عدم استـقلال الإدارة فى شـئون الإدارة وهكذا – إلى أن قـال: وليس من الحكمـة أيضا

رفض رب المنصب كل مـا يطلب إليـه ثم قبـوله لكل ما رفض لأن الرفض إمـا أن يكون عن أنفة واستكبار إجابة لخلق غريزى يرتاح إلى مجرد النهى والأمر دون النظر فى صوابية المطلوب وإما عن اقتناع مسـبوق بتروّ وإمعان بأن المطلوب لا يناسب فإذا كان الأول ولا مناص من القبـول فالأولى عدم الرفض لأن مرارة العـود إلي القبول تربو على حلاوة الاستـبداد بالرفض وإذا كان الثانى فـالثبات على الرفض أولى ولا عبرة للمصانـعة إذا كان هناك سبيل للتخلص منها والتنصل من تبعـتها ويقاس على ذلك تفضيل الحلاوة المجردة على المركبـة التى كدرتها المرارة فإن فى منابذتها حلاوة لا تعقبها مرارة وهى وسيلة للتجرد عن مضرة تكتنفها معرة.

ثم بماذا تقوم مهمة الحكمة الوطنية أبالنزوع إلى إنفاذ العمل دون رعاية الظروف أم بالضغط الشديد المتولد عنه ضغط متسلسل؟ ليست هذه المهمة تقوم بمثل ذلك لأن الإسراع فى إنفاذ العـمل دون رعاية الظروف يدعو فى كثيـر من الأحايين إلى تجاوز الحقيقة والتخطى إلى الاعتساف فلكل مقام مـقال والأشياء مرهونة بأوقاتها وكثيرا ما أفسد العـمل التسرع فى إنفاذه ولذلك قـالوا فى العجلة الندامة وفى التـأنى السلامة وإما الضغط المنوّه عنه فـأقل ما فيه أن يدفع العمال بالتـسلسل إلى الإخلال بالقانون والعبث بأحكامـه وما أحسن ما جـاء عن معاوية فى هذا الشأن حـيث قال: إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت فقيل له وكـيف ذلك قال كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مـددتها - ثم بماذا تقـوم المسئوليـة وراء ذلك أبالاسراع فى العـمل حسنا أو قبيحا أم بمجرد نيته دون إنفاذه أم برفعها عن كاهله وإلقائها على كاهل غيره؟ كلا لا تقوم المسـئولية بشىء من ذلك ولكنهـا وتقوم بأن يعلم رب المنصب أنه مسئـول أمام منصبه أوّلا من ربه وثانيا من ضـميره وثالثا من شرفه ورابعاً من أميـره وخامسًا من وطنه وسادسًا من خاصته وبأن يعلم عظم هذه المسئولية وأهميتها وما يترتب عليها له ولوطنه من مضرة ونفع وخير وشر - وأن علـيه تلقاء ذلك مواجب ذات شأن تقضى عليه بمغادرة الوسن وملازمـة السهر ومزاولة العمل ومراقبة الحـوادث وانتهاز الفرص ومنابذة الأغراض والتـرفع عن الدنايا والتجلد على مضـض الشغل واحتمـال أثقاله بالصـبر والتؤدة والرفق بمـن يأتمرون بأمره وزرع بذور الاتحـاد والألفة والمحبـة بينهم واستئصال جراثيم الشقاق والخـلاف والضغائن والأحقاد بحيث يكون لهم بمثابة أب وأخ وابن فيبر أباه ويحفظ ويرحم ابنه تلك هـى مسئولية المنصب بل تلك هى بعض المواجب التى عليه ولا سـبيل لتنصله من تبعـتها إذا لم يقم بهـا فإذا قرن استـقلال

إرادته بحسن إدارته أتاحت له الأيام إدراك غايته ونيل بغيته فلزم الوظيفة يشرفها وتشرفه واستمال إليه قلوب من سلم زمام أمرهم فأخلصوا له فى السر والنجوى ووثقوا منه بعدم تغيره فى سلوكه لوثوقهم بأن نفسه أسمى من منصبه على نحو ما قاله أرسطو وقد سئل عما دفع زيدا إلى التغير بعد الولاية فقال: من ولى منصبا وكانت نفسه أكبر منه لم يتغير له ولكن إذا كانت نفسه أصغر منه تغير له. فالمنصب إذا مقام خطير محفوف بالمصاعب فمن الخطأ أن تراه العامة بالنظر المجرد فتحكم بأن صاحبه آمر مطاع لا يهمه إلا إصدار الأمر ونيل الراتب بل يجب أن لا يفوتهم العلم بحقائقه من أن صاحبه أليف الأرق حليف الفكر رفيق الهموم حديد اللحاظ شديد التأثر مديد التصور هدف لسهام اللوم عرضة لملاحظات العموم مسئول عن كل ما يفعل عدوّ لنصف من يرعاهم ولو عدل بعيد السخط قريب الرضا ومن كانت هذه مواجبه وكلها مرارة فهل يحلو له ذكر المنصب فهو على حد المثل القائل «درهم من عسل على قنطار من خل» وحسبه هما اضطراره إلى الاحتفاظ على الأحكام السياسية ليتذرع بها إلى نيل غاية صعبة المنال ألا وهى استمتاعه بهيبة الخاصة مع صدق مودته وانقياد قلوب العامة بالإنصاف إليها وقد قل بل ندر من حنكته تجربته ومكنته حكمته من الوصول إلى هذا المطلب ولذلك قلنا إن صهوات المناصب لفوارس التجارب أ. هـ.

فكان كل ما فى هذه المقالة من المغامز الظاهرة والمطاعن الخفية قليلا من كثير مما بدا من الرئيس مصطفى رياض باشا لدى توليه المنصب فى هذه المرة وتناقل الناس مقالة صاحب الأهرام هذه فى الأندية والمجتمعات فكانت سمر ليلهم وحديث نهارهم حتى ظن بعضهم أنه موعز إليه بها من ديوان الخديوى الخاص إرهابا للرئيس وتحذيرا والأمر على غير ما يظنون فإنه لما اختلط على الرئيس الحال وفسد التدبير وساء المال ونال السير بارنج من دواوين الحكومة كل منال اجتمعت كلمة أصحاب صحف الأخبار المحلية على نشر هذه الشوائن على رؤوس الملأ والتعريض بها كل قليل من الأيام عسى أن يقلع الرئيس عن هواه ولا يعطى نفسه مشتهاها فترجع عن بغضه القلوب وتنكف عن تقريعه الألسنة وتقف مطامع جماعة الإنجليز عند حدّ ولذلك لم يهبّ أحد من المحازبين للرئيس إلى الرد على مقالة صاحب الأهرام وأقوال غيره ممن حذا حذوه بل أقبلوا على قولهم وأنزلوه من سمعهم وقلبهم وامتدحوه قالوا فقد بلغت الروح الحلقوم والسكين العظم.

(مطلب)

وقوف عثمان دقنه بسواكن على قدم الكر والفر

وكانت أخبار التخوم إلى هذا اليوم لم تخل من المغامز الدالة على عدم خلود العدوّ إلى السكينة ووقوفه على قدم الكرّ والفرّ ولا سيما عثمان دقنه ومن معه من عصاة شرقى السودان فقد عظم شرهم وكبر أمرهم وكثر هجومهم على القلاع والحصون تارة ورميها بالقنابل أخرى حتى ضاق خناق المرابطين وأعيتهم الحيل وأرسل مقدمهم يطلب المدد فجاءه سردار الجيوش المصرية ومعه جماعة من مقدمى عسكر الإنجليز وأقاموا بسواكن أياما يتروون فى أمر الخلاص من شر ذلك العدوّ وعلم دقنه بمقدم السردار فزاد فى الكرّ والفرّ بمن معه من أولئك الأبالسة السود واشتد فى رمى القنابل على الحصون والمتاريس فى الليل والنهار ففعلت مقذوفاته بالمرابطين فعلاً رديئا جدا واتصلت بسفن الحرب الإنجليزية الراسية أمام البلد فخاف السردار العاقبة وقد آنس من المرابطين مللا ونفورا إذ أعياهم القيام على قدم الدفاع ليلا ونهارا فأرسل إلى صاحب السياسة الإنجليزية يخبره بواقعة الحال ويسأله سرعة إرسال المدد على كل حال فكان يطاول ويحاول ويرسل كتبه إلى الباب العالى بأن تحتل طائفة من العساكر الشاهانية سواكن وتتولى أمر الدفاع عنها ـ قيل وكانت تلك الكتب على ما فيها من التطويل معقدة مفعمة بالألغاز والمعميات ليتعذر على السلطان ورجال دولته البت بإرسال عساكره إلى سواكن ولبث الحال على ذلك أياما فلما آنس من السلطان ميلا وعزما على إرسال حملة من عساكره إلى سواكن بعد ذلك التردد والإحجام خاف العاقبة ورسم على الفور إلى قائد عسكرهم بمصر بإرسال النجدة العاجلة من عسكرهم إلى سواكن فصدع بالأمر وحملت ذلك العسكر سفنهم وشوانيهم وأنزلتهم فى سواكن ففرح المرابطون بمقدمهم وأخذوا من يومهم فى ترميم الحصون والمتاريس وضاعفوا القلاع ورتبوا مدافعها وأصلحوا الخنادق وجعلوا يتأهبون لقتال العدوّ فلما شاع خبر وصول هذه النجدة وتناقله أصحاب صحف أخبار الإنجليز قامت الأحزاب فى عاصمتهم واشتد حزب الأحرار منهم على زعيم سياستهم وعلت ضوضاؤهم فى دار ندوتهم وظهرت جلبتهم فى سائر محافلهم ونادوا واويلاه ما لكم تعرّضون بأرواح رجالنا وتبددون أموالنا لمصلحة غيرنا وظل حالهم على ذلك أياما حتى كاد المطلع على صحف أخبارهم لا يشك فى أن الرجل على شفا جرف السقوط من منصة الزعامة وأن أصحابه مخذولون وما

ذلك إلا ضرب من التغـرير كأن يقولوا إذا قامت الدول فى وجه صاحـبهم ومانعت فى حلول عسكرهم سواكن إنا ما احتللناها بعسكرنا وسفن حربنا إلا مكرهين وهذا الباب العالى قد استصرخنـا رجاله وسألناهم نجدة المرابطين فلم ينجدوهم ولا أعاروا نداءنا المتتابع فلا لوم علينا بعد هذا كله ولا تثريب ولا نحن مؤاخذون بما فعلنا .

وعلم عثـمان دقنه بمقدم العـساكر الإنجليزية مـددا للمرابطين بحصـون سواكن وماهم عليه من الحركة فجدّ حينئذ فى قتالهم وألح وتابع الرمى بالقنابل على القلاع والحصون أياما فهاجموه فلم ينالوا منه مـأربا فأحلوا فى قتاله بين كرّ وفرّ أياما أيضا ثم عادوا إلى الحصون وجعلوا يدافعون من وراء المتاريس أياما أخرى ووردت الأخبار إلى ديوان الخديوى بما هم عـليه من التعب المتـواصل بسبب مناوشـة العدوّ لهم فى الليل والنهار وعـجزهم عن كفـه عن تخطف كل من بعد عن البلد ولو قليلا وكـبر على السلطان ورجال دولته خبر وصول المقـاتلين من الإنجليز إلى سواكن فعادوا إلى مخابرة صاحب السياسة الإنجليزية فى تقرير القاعدة التى على مقتضاها يرسل الباب العالى إلى سواكن طائفة من العساكر الشاهانية لتبقى مع المرابطين وأكثروا من الأخذ والرد فى ذلك أياما فلم يفلحوا ولم يساعدهم أحـد من رجال سياسة الدول الكبرى على نوال هذا الأرب فتكـلم حينئذ أصـحاب صحف دار السلطنة بـكلام فى معنى سيادة السلطان على تلك السواحل وفى معنى كـيان السلطنة العثمانية وفى شىء من ماهية الخـلافة الإسلاميـة وفيما يعتـورها من الضعف إذا زالت هيبتـها وتقلص ظل نفوذها من سواحل البـحر الأحمر وأطالوا فى ذلك القول وبالغـوا فى التوجع حتى كتب أحدهم صورة المعاهدة الدولية التى كان تم التوقيع عليها من كبار سياسة الدول صاحبات الشـأن فى حياد بوغاز السويس شاهـدا على ما للسلطان من المقام الراجح بينهن ولم يكن أحد يعلم بها إلى يومنا هذا وهى:

أولا ـ يبقى بوغـاز السويس حرا مطلقـا فى زمن الحرب والسلم لجمـيع السفن الحربية بغير تمييز بينها وعليه فالدول العظمى الموقعة على هذا الوفاق قد وافقت على أن لا يعبـثن بحرية هذه الترعـة سواء فى زمن الحرب أو السلم وعلى أن لا تحـاصر شطوطها على الإطلاق .

ثانيا ـ أن الدول الموقعات باعترافهن بأنه لا يمكن أن تكون الترعة الحلوة منفصلة عن الترعة الملحة قـد أخذن على أنفسهن القيام بالمعاهدات المبرمـة بين خديوى مصر وشركـة بوغاز السويس العمـومية فيـما يتعلق بالتـرعة الحلوة كما هو مـذكور فى

الوفاق المبرم فى ثامن عشر مارس سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية الذى يشتمل على مقدمة وأربعة بنود ثم تعهدن بأن يحسن حالة هذه الترعة وما يتبعها ولا يقمن فيها ما يمنع حريتها.

ثالثا ـ قد تعهدت الدول باحترام المواد والأبنية والأعمال الموجودة فى الترعتين المذكورتين وعدم مسها بشىء ما .

رابعا ـ تبقى الترعة الملحة مفتوحة فى زمن الحرب بحيث تمر فيها المدرعات الحربية بدون ممانع كما جاء فى الوجه الأوّل من هذا الوفاق ـ وبناء على ذلك قد اتفقت الدول الموقعات على أن لا يباح عمل عدائى يكون من شأنه منع حرية الملاحة فى الترعة والموانى الموصلة إليها أو على بعد ثلاثة أميال بحرية من تلك الموانى ومن جملة هذه الموقعات الدولة العثمانية ولو كانت من المحاربات ثم إن المدرعات الحربية لا يجوز لها أن تأخذ إلا ما يكون ضروريا لها من المؤن والذخيرة فى الترعة والموانى الموصلة إليها وأن يكون مسيرها منها فى أقرب ما يمكن من الزمن على حسب الشروط النافذة ولا تقف إلا عندما تقضى الضرورة بذلك وفى هذه الظروف أيضا تكون مجبورة على السفر بأسرع ما يمكن ويجب أن يكون الوقت بين خروج سفينة وخروج أخرى من سفن دولة معادية لها من إحدى الموانى الموصلة للترعة أربعا وعشرين ساعة على الأقل .

خامسا ـ أن الدول المتحاربات لا يمكنهن فى زمن الحرب أن ينزلن فى البوغاز والموانى الموصلة إليه جنودا أو ذخائر أو موادّ حربية ولا أن يأخذنها منها ولكن إذا حدث بها مانع فى الترعة كان لها عند ذلك أن تنزل إلى تلك الموانى أو تأخذها منها فرقا من الجنود لا تبلغ الواحدة منها ألف رجل بما يلزم من المؤن.

سادسا ـ إن ما اشترط على المدرعات فى مسيرها يشترط فى مناوشاتها إذا حصلت فى الترعة .

سابعا ـ لا يجوز لأية دولة أن تبقى لنفسها فى مياه الترعة أو فى بحيرة التمساح والبحيرات المرة مدرعة حربية على أنه يجوز لها أن تقيم فى الموانى الموصلة إلى مدينة بورسعيد والسويس مدرعات لا يتجاوز عددها اثنتين لكل دولة إلا أن هذا الشرط لا يباح للدول المحاربات .

ثامنا ـ أن وكلاء الدول القائمين فى مصر من قبل الدول الموقعات على هذا الوفاق منوط بهم مراقبة تنفيذه بحيث إنهم عندما يحدث ما يهدد سلام الترعة

وحرية الملاحة فيها يجتمعون بناء على طلب ثلاثة منهم برئاسة أقدمهم فى الوكالة للبحث فيما يجب إجراؤه ثم يخبرون الحكومة الخديوية بما يكونون قد عملوه من المحاضر لتأخذ الوسائط الفعالة لضمانة ووقاية الترعة وحرية المرور فيها وعلى كل حال فإنهم يجتمعون مرة فى كل سنة ليروا ما إذا كانت المعاهدة معمولا بشروطها أو لا وهذه الاجتماعات يصح أن تكون برئاسة مرخص مخصوص تعينه الدول العثمانية الشاهانية ويصح أن ينوب عن هذا المندوب آخر من رجل الحكومة المصرية عند غيابه ويصح له أن يحضر الجلسات إذا كان حاضرا ويكون لهؤلاء الوكلاء الحق فى أن يطلبوا على الخصوص منع كل اجتماع على أى مكان من شطوط الترعة يكون من ورائه مس حرية المرور بالترعة .

تاسعا ـ تتخذ الحكومة المصرية بما لها من السلطة الممنوحة لها بالفرمانات السلطانية وبموجب الشروط المذكورة فى هذه المعاهدة كل ما يلزم من الوسائل توصلا إلى إنفاذ المعاهدة واحترامها ولكن إذا لم تكن هذه الوسائط كافية لذلك فعليها أن تطلب من الباب العالى الشاهانى القيام بتلك الوسائط من عنده وإعلانها إلى الدول الموقعات على التصريح الذى أبرم فى لندن فى سابع عشر مارس سنة خمس وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية والاشتراك معهن عند الحاجة فى المحذورات الواضحة فى المواد أربعة وخمسة وسبعة وثمانية فلا تكون عائقا فى تنفيذ الوسائل اللازمة بمقتضى هذا الوجه.

عاشراً ـ وأيضا فإن المحذورات الواردة فى المواد المذكورة لا تحول دون الوسائل التى تضطر الحضرة السلطانية الشاهانية أو الخديوى بالنيابة عنها بموجب الفرمانات الممنوحة له إلى اتخاذها لكى يكفلا بقوّتهما الخاصة حماية مصر وتأييد النظام العام فيها ولكن إذا اضطرت الحضرة السلطانية أو الخديوى أن يستزيدا الاستثناءات الواردة فى هذا الوجه كان على حكومة السلطان أن تعلن الدول الموقعات على تصريح لوندره بذلك ثم إن ما ورد بالأوجه الأربعة السابقة بشأن هذه الاستثناءات لا يمنع الوسائل التى ترى حكومة جلالة السلطان ضرورة اتخاذها بواسطة قواتها الخاصة ضمانة لحفظ سائر أملاكها على الساحل الشرقى من البحر الأحمر.

حادى عشر ـ إن الوسائل التى تؤخذ مراعاة للأحوال الواردة فى الوجهين التاسع والعاشر من هذا الاتفاق لا يجب أن تكون عثرة فى سبيل استعمال الترعة وحريتها وفى هذه الأحوال يكون من الممنوع إقامة حصون مستمرة تخالف منطوق الوجه الثانى.

ثانى عشر ـ تتعهد الدول الموقعات على هذه المعاهدة بناء على مبدأ المساواة فيما يتعلق بحرية استعمال الترعة وهو المبدأ الأساسى لهذه المعاهدة أن لا يسعين بالتوسع فى الأرض والتجارة بالنسبة للترعة ولا بالحصول على امتيازات دولية تتعلق بهذا الشأن أيضا ماعدا الدولة العثمانية لما لها من الحق فى ذلك لكونها صاحبة البلاد.

ثالث عشر ـ عدا المواثيق الواردة بإيضاح فى بنود هذا الاتفاق فإنه لا يجوز مس حقوق الخديوى الممنوحة له بالفرمانات ولا التعرض إلى ما أغفل منه من الواجبات.

رابع عشر ـ اتفقت الدول الموقعات على هذا على أن المواثيق الناشئة عن هذه المعاهدة لا تنتهى بانتهاء مدة الامتياز الممنوح لشركة بوغاز السويس .

خامس عشر ـ لا تحول شروط هذا الاتفاق دون التحوطات الصحية المتخذة فى الديار المصرية .

سادس عشر ـ تتعهد الدول المتعاقدات بأنهن يبلغن هذا الوفاق إلى الدول التى لم توقع عليه ويطلبن منها التسليم به وهذه المعاهدة يصدق عليها ويتبادل التصديق بشأنها فى الأستانة فى مدة شهر أو أقل إن أمكن .

وبناء على ذلك فالمرخصون قد وقعوا على هذه المعاهدة ووقعوا أختام وظائفهم عليها. انتهى بنصه .

ونقل أصحاب صحف الأخبار العربية نص هذه المعاهدة وقالوا إذا كانت كل هذه الحقوق للسلطان وليس لدولة من سائر الدول أن تنازعه فيها فليس إذا من النصفة فى شىء أن تستضعف الإنجليز جسم السلطنة العثمانية إلى هذا الحد فتسلبها حقها وتبخسها أشياءها ولا من الكياسة فى شىء أن تطيل يدها إلى هذا الحد من التطاول على غير مسوّغ فرد عليهم أصحاب صحف الإنجليز وأغلظوا فى الرد وبالغوا فى التهديد وعادوا إلى استنهاض همم صاحب سياستهم وحضه على ترك المجاملة والأخذ بأطراف الحزامة والضرب على يد كل مكابر حتى يرجع صاغرا.

(مطلب)

موت رجل من الهنود وإحراق جثته

واتفق أن مات فى هذه الأيام رجل من الهنود التابعين للسلطنة الإنجليزية وهو من كبار تجارهم بمصر فعزم قومه على إحراق جثته حسب عاداتهم الدينية فطلبوا من قنصلهم التسريح بذلك فسرح لهم وأعلم صاحب الشرطة بخبرهم فاحتمل القوم

جثة فقيدهم إلى فضاء العباسية عند سفح الجبل الأحمر وطرحوها على الأرض ودهنوها بالزبدة ثم لفوها بلفائف من نسيج الكتان ووضعوا قطعة من الخشب فوق الرأس وأخرى فوف القدمين وأحاطوا بالجثة حطبا مرصوصًا بعضه فوق بعض وأضرموا فيه النار إلى أن احترقت وصارت رمادا فرآهم وهم على هذا الحال نفر من أصحاب مقالع الحجر بالجبل الأحمر وسمعوا دمدمتهم بشيء من الأدعية الدينية فهلعت قلوبهم من شدة الخوف وصاحوا وولوا مسرعين إلى البلد يستفزون أصحاب الشرطة ويستصرخون العامة من سكان الحسينية والمذبح وعلت أصواتهم بيا لطيف نصر الله دين الإسلام أهلك الله دين الكفار فتبعتهم النساء والأولاد وهم فى صياح وجلبة ولحقهم أصحاب الشرطة ففرقوا جمعهم وأقاموا جماعة منهم يحرسون القوم حتى جمعوا رماد جثة فقيدهم فى ركوة وساروا بها على غير الطريق السلطانى خوفا من بطش العامة وزعر الحسينية بهم وانتشر فى تلك الليلة خبر هذا الحادث فى سائر أطراف القاهرة ومصر القديمة وتحدث العامة به فقال ضعفاء العقول منهم إن هذا الحادث قطرة من بحر مما سيحل بالمسلمين بعد أن جاء ولى عهد السلطنة الإنجليزية وأنهم سيرون يوما قبور آبائهم منبوشة وعظامهم محرقة بزيت البترول وجثث موتاهم تلقى على قمم الجبال وغير ذلك من الأرجاف حتى كادوا يفتتنون.

(مطلب)

ما ترتب على كثرة اللصوص من إلحاح السير بارنج بتعيين مستشار لنظارة الحقانية

وكثرت فى هذه الأيام اللصوصية وعم فساد أهل الشقاوة وكبر عبثهم فى القرى والبلاد وعظمت قحتهم فكانوا يتخطفون فى الليل والنهار ويكبسون الدور بلا حياء ولاخوف فجد أصحاب الشرطة فى طلبهم واهتم الرئيس لذلك جدا تحاشيا من ضوضاء جماعة الإنجليز وأصحاب صحف أخبارهم فلم يتمكن من إرجاع الأمور إلى مجراها وبقى الحال على ذلك أياما كثر فيها تردد السير بارنج على ديوان الخديوى تارة وديوان الرئيس أخرى يشكو مما هو صائر من الخلل وعدم الأمن على الأرواح والأموال بسبب فساد رأى المديرين والمحافظين وعجزهم عن إرجاع الأمن إلى البلاد ثم أشار على الخديوى بطلب تسليم وكالات المديريات والمحافظات إلى جماعة من الإنجليز وهو يقول لا خلاص للبلاد من هذه الفوضى المستحكمة إلا

بتسليم زمام سائر إدارة الحكومة إلى جماعة الإنجليز قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكلم الرئيس فيما هو صائر وأغلظ عليه فى القول وألقى عليه تبعة ذلك كله فتشكى الرئيس من أعمال المكلفين بضبط الجنايات من رجال النيابات ورماهم بالجهل وقال: إنهم أغرار غير أكفاء لمهمة ضبط الوقائع وتحقيق الجرائم ووسم قضاة المحاكم بوهن العزيمة والخلط بين اللين والشدة وطلب جعل النيابات تابعة لنظارة الداخلية وتحت سلطة رجال الإدارة فلما شاع هذا الكلام نقله أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية وجعلوا يقرّعون الرئيس ويرمونه بالعجز وعدم القدرة على تدبير الأمور فى هذه الأيام وأكثروا من عبارات الهزء والسخرية. قالوا وقد آن الوقت الذى يجب فيه على صاحب سياستهم أن يسلم زمام الدواوين الكبرى إلى من يحسن تدبيرها من الإنجليز لكى يحولوا دون كل مطمع وهوى وما كادت تهدأ ضوضاؤهم هذه حتى تقدم السير بارنج إلى الخديوى فى التعجيل بإعطاء منصب استشارة الحقانية والإشراف على سائر النيابات والمحاكم الأهلية والشرعية إلى رجل من الإنجليز قد اصطفوه لذلك اسمه أسكوت، وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياما حتى رسم الخديوى إلى الرئيس بالعمل، قيل فامتنع لما فى ذلك من الحيف والصغار لا سيما وأنها كبيرة من الكبائر التى لم يكن ليقوى السير بارنج على إتيانها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا فجعل يطاول ويحاول والخديوى فى قلق من تردد السير بارنج على ديوانه فلما آنس الرئيس من الخديوى ميلا إلى طلب السير بارنج زين كما قيل يومئذ إلى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية الوقوف فى وجه السير بارنج والعمل على إيقافة عند حده فقام حسين فخرى باشا قومة الحازم غير هياب ولاوجل ورفع إلى الخديوى صحيفة كلها تفنيد لمزاعم السير بارنج وتحذير من سوء عاقبة هذا الأمر، حدثنى صاحب لى من المقربين من مجلس الرئيس قال: كان الرئيس إذا رأى فى هذه الأيام من حسين فخرى باشا مللا أو إغفالاً لمقاومة مطالب السير بارنج حرضه وشجعه وأكبر قدره أو أنبه وقرّعه وصغر نفسه وأحرج صدره فيهب إلى المشاغبة ويتجرد إلى الدفاع ويملأ فضاء ديوانه بكلمات الوعيد وعبارات التهديد على أنا نعلم والناس كلهم يعلمون أن صيحته هذه إنما هى كصرخة فى واد أو نفخة فى رماد وأن لا راد للسير عن هواه ولا دافع لقدر الله وقضاه وكانت كتب زعيم سياسة الإنجليز مترادفة على ديوان الخديوى بالتعجيل وترك الإبطاء والخديوى فى أخذ ورد مع الرئيس والرئيس يفسح لحسين فخرى باشا الأمل ويشجعه على الأخذ بأطراف العمل

لعله ينال من ذلك الداهية مأربا فقال الناس يومئذ: إن أحد الرجلين مخلوع لا محالة وإن فوز زعيم سياسة الإنجليز فى هذه المرة سيكون مفتاحا لمغالق ما استعصى على جماعة الإنجليز ولوجه من دواوين الحكومة إلى الآن فلما كان خامس عشرى فبراير من السنة أى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية وسادس رجب الفرد سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية رسم الخديوى بتولية أسكوت هذا منصب الاستشارة القضائية والإشراف على سائر المحاكم فتولاها وكان من أمره بعد ذلك ما هو مشهور ومعروف أ. هـ.

وحدثنى أيضا من لا أشك فى صدق حديثه قال: قد كان من دهاء صاحب سياسة الإنجليز فى أمر تسليم زمام الاستشارة القضائية إلى أحد رجال الإنجليز أنه كان يرسل إلى الخديوى الرسائل تلو الرسائل وكلها تتضمن الشكوى والإشفاق مما هو حاصل من ذهاب الأمن من البلاد وكثرة اللصوصية ويستميله إلى تمحيص الأسباب الناجم عنها هذه الفوضى المستحكمة حلقاتها ويشير بمنع تطاول يد الرئيس مصطفى رياض باشا إلى العبث بوظائف رؤساء النيابات ومأمورى تحقيق الجنايات ومازال بالخديوى حتى هان عليه تولية أسكوت المنصب حولا فإن أفلح وتم لأهل البلاد على يديه فى ذلك الحول ما يرجونه من تأمين الطرق واستتباب الراحة فإلى ما شاء الله أو إلى أن تصير المحاكم فى غنى عنه وإلا عادت الأمور إلى ما كانت عليه ثم تعين أسكوت فلم تمض عليه أيام حتى طاف سائر المحاكم بالإقليم البحرى وسبر غور ما فيها وجعل يمحو ويثبت ما يشاء من موادّ القانون المدنية والجنائية ويعدل فى نظام وهيئة القضاء والقضاة ورؤساء أقلام النيابات ويدوّن كل ما يعنّ له من أوجه الإصلاح ووسائل الفلاح ثم سار إلى الإقليم القبلى وسار معه حسين فخرى باشا فكان إذا نزل فى بلد استدعى إليه عمدتها ومشايخها وحادثهم فيما عليه المحاكم بالإقليم البحرى وبشرهم بقرب انفراج الأزمة وزوال تلك الشدة ومناهم بمستقبل كله خير واطمئنان ثم عاد إلى القاهرة وشاع الخبر بأنه على عزم أن يرفع إلى الخديوى والرئيس تقريرا بما رآه من أوجه الإصلاح فتحدث الناس فى ذلك وفيما عساه أن يكون من الرئيس إذا أحرج السير بارنج موقفه وأكرهه على قبول مطالب أسكوت وأحس الرئيس بوشك وقوعه فى هذا الشرك فعمد إلى الخلاص منه وأوعز إلى حسين فخرى باشا بأن يستعد لتقديم تقرير إلى الخديوى بما يراه فى مطالب أسكوت وفيما يلائم وما لا يلائم منها مصلحة البلاد فلم تكن إلا أيام حتى رفع أسكوت تقريره وفعل كذلك حسين فخرى باشا وكل يدعى لنفسه العصمة والبعد

عن الخطل، ورأى الرئيس أن لا ينجـز لأسكوت غـرضا ولا أن ينـيله مأربا فـرسم بتشكيل لجنة من المسيو بيـترى مستشار قضايا نظارة الحقـانية وإبراهيم فؤاد بك وكيل محكمـة الاستـئناف الأهلية وإبراهيم نجـيب بك رئيس المحكمة الابتـدائية والمسـيو لوجريل النائب العمومى واثنين من مستشارى الاستئناف الأجانب لينظروا فيما يشير به أسكوت من أوجه الإصلاح وفيما يعارضه به فخرى باشا فوافق على ذلك مجلس النظار وقرر العمل به، وسافر الخديوى إلى الأقاليم القبلية فى قلة من الخدم والحشم والأتباع ترويحا للنفس أو كما شاع فرارا من عناء الأخذ والرد فى هذا الحادث الذى كثرت أذنابه واشتبك بعضها ببعض وأحس أسكوت بالذى ترمى إليه أغراض الرئيس فلم يرض عن تشكيل تلك اللجنة وعـدّ تشكيلها ميلا عن الجـادة وضررا بالإصلاح وقال: لا يصح تشكيلها على هذه الصورة قـبل أن يصادق مجلس النظار على المبدأ الذى قد بنى عليه تقريره ولاسـيما تصديقه على وجود المراقبة والتـفتيش على سائر المحاكم وجعل سلطة التفتيش بيد جماعة من الإنجليز أو من المصريين إن وجد بينهم من يصلح لذلك واشتـد الأخذ والردّ بين الرئيس والسـير بارنج شدة بالغـة كان من ورائها استبدال المسيو بيترى مستشار قـضايا نظارة الحقانية بالمسيو مور يوندو مستشار قضـايا الداخلية وجعل رئاسـة اللجنة لحسين فخـرى باشا فكبرت عند ذلك حـجة أسكوت وأنكر على اللجنة فعلهـا وقال إن حكمها فى ذلك سيـكون من قبيل حكم المرء لنفســه وامتنع المستر بـوند الإنجليزى أحد الاثنين المستـشارين المعينين بعـضوية اللجنة من الحضور فى جلسـتها وقال لا تصح رئاسة حسين فـخرى لها وهو خصم أسكوت المعارض له فى مبدئه وكذلك لا تصح عـضوية بعض الأعضاء لأنهم أصغر درجة من صاحبى الخصومة فلم يلتـفت أعضاء اللجنة إلى شىء من ذلك واجتمعوا بغيـر حضور بوند وبحثـوا فى قولى الخصمـين أياما ثم اتفقت كلمـتهم على رفض سائر مطالب أسكوت إلا ما كان منها مختصا بتعيين مستشارين من الأجانب بمحكمة الاسـتئناف العليـا بشرط أن يكونوا مـن القضـاة الأجانب الشـاغلين الآن لوظائف القضاء بالمحاكم الابتدائية لا أن يكونوا من جـماعة الإنجليز كما أشار أسكوت، ولما علم السير بارنج بما قـررته اللجنة أكبر الأمر وأعظمـه ورأى أن فوز الرئيس مصطفى رياض باشا فى هذه الطفرة يكون هادما لأمانى صاحب سـياسة الإنجليز وقاضيا على عظمة الاحتـلال فرفع فى الحال إلى الرئيس مذكرة يطلب فيـها البت قبل كل شىء بتثيـبت أسكوت فى منصب الاستشارة وعـزل حسين فخرى باشـا من مسند نظارة الحقانيـة وعدم المعارضة فى ذلك ويقول إن هذه المذكـرة واردة إليه على جناح البرق

من صاحب سياستهم وهو يلقى تبعة كل إبطاء فى تنفيذها على عاتق الرئيس، وكأن التعجيل بتثبيت أسكوت تعجيل أيضا بقبول سائر مطالبه على علاتها لأنه إذا تمت له ولاية المنصب أمنت مطالبه جميعها من العبث وحقت على الرئيس طاعته- فلما وقف الرئيس على ما فى تلك المذكرة عقد فى الحال جلسة مجلس النظار فلم يحضرها معه سوى على باشا مبارك وقيل حسين فخرى باشا أيضا وقرر عدم جواز تثبيت أسكوت فى المنصب ورفض عزل حسين فخرى باشا وكتب مذكرة بالتركية ورفعها مع قرار المجلس إلى الخديوى بالصعيد الأعلى ولبث الفريقان ينتظران الجواب وهما على أحرّ من نار الجمر.

فلما كان تاسع عشرى جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية وتاسع فبراير سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية عاد الخديوى من رحلته فبالغ أهل القاهرة ومصر فى عمل الزينة لمقدمه ثلاث ليال وأولم الرئيس مصطفى رياض باشا وليمة عظيمة لسائر الأمراء من البيت العلوى وكبار الحكومة وأصحاب الوظائف ولم تنقض ليالى الزينة حتى اجتمع النظار لدى الخديوى بسراى عابدين صبيحة الجمعة رابع رجب الفرد وثالث عشر فبراير وجعلوا يتباحثون فيما جاء فى مذكرة السير بارنج حتى الساعة الحادية عشرة فظهر الخبر وتحقق بأنه قر رأيهم أولا على إبقاء أسكوت فى المنصب مع قبول جميع الشروط المترتبة على الولاية وجميع فروعها وأذنابها بغير معارضة، وثانيا رفض عزل حسين فخرى باشا من منصبه بما أنه قد تقررت ولاية أسكوت فلم يوافق السير بارنج على ذلك وقال لابد من عزل حسين فخرى باشا لاستحالة حصول الوئام بينه وبين أسكوت وترددت الرسل بين الخديوى والسير بارنج بقية يوم الجمعة إلى ظهر السبت والناس فى تساؤل عما عساه أن يكون من الرئيس بعد ذلك التشديد وتلك الحدة وهل هو باق على عزمه من اعتزاله الرئاسة بعد أن وكلت الاستشارة إلى أسكوت وأصاب سهم السير بارنج من جسم الحكومة فى هذه المرة أيضا مقتلا وبعد أن باتت نظارة الأشغال بيد منكريف والحربية بيد الجنرال جرنفيل والخزينة بيد منلر وبالمر والداخلية بيد فنك والمعارف بيد صنائع السير بارنج فيها وقد ختم أيضا على قلب الوظائف الصغرى بخاتمٍ لا يقدر على فضه إلا الجبار العظيم فلم يبق إلا أن يقضى على البقية الباقية بأيدى أبناء البلاد الضعفاء من أوجه الارتزاق فيموتون جوعا وتحيا جماعة الإنجليز أو ثناه عنه عزة المنصب وأبهته الظاهرة فلم يكن إلا القليل حتى برح الخفاء وظهر للعيان أنه قد غير من عزمه وفضل البقاء فى منصبه فقالوا لعل فى ذلك حكمة .

واشتد أصحاب صحف الإنجليز على الرئيس وبعض النظار بقارص الكلام ورموهم بالعسف وحب الذات وقالوا إنهم جميعا زعماء للحزب الذى عاش أعواما تحت راية الاستبداد القديم فلا يليق بعظمة السلطنة الإنجليزية أن تفسح لهم فى الأجل ولا أن تتركهم يتضافرون على مثل هذا العمل فإما عيشة راضية وإما ضربة قاضية وإلا ساءت الحال واتسع المجال واستعصى على سلطانة البحار بلوغ الآمال. وهبَّ صاحب سياسة الفرنسيس من الخمول وأرسل إلى قنصلهم بمصر أن يحتج على تولية أسكوت منصب الاستشارة ويمانع فى تعيين لجنة المراقبة وأن يعلن أصحاب الحل والعقد بمصر أن دولة الفرنسيس لا تتساهل فى شىء من ذلك ألبتة فصدع القنصل بالأمر واجتمع بالرئيس مصطفى رياض باشا وتيكران باشا وأدّى الرسالة حقها، قيل ففرح الرئيس بذلك وأبلغ الخبر إلى السير بارنج وهذا رفعه إلى صاحب سياستهم ولبثوا ينتظرون الجواب وانقطع الرئيس فى داره يوما وبعض يوم ثم سافر إلى مزارعه بطود البحيرة وأقام بها أياما كثر فيها لغط أصحاب صحف الأخبار المحلية بشىء من مطاعن أصحاب الصحف الإنجليزية ثم جاء الخبر إلى ديوان الخديوى بنزوع صاحبى سياسة الإنجليز والفرنسيس إلى المناقشة فيما أفضى إلى تولية أسكوت منصب الاستشارة وأن المناقشة فى اشتداد وقد دخلت فى غمارها أيضا دولة الألمان والباب العالى.

واتفق أن مات فى رابع عشر رجب قاضى قضاة مصر الشيخ عبدالرحمن نافذ فخلا بموته منصب القضاء الشرعى فتساءل الناس عمن يخلفه وعما إذا كان ذلك الخلف يأتى من دار السلطنة بفرمان من الباب العالى على ما جرت به العادة من قبل أو أن الحكومة المصرية تولى من تشاء من قضاتها وظنوا أن وقوع هذا الحادث فى هذا الحين قد يمكن السلطان من التوسع فى الكلام مع الدول عن حالة القضاء بديار مصر وفى تطاول يد الاحتلال الإنجليزى إلى العبث به وفى تولية أسكوت منصب الاستشارة على غير مسوّغ فيتضافروا جميعا على ما فيه المصلحة وقد وقع ما كانوا يظنون فإنه ما بلغ الباب العالى خبر موت الشيخ القاضى حتى وردت كتبه على ديوان الخديوى والغازى مختار باشا بعزم السلطان على إلغاء ما جاء بفرمانه الشاهانى المؤرخ سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هجرية من بقاء الشيخ عبدالرحمن فى منصب القضاء بمصر وعدم استبداله كالعادة المتبعة بالباب العالى فى كل سنة إذ بموت الشيخ عاد إلى الباب العالى حقه فى تولية القضاء كل عام لمن هم مترشحون لذلك

من مشايخ الوقت فى دار السلطنة، فاهتم الخديوى بالأمر وكلم الغازى مختار باشا فى بقاء حق انتخاب القاضى الجديد للخديوية المصرية فأرسل الغازى إلى الباب العالى فى ذلك فجاء الجواب قائلا إنه قد جرت العادة من قديم أن للباب العالى وحده حق تعيين قاضى قضاة مصر من أصحاب الدراية والأهلية بالترتيب لكل قاض منهم سنة واحدة فإذا انقضت السنة يرسل الباب العالى صاحب الدور وهكذا، فلما كانت سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هجرية التمس الخديوى إسماعيل من لدن الذات الشاهانية بقاء الشيخ عبدالرحمن نافذ فى منصب القضاء بشرط أن تدفع خديوية مصر ثلاثة آلاف جنيه فى كل سنة لصاحب الدور من مشايخ الوقت فى دار السلطنة بدون أن يشغل الوظيفة فأجاز الباب العالى للشيخ عبد الرحمن البقاء فى مصر من سنة اثنتين وتسعين بمرتب قدره ألف وخمسمائة جنيه يتقاضاه من خزينة الخديوية المصرية فى كل سنة إلى أن يتوفاه الله ولما كان هذا الامتياز لم يختص به إلا الشيخ عبد الرحمن وحده فقد زال بموته وعاد إلى الباب العالى حقه فى إرسال صاحب الدور من علماء دار السلطنة إلى هذا المنصب، فمال الرئيس مصطفى رياض باشا إلى مقالة الباب العالى وأحلها محلها ولم يبخسه حقه وكأنه كان يتمنى لو أن السلطان ينال من هذه الفرصة مأربا فيوقف مطالب صاحب سياسة الإنجليز عند حد ويعمل على إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه ولكن هل يطلب أثرا بعد عين وقد جاء فى المثل «الصيف ضيعت اللبن» وقيل إن من التوقى ترك الإفراط فى التوقى لأن من حنكته التجارب قاد هامة الحوادث بذوائبها فدانت له ورجل الأنام من قدر على الاستيثاق من موادعة الأيام.

فلما كان ثالث عشرى رجب جاء الخبر من دار السلطنة العثمانية بأن قد صدر الفرمان السلطانى بتولية الشيخ عبدالله جمال الدين قضاء مصر وقد كان على قضاء الروملى ثم أعقب هذا الخبر ورود كتاب من الصدر الأعظم إلى الديوان الخديوى يقول فيه: إن جلالة مولانا المتبوع الأعظم أمير المؤمنين قد ساءته تولية أسكوت الإنجليزى منصب الاستشارة القضائية بالخديوية المصرية فى حين أن القضاء بديار مصر قد بلغ أقصى درجات الكمال وشاع الخبر بذلك فأرسل الخديوى إلى الباب العالى على جناح البرق رسالة يقول فيها بعد الاستعطاف والتلطف: إنه بإجازته تولية أسكوت هذا المنصب لم يأت أمرا جديدا فى ديار مصر بل هو فعل مثل ما فعله خلفاؤه من تولية بعض الأجانب فى المصالح والدواوين المهمة للاستفادة من

نشاطهم وعلمهم وأنه لا شيء بيد أسكوت من القوّة الإجرائية ولا هو مطلق الكلمة فى شيء وأن مشروعاته لا يعمل بها إلا بعد تمحيصها والتصديق عليها من مجلس النظار وصدور الأمر بتنفيذها ـ فلم يعجب الأحزاب هذا القول وظنوه خدعة وحيلة وقالوا إن الباب العالى سيطاول فى إرسال القاضى الجديد حتى يتم لصاحب سياسة الفرنسيس الاتفاق مع زعيم السياسة الإنجليزية على إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه فلم يصب ظنهم المرمى ووصل القاضى إلى الإسكندرية فى صبح الاثنين الحادى والعشرين من شعبان من السنة مع عائلته وبعض الخدم وبات ليلته تلك فى بيت مفتى الثغر فزاره العلماء والوجهاء وأصبح فركب قطار السكة الحديد إلى القاهرة فاستقبله فى محطتها جماعة العلماء والغازى مختار باشا وبعض رجال الغازى وفخرى باشا ناظر الحقانية وشيخ الجامع الأزهر ومفتى مصر والتشريفاتى الخديوى وبعد تبادل التحية ركب القاضى فى مركبة من المركبات الخديوية يحف بها كوكبة من الفرسان وعلى يساره حسين فخرى باشا ونزل ضيفا بمنزل سعادته وفى ثانى يوم ركب فى عربة من عربات الخديوى وعلى يساره الشيخ الرافعى رئيس المجلس العلمى وحضر إلى سراى عابدين فاستقبله عبد الرحمن رشدى باشا رئيس التشريفات وأدخله على الخديوى فقابله بالترحيب وبعد أن تناول القهوة ألبسه الخديوى خلعة ثمينة من فرو السمور فنزل بها إلى المحكمة واحتفل به قضاة مجلسها وهنئوه وبعد برهة لطيفة سار إلى المشهد الحسينى فزاره وركب من هناك إلى منزل مضيفه وبعد أيام قلائل أولم له الخديوى وليمة شائقة حضرها الغازى مختار باشا وبعض الأمراء من البيت العلوى وبعض الوزراء وكبار الديوان الخديوى والعلماء.

واتفق أن ابتاعت حكومة الإنجليز من الحكومة الخديوية قطعة أرض من فضاء قصر الدوباره على ساحل النيل الشرقى لبنائها دارا لقنصلاتو الإنجليز بثمن وقع الاتفاق عليه وكان المشترى لها السير بارنج باسم ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند فبعد أن تم الاتفاق على البيع والشراء وقبض الثمن أرسل ناظر المالية إلى قاضى القضاة جمال الدين يطلب توقيع الصيغة الشرعية وتسجيل البيع بالطريق الشرعى واستخراج الحجة بذلك فأعاد القاضى السؤال عما إذا كان تحديد الأرض يشمل شيئا من ساحل البحر فإذا كان كذلك فلا يصح لأنه طريق مطروق لا يصح تمليكه للغير فقال السير بارنج إن البيع يشمل الساحل وأنه قد اشترى الأرض إلى مجرى الحوت فامتنع القاضى عند ذلك من عمل المسوغ الشرعى وقال لا يجوز تمليك الطريق السلطانى للغير

فشدد السير بارنج فى الطلب وقال لابد من استخراج الحجة بما تم بيعه فسأل حسين فخرى باشا مفتى مصر رأيه فى ذلك فأفتى بعدم جواز البيع وبعدم تمليك الطريق السلطانى للغير وعدم جواز جعل الحد الغربى .

فلما كان عصر ذلك اليوم حضر مصطفى فهمى باشا إلى مقر الخديوى بعابدين ولبث بحضرته برهة ثم خرج فأرسل إليه الخديوى فى سادس شوال مرسوما يقول فيه: إنه بناء على ما رأيناه فى عطوفتكم من الدراية والأهلية ووثوقنا بكم قد أحلنا على عهدتكم رئاسة مجلس نظار حكومتنا وعلى هذا نطلب منكم القيام بتأليف هيئة نظارة جديدة وليكن فى علمكم أننا نعضدكم ونساعدكم على الأعمال المهمة التى دعوناكم لأدائها وبما أن المنهج الذى سلكناه منذ توليتنا لحسن سير أعمال حكومتنا وسرنا على مقتضاه للآن هو ما جاء فى أمرنا الصادر بتاريخ حادى عشر سبتمبر سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولا حاجة لتذكيركم بما تضمنه من المواد الأساسية وهى أن حكمنا وإجراءه يكون مع مجلس نظارنا وبواسطته مع بقاء الحق لنا فى الرئاسة على جلساته بذاتنا كلما رأينا لزوما لذلك كما أن جل قصدنا وغاية مرغوبنا هو العدل والاستقامة والإصلاح وحسن الترتيب فى جميع إدارات القطر والسعى فى ازدياد الرفاهية والتقدم فى جميع أنحاء البلاد حسا ومعنى فليكن ذلك دائما مطمح أنظاركم حتى يتسنى لنا بإذن الله الحصول على ما ذكر ونسأله تعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير للبلاد ورفاهية العباد أ.هـ .

فلما وصل إلى مصطفى فهمى باشا مرسوم الخديوى اجتمع بالسير بارنج برهة طويلة واجتمع كذلك بالمستشار المالى وعند الساعة الثامنة من ذلك اليوم تمثل بين يدى الخديوى بمقره ورفع إليه عريضة تتضمن أسماء من ستتألف منهم هيئة الوزارة الجديدة فكان فيها أن عبدالرحمن رشدى باشا للمالية ومحمد زكى باشا للأشغال العمومية والمعارف وحسين فخرى باشا للحقانية ويوسف شهدى باشا للحربية والبحرية وتيكران باشا للخارجية فوافق الخديوى على إسناد هذه المناصب إليهم ورسم بذلك فساروا جميعا إلى مقره بعابدين فهنأهم فقبلوا يده وانصرفوا وسافر مصطفى رياض باشا إلى مزرعته بطود البحيرة واحتجب عن الناس كافة وعفت أخباره وشاع الخبر بعزم أولى الأمر على خلع محمود باشا دبوس أوغلى صهره من وكالة الداخلية فاستحسن الناس ذلك وأحلوه من الصواب محله.

(مطلب)

ظهور الجراد بالإقليمين القبلي والبحري

ووردت الأخبار من بعض مديرى الإقليمين القبلى والبحرى على ديوان الخديوى وديوان الداخلية بظهور الجراد فى جهات الصالحية والزنكلون وتل حوين من بلاد الشرقية وأهوه وباروط وآهـا من بلاد مديرية بنى سويف وكثير من بلاد مديرية جرجا وأسيوط وبلاد مركزى النجيلة والدلنجات واليهودية وقبور الأمراء بالبحيرة وطود وداماريس والبرجين والأخصاص وغيرها بمديرية المنيا وأكثر بلاد القليوبية والمنوفية وكسا أراضى الجزيرة بالبر الغربى من القاهرة وكان ظهوره فى أخريات رمضان فخاف الناس شره واهتمت الحكومة بأمره اهتماما عظيما وأرسلت إلى سائر المديرين والمحافظين بالتشديد على قطع شأفته فجدوا فى تأثره وكانت الأخبار ترد تباعا بتكاثره وانتشاره شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وفتكه بكل ذى خضرة من النبات والشجر والنخيل وظل الحال على ذلك أياما والناس فى دهشة وحيرة حتى أذن الله سبحانه بأن هبت فى أخريات شوال من السنة رياح مختلفة بعضها من الشرق وبعضها من الغرب ولبثت على اشتدادها أياما فاكتسحته وحملت بعضه إلى الحوف الشرقى وبعضه إلى الجبل الغربى ولم تترك منه إلا القليل فى البلاد والقرى التى نزل عليها فأباده أهلها بضرب العصى وسعف النخل وجدّوا فى جمع بيضه وفرضت الحكومة قرشين لمن يأتى بأقة من بيضة فتسابق الناس إلى البحث عن مواطنه وإخراجه منها فكان أكثره فى مركز النجيلة بالبحيرة وفى الجبل الغربى وسواحل البحر وفى الفشن بمديرية المنيا، ومن غريب ما نقل عنه أن سحابة منه نزلت على مزرعة قطن بإحدى بلاد المنوفية فأكلتها وما أتت على آخرها حتى ماتت جميعها فجاءت أخرى إلى مزرعة فى جوار المزرعة الأولى فلما رأت ما أصاب الأولى نفرت من النزول على شجر القطن وعافته وفرت فلم ير بعد هذه الحادثة جراد يأكل شجر القطن وتحوّل ضرره إلى الأشجار والنباتات الأخرى وأخبر جماعة من تجار المنوفية مديرها وحلفوا له الأيمان المغلظة بأنهم شاهدوا فى بلاد مركز أشمون جريس طيرا كثيرا جدا أقرب شبها بأبى قردان ولكنه أطول منقارا قد نزل من الجبل الغربى أسرابا أسرابا وأخذ يتتبع الجراد أينما وجده ويكبس عليه ويزدرد منه المئين والألف ثم يتقيئوه ميتا وهكذا فلا يرحل عن البلد أو المزرعة إلا وقد أفنى ما فيها من الجراد وأباده وأن بعض الجهلة من الفلاحين كانوا يخافون من ذلك الطير

فيرجمونه بالأحجار وهو لا يلتفت إلى ذلك ولم يثن له عزما، **قلت**: وقد شاهدت شيئـاً كثراً من ذلك الطير نازلا على طول الطريق من نفيـشة إلى السويس وهو على هيئة صـفوف الجند بعضهـا خلف بعض ساكن القلب لا يزعجه مـزعج ولا يحركه محرك وقد أخبرنى بعض أهالى نفيشة بأن قد نزل عليهم منذ أيام وهو يترصد الجراد الزاحف من بلاد الشرقية إلى الحوف الشرقى حـتى إذا مر به قام من فوره وسد عليه الطريق وجعل يضربه بأجنحـته ومنقاره ويبتلع منه الألف فلا تستـقر فى جوفه لحظة حتى يتقايأها فإذا أفلت منه شيء تعقبه وقتله ثم يعود إلى مكانه متربصًا. قيل وبقى على هذه الحال أياما حتى قـامت تلك الريح واكتسحت ما بقى من الجراد فـسبحان مدبر الأكوان ومسلط الأبدان على الأبدان إنه خلاق عظيم سبحانه جل شأنه.

(مطلب)

موافقة عيد الأضحى لعيد بلوغ ولي العهد سن الرشد

وبالغ الخديوى هذا العـام فى إظهار أبهة عيـد الأضحى لموافقة أيامـه لأيام عيد بلوغ الأمير عـباس ولى العهد سن الرشد وكان الخـديوى باسكندرية على عادته فى إبان الصيف فطـير الخبـر بعمل تشريف العـيد إلى الآفـاق فهرع الأمـراء من البيت العلوى والكبـراء والعلمـاء والمشايخ وأرباب الوظائف عـلى اختـلاف مراتبـهم إلى الإسكندرية استعدادا لحـضور يوم التبريك بالعيدين عيد الأضـحى وعيد بلوغ الأمير سن الرشد وكثر توارد رسائل التهانى على ديوان الخديوى من كل صوب، فلما كان صبح الخمـيس عاشر ذى الحجة ركب الخـديوى عربة التشريف وعلى يسـاره الأمير عباس وأمامه الأمير محمد على ولده الثـانى وأمام العربة كوكبة من الفرسان وخلفه كذلك وسار إلى مسجد أبى العباس فصلى صلاة العيد ثم عاد إلى مقره برأس التين فدخل عليـه الأمراء من البيت العلـوى فهنئوه بالعـيد وبلوغ ولى العهـد سن الرشد وهنئوا كـذلك الأمير ثم دخل الوزراء والكبـراء والعلماء والوجهـاء والرؤساء وأدوا فروض التهـانى وخرجوا من عنده إلى سراى الحـرم وكانت رحبة السراى مـزدحمة بصفوف الجند والمواكب والمدافع تطلق من طوابى وأبراج البلد ومن سفن البحر على اختلاف أجناسـها والموسيقى تصـدح فى كل ناحية من ساحـة السراى وكانت والدة ولى العـهد قد أولمت ثلاثـة أيام قبل يوم العـيد وأطعمت وتـصدّقت على الفـقراء وأصحـاب البيوتات وفرقت بعـض التحف والهدايا النفـيسة وكذلك فـعل الخديوى

وجاء إلى ولى العهد نيشان الافتخار من إمبراطور النمسا والمجر فسلمه إياه القنصل فى حفلة من الأمراء والوزراء والكبراء وألبسه الخديوى كذلك بيده فى حفلة أخرى النيشان العثمانى الأوّل فوقف على باب الأمير يومئذ الشعراء والقوالون وتسابق المهنئون من كل صوب فمما قاله أحدهم فى الأمير:

نبه يراعك من وصف وتشبيب ... وخذ بنظم التهانى كل أسلوب

إن الهناء إذا طابت موارده ... أغناك عن غزل فى الشعر مطلوب

واليوم جلت تهانينا فكان لها ... صدر المقام كعنوان المكاتيب

قد بلغ الله مصرا ما به وعدت ... ونعمة الله وعد غير مكذوب

إلى أن قال :

والبدر فى أصله تم تحجبه ... أيامه ثم يبدو غير محجوب

يابالغ الرشد فى ترتيب مدته ... وأنت بالغه من قبل ترتيب

ونائل الأدب الوضاح من خلق ... من قبل تأديب أستاذ وتهذيب

ليس الحداثة من حلم بمانعة ... قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب

وليس رشد الفتى فى سنه أبدا ... بل فى فؤاد وأخلاق وتدريب

كذاك قد خلق الله الأمير لنا ... والمجد فى النفس طبع غير مكسوب

فنال من بعد تغريب معارفه ... ولم ينل فضله من بعد تغريب

فضل توارثه عن خير محتده ... والفرع من أصله فى الحسن والطيب

جارى أباه فكادا يجريان معا ... لولا مهابة إجلال وتأديب

وأصبحت مصر فى آمالها ولها ... قلب المحب أتاه وعد محبوب

حتى ترى منه غيثا فى شمائله ... والغيث فى وشك سكب مثل مسكوب

لقد دعوه بعباس ليوم وغى ... ولكنه فى الندى من غير تقطيب

فأبصروا منه بحرا فى مكارمه ... تخلو عذوبته من كل تعذيب

وشاهدوا منه عقل الشيخ فى حكم ... برأس أمرد داجى الشعر غربيب

ومن يكن نجل توفيق البلاد فلا ... بدع إذا كان مجموع الأعاجيب

حاولت وصف الهنا فيه فأزعجنى ... كأنه شقة فى عين متعوب

فلم أنل وصفه إلا على بعد ... ولم أنل مدحه إلا بتقريب

وركب ولى العهد فى ذلك اليوم فى عربة فاخرة وخلفه نفر من الجند فطاف على بيوت الأمراء من البيت العلوى وزار بعض قناصل الدول فكان يوما مشهودا.

(مطلب)

ظهور الوباء بمكة ومصوّع

وما تمت أيام العيد وما تبعها من أيام التزاور حتى ورد الخبر من مكة بظهور الوباء الأصفر بها ودخوله إليها من الحجاج الهنود فقام رجال الحكومة لذلك وقعدوا وأرسل الخديوى كتبه إلى نصحى باشا أمير ركب الحج المصرى فجاء الرد يقول إن الوباء على أشد ما يكون بمكة وأنه قد مات به ثلاثة من الجنود المصرية وأحمد أفندى عمر طبيب الركب المصرى ثم جاء الخبر أيضا بدخول ذلك الوباء إلى مصوع وفتكه بمن فيها فتكا ذريعا فرسم الخديوى من فوره بعمل الاحتياطات الصحية وسيروا فى يوم الأربعاء سادس عشر ذى الحجة جماعة من الأطباء والصيدلية وخدام المرضى إلى محجر الطور على ظهر الباخرة عائدة ومعهم الأدوية والخيام والملابس لفقراء الحجاج وأرسل ديوان الصحة إلى سائر عماله بالتأهب والاستعداد ليوم الطلب ومنعت نظارة الداخلية من إقامة سائر الموالد فى أنحاء البلاد فخاف الناس وجعلوا يبالغون فى الحيطة والتوقى من شر ذلك العدوّ الفتاك وطاف مشايخ الحارات ينادون على العامة بتنظيف دورهم والعناية بمأكلهم ومشربهم وملبسهم فضلا عن نظافة أجسامهم فوقع هذا النداء من قلوبهم موقعا رهيبا وكثر بينهم الهرج والمرج على عادتهم عند ظهور خبر هذا الحادث وطاف كذلك أصحاب الشرطة وأطباء الأقسام يفتشون الدور والوكائل ويلزمون أصحابها بنظافتها والعناية بها وظل الحال على ذلك حتى وصل الحجاج إلى محجر الطور ولبثوا به أيام الحجر فكان الموات بينهم قليلا ثم انقطع ولم يبق عليهم من خوف فجاءوا إلى السويس ودخلوا القاهرة معافين فزال عن الناس الخوف واطمأنت قلوبهم وانكف أصحاب الشرطة وأعوان الصحة عن التطواف كما كانوا يفعلون فى كل يوم .

(مطلب)

حريق سراي عابدين

وفى فجر يوم الخميس سابع عشر ذى الحجة سمع دوىّ شديد وصوت كأشد ما يكون من قصف الرعد وانتشر دخان كثيف ملأ جو القاهرة فهب الناس من نومهم

مذعورين وخرجوا يريدون مكان ذلك الصوت فظهر لهم لهب النار يرتفع من سراى الخديوى بعابدين إلى عنان السماء وشاهدوا طوائف الجند من المصريين والإنجليز يتسابقون إلى رحبة السراى ومعهم أصحاب المطافئ وجماعة ينفخون فى البوق نداء لمن تخلف منهم وكانت النار قد ظهرت أولا من غرفة فى الجهة الشرقية المجاورة لأحد مطابخ الدائرة الخاصة واشتد لهيبها ثم اتصلت إلى غرفة أخرى فأصابت أنابيب الغاز فتفرقعت الأنابيب فاشتد سعير النار وامتد لسانها وكبر خطرها وكثر نداء البوق فهرع الجند من كل صوب وناحية وجاءت خيل الحمل وعربات المياه وعربات الرش والطلمبات والفعلة ثم حضر الوزراء ووكلاء النظارات ورؤساء المصالح وكثير من الباشوات المتقاعدين وجعل كل منهم يقول رأيه فى كيفية إطفاء تلك النيران الآكلة فاختلفت الآراء واشتد اللهب وعلا علوا كبيرا وقد غاب عنهم جميعا إجراء الهدم للفصل بين الأماكن التى أخذت النار تأكل فيها وبين الأماكن التى لم تكن قد وصلتها النار واشتد الخوف على ما فى السراى من الأمتعة الفاخرة والفروشات الثمينة والثريات والمقاعد والأسرة والتحف التى لا تكاد تدخل تحت الحصر فأشار بعضهم بنقلها كلها إلى فسحة السراى الخارجية فنقل الجند بعضها فتكسر بعضه وتعطل البعض الآخر وكانوا يلقون بالشيء الكثير منها من النوافذ والشبابيك فيتحطم وهكذا ولم ينتبه أحدهم إلى الهدم والحيلولة بين النار وبين ما بقى من البناء أو تنبه بعضهم ولم يجد سميعا حتى أتت النار على جميع ما فى الجهة الشرقية إلى قرب باب المعية من الجهة الأمامية وإلى قريب سراى الحرم من الجهة الخلفية فتنبهوا حينئذ للهدم فهدموا غرفتين كبيرتين بين ديوان المعية وبين سراى الحرم بإلقاء الديناميت وكذلك هدموا سائر محلات الكتبة فانفصلت النار عن غرف المعية وانحصرت فى الجهة الشرقية وكان فعل الديناميت عند إلقائه على ذلك البناء غريبا مهولا جدا مادت له الأرض وأظلم به وجه السماء وكاد الناس يخرون على وجوههم لشدة ما أصابهم ثم جعلوا يلقون الماء على النار من المطافئ كالسيل ومازالوا على ذلك حتى تمكنوا من إخمادها وسلمت الجهة البحرية من السراى وكان ما كان من أمر المفروشات والنفائس والتحف أما الأوانى الذهبية والفضية والخزائن والسجلات والأوراق المهمة فقد نجت كلها من النار فحفظوها فى مكان وأقاموا الحراس من الجند حول السراى وما تهدم منها فى الليل والنهار وطيروا الخبر بما جرى إلى الخديوى فجاء ولى العهد ووالدته إلى القاهرة على قطار مخصوص وذهبا من فورهما إلى بناء السراى ولبثا هناك إلى قريب الغروب ثم عادا إلى الإسكندرية ومعهما من حضر من

الخدم والأتباع، واختلف الناس فى أسباب الحريق وكثرت الظنون وترامت إلى أسمج المرامى فرسم الخديوى بتحقيق الأسباب قيل ويلغه ما يقوله الناس فشدد على النائب العمومى فى ذلك، واتفق أن وجد جماعة العسس فى فجر الخميس ثانى عشرى ذى الحجة كيسا ملقى فى الطريق ما بين ترعة الإسماعيلية وكنيسة الإفرنج فيها ففتحوه فوجدوا فيه جثة رجل من العامة مقطوع الرأس مجهول الاسم والبلد فحملوا الجثة ودفنوها وأبقوا الرأس على رصيف الطريق وحولها جماعة من العسكر تخفرها فلما طلع النهار وشاع خبر ذلك تسارع الناس على اختلاف طبقاتهم إلى ذلك المكان ليروا الرأس واشتد الزحام حتى استدت منافذ الطرق وكثرت ضوضاء العامة وقالوا إن صاحب هذا الرأس هو الذى أحرق سراى عابدين وأنه قد حكم بقطع رأسه وتشهيرها وكثر اللغط بذلك وانتشر فى القاهرة ومصر القديمة فخاف أصحاب الشرطة العاقبة وحملوا الرأس فدفنوها وقد كانوا يريدون من عرضها على الناس معرفة صاحبها فلم يتمكنوا من ذلك وجدّ أصحاب الشرطة فى البحث عن القاتل وتعقبه أينما سار وحيثما صار فعلموا أن القاتلين للرجل جماعة دعاهم إلى فعل القتل الطمع فيما معه من المال، وتحرير الخبر أن القتيل رجل من المزارعين من أهالى أسيوط وله عادة أن يأتى إلى القاهرة فى مثل هذه الأيام من كل سنة ليدفع أجرة أرض استأجرها من أحد أعيان القاهرة فجاء فى ذلك اليوم على سابق عادته فى إحدى المراكب ومعه شىء من القمح والفول ليبيعه ويدفع إيجار الأرض من ثمنه وبات ليلته تلك عند صاحب له من خفراء بيوت خطة الإسماعيلية فظن الخفير أن ضيفه يحمل معه إيجار الأرض لصاحبها على عادته فى كل عام فلما نام الرجل آمنا مطمئنا فى حمى مضيفه انسل الخفير وعاد ومعه رجلان على شاكلته فانكبوا على الرجل وهو فى نومه وذبحوه ذبح الشاة وفتشوه فلم يجدوا معه شيئا لأنه لم يكن إلى تلك الليلة قد باع غلته فوضعوا جثته فى كيس وألقوها فى الطريق فقبض أصحاب الشرطة عليهم جميعا وألقوهم فى الحبس لينالوا جزاءهم.

(مطلب)

جبر البحر

ورسم الخديوى بأن يكون جبر الخليج أى جريان الماء فى خليج الخليفة المار بوسط القاهرة فى يوم الخميس ثالث عشر الشهر أى شهر المحرم من السنة وأن ينوب عنه فى حضور المهرجان ولى عهده الأمير عباس فقام الأمير من الإسكندرية فى يوم

الأربعاء على قطار خاص فكان كلما وقف القطار في محطة أطلقت له المدافع إجلالا وتعظيما حتى وصل القاهرة وقد كانت محطتها مزدانة بالرياحين والأزهار وغاصة بجماهير الأمراء والوزراء والعلماء والموظفين والوجهاء وقضاة المحاكم الأهلية وأعضاء مجلس شورى البلاد وقد اصطفت الجنود ما بين مشاة وركبان فى ساحة المحطة مع بعض العساكر الإنجليزية فلما نزل الأمير من القطار أطلقت المدافع وصدحت الموسيقى العسكرية فسار بين هذا الجمع حتى ركب العربة وإلى يساره شقيقة الأمير محمد على وركب أمامهما شوقى باشا ناظر الخاصة ودومرتينو باشا أحد رجال المعية وسارت بهم المركبة وخلفها الجند حتى اليخت الخديوى بالترسانة ببولاق مصر فأطلقت لمقدمهم المدافع من كل صوب فباتوا ليلتهم باليخت فلما كان مساء اليوم الثانى فى نحو العشاء الأولى ركب الأمير وشقيقه إلى مصطبة فم الخليج وقد أعدّوا لهما بصدر المصطبة سرادقا من الديباج فرش بالطنافس وأنير بالثريات وصفت فيه الكراسى الملبسة بالحرير فجلس الأمير واجتمع الناس فى تلك الساحة وفى الساعة التاسعة أحرقت الحراقات وأطلقت الأسهم النارية وجعل كبار القوم يدخلون على الأمير ويهنئونه إلى نحو نصف الليل ثم ركب مع شقيقه وحاشيته إلى قصر الجزيرة فباتوا وفى الصباح عاد إلى المصطبة وكان قد اجتمع هناك الوزراء وموظفو الحكومة بملابس الزينة والتشريف وبعد برهة لطيفة أمر الأمير بقطع السد فجرى الماء بالخليج ونثرت على السد الدنانير فصاح الناس بأصوات الفرح ثم ركب فى قلة من الخدم والحشم إلى مدينة حلوان فقضى فيها بقية يومه وعاد فبات ليلته فى اليخت الخديوى وأصبح يوم الجمعة فزار فى مسائه المشهد الزينبى والمسجد الجامع والمسجد الحسينى ومن هناك عاد إلى اليخت وفى يوم السبت قضى هو وشقيقه نهارهما بين المطرية والقبة والأهرام ومتحف الجيزة وسافرا فى صبح الأحد عائدين إلى الإسكندرية ووقف الشعراء على باب الأمير وامتدحوه بالأبيات الأبيات فممن قال فى ذلك محمود أفندى حسنى المعاون بمحافظة مصر قصيدة طويلة قال فى مطلعها.

وفى النيل بالأنجال يمنا لذا العام ... ولاحت شموس البشر للخاص والعام

وقال فى المديح :

صفات صفت من معدن المجد والتقى ... صفات أمير القطر والسودد النامى

وقال فى الختام:

جبرتم قلوب العالمين تكرما ... بتشريف جبر النيل فى خير أيام

وقال فى التاريخ :

بذا لسعود القطر قلت مؤرخا وفى النيل بالأنجال يمنا لذا العام

(مطلب)

تحقيق ديون غردون باشا

وعادوا فاشتغل أصحاب الحل والعقد بعد خلع مصطفى رياض باشا من منصب الرئاسة بتحقيق ديون غردون لأصحاب الأموال بالسودان أيام حصار الخرطوم والنظر فى شكاوى النازحين من الأقطار السودانية من الجند وأصحاب الوظائف والأهلين فقد كان قناصل الدول فى سعى متواصل مع رجال الدولة فى ذلك فرسم الخديوى فى سابع عشرى المحرم وأول سبتمبر بتشكيل لجنة من البارون رشتوفن والكونّت زالوسكى والمسيو لوشوفاليه والمستر مونى والمسيوريوميدس والمسيو مورانا والبرنس موروزى وكلهم أعضاء صندوق الدين والمسيوروكاسيره مستشار قضايا الخزينة وأجاز لهم النظر فى تلك الطلبات والحكم فيها نهائيا مع اعتبار صحة سائر الديون التى حكم بها قضائيا بأحكام صارت فى قوّة التنفيذ وكذلك الديون المعترف بها من الخزينة أنها صحيحة وأن ترد للخزينة جميع الأموال التى قامت بدفعها قبل تشكيل هذه الهيئة فأحصوا تلك الديون والطلبات فبلغت تسعمائة ألف وستة وتسعين ألفًا وستين جنيها مصريا منها ستمائة ألف وسبعة وخمسون ألفًا ومائتان وثمانية وخمسون للأجانب على اختلاف أجناسهم وثلثمائة ألف وثمانية وثلاثون ألفا وثمانمائة واثنان للأهالى على تباين مذاهبهم فعدّلوا فيها ماشاءوا وحكموا بما شاءوا واستدانت الخزينة لوفاء هذه الديون والمطالب قدرا من المال كبيرا فكان نصيب الأهلين وأصحاب الوظائف الديوانية من ذلك نصيب الثعلب من صيده مع الأسد وراحت أموالهم وأرزاقهم هباء كما راح دم غردون بين أصحاب المهدى هدرا.

(مطلب)

العثور على عبد الله نديم بعد هروبه

وشاع خبر عزم الخديوى على الحضور إلى القاهرة من مصيفه بالإسكندرية وأن بعض العيون أبلغت ديوانه الخاص بأن فى بلد الجميزة التابعة لمديرية الغربية رجلين غريبين يقيمان بها منذ أمد بعيد وربما كان أحدهم عبدالله نديم صاحب الطائف

وخطيب عصاة الثورة العرابية وصاحب تلك الأحوال والأهوال المشهورة فاهتم الخديوى بالأمر وسير إلى مدير الغربية مرسوما بتحقيق الخبر ومعرفة ذينك الغريبين فصدع المدير بالأمر وسير جماعة من أصحاب الشرطة وبعض رجال العسس إلى ذلك البلد فلم تكن إلا أيام حتى عادوا فى ثانى ربيع الأول ومعهم عبدالله نديم بعينه ومينه وخادم له اسمه صالح أحمد وكان عبدالله فى زى الدراويش المولوية وعلى رأسه عمامة خضراء مكورة وقد أطلق لحيته فجعلته أقرب شبها بعرب العبابدة فكتم المدير عن الناس خبر ظهوره خوف الفتنة وطير الخبر بذلك إلى ديوان الخديوى ونظارة الداخلية فاجتمع فى نظارة الداخلية عبدالرحمن رشدى باشا وزكى باشا وكتشنر باشا وتيكران باشا وأحمد شكرى باشا وتناجوا طويلا فى ظهور عبدالله نديم بعد اختفائه كل هذه المدّة الطويلة وفى الخطة الواجب اتخاذها فى تحقيق أمر هربه واختفائه ومكثه كل هذا الزمان بالجميزة فلما كان عاشر الشهر قرر مجلس النظار إنفاذ الأمر الخديوى الصادر بنفى عبد الله نديم إلى الشام وإطلاق سبيل من ضبط معه وجاء الأمر بذلك إلى مدير الغربية وبأن يرسل عبدالله إلى الإسكندرية ليسير منها إلى الشام فأنزلوه فى قطار السكة الحديد تحرسه جماعة من الجند ومعاونى المديرية ومنعوا الناس من رؤيته وقد كانوا قبضوا أيضا على جماعة من أهل الجميزة ممن آوى إليهم عبدالله ومن كان يعرفه فعفا الخديوى عنهم وأطلقوا سراحهم ووصل عبدالله إلى الإسكندرية فأنزلوه فى سجن الترسانة ليلته تلك ثم أصبحوا فنقلوه إلى إحدى بواخر الشركة الخديوية الذاهبة إلى الشام وقد رسم الخديوى إلى ربانها بأن لا يضيق على عبد الله ولا يشوّش عليه وأن ينزله بأى بلد شاءها هو من بلاد الشام وأن يعطى له بعد نزوله شىء من المال للنفقة وتيسير المعيشة وأجاز إلى عبدالله أن يشتغل بأى حرفة شاءها فأعجب الناس صنع الخديوى وتحدثوا به كثيرا وقد كان بعضهم يظن أن عقاب عبد الله نديم بعد العشور عليه لا يكون إلا الصلب أو قطع يديه أو النفى من أرض الشرق بأجمعه فوقع غير ما كانوا يظنون واختار عبد الله أن ينزلوه بيافا فأنزلوه بها قيل ففتح مكتبا لتعليم الصبيان وأظهر الزهد والورع ما استطاع ورضى بالكفاف فعرفه بعض الناس وقربوه منهم فحسنت حاله.

(مطلب)

فتح جسر قشيشة المستجد في حفلة حافلة

وجاء الخبر إلى الديوان الخديوى فى الإسكندرية بما بذله عمال الرى من جماعة الإنجليز من العناية بضبط رى سائر حيضان مديريات الإقليم القبلى فى هذا العام

وعدم تخلف شيء من الشراقى إلا النزر القليل من أطيان الحوف الشرقى رغما عن عدم بلوغ النيل حده المعتاد فى الزيادة وهم يطلبون الإذن بفتح قناطر قشيشة المستجدة فى حفلة حافلة فرسم الخديوى بذلك فلما كان رابع عشر ربيع الأول من السنة وسابع عشر أكتوبر زين رجال الرى القنطرة بطولها والطريق الموصلة إليها بالأعلام والرايات ووضعوا رسم الخديوى فى مدخل القناطر من جهة ورسم ناظر الأشغال العمومية والكولونيل منكريف والنابغة الكولونيل روس مفتش الرى وجماعة المهندسين الذين باشروا عمل هذا البناء من الجهة الثانية وقد اجتمع سائر الوزراء والكبراء وأرباب الوظائف وكبار المزارعين وطوائف المهندسين من أجانب ووطنيين وكثير من كتاب صحف الأخبار فلما أتت الساعة الحادية عشرة صباحا فتحوا خمسا من عيون تلك القنطرة فانحدر الماء انحداراً عجيبا ثم جلسوا على مائدة الطعام الذى أعده لهم المسيو زورو مقاول بناء القناطر فأكلوا جميعا وشربوا وعادوا إلى القاهرة فى القطار الخصوصى الذى حضروا به، وقد كان بناء هذه القناطر بإشارة من المجاور روس فإنه لما رأى الخطر المحدق بجسر سكة حديد الإقليم القبلى بسبب المياه التى تتسلط عليه أوان انحدار مياه الحيضان القبلية إلى حوض قشيشة وعدم تيسر ضبط صرف مياه هذا الحوض ومياه سائر الحيضان التى تنصرف إليه وضرورة وجود الموازنة فى مياه الصرف حرصا على فائدة حيضان الإقليم البحرى وانتفاعه منها أشار بعمل تلك القنطرة فاتفقوا مع أحد المهندسين الأجانب واسمه المسيو زورو وشريكه المسيو بوتا فى أخريات جمادى الثانية سنة سبع وثلثمائة وألف هجرية وأوائل شهر فبراير سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية على عمل البناء بمقتضى تخطيط وتقدير هندسى فأتموا بناءها وهى تشتمل على ستين عينا مزدوجة سعة الواحدة منها ثلاثة أمتار وتحتوى على صفى عقود أحدهما فوق الآخر وللصف الأعلى منها أبواب أفقية من الحديد المتين وللصف الأسفل أبواب من حديد أيضا مركبة فى دروندات سطحية ترفع بواسطة مرفعتين متحركتين على خط حديدى مستوى الدورند من الأمام ووزن الباب الواحد من الأبواب العليا نحو سبعة وأربعين قنطارا مصريا ومن الأبواب السفلى نحو ثلاثة وعشرين قنطارا وكيفية استعمال هذه الأبواب هى أنه قبل أن يأخذ النيل فى الزيادة ترفع سائر الأبواب العليا منها وتجعل أفقية فتسد الفتحات العليا من القنطرة ثم ترفع البوابات السفلى فتدخل من العيون السفلى مياه النيل إلى الحوض ومتى صارت مياه الحوض معادلة لمنسوب مياه النيل أقفلوا تلك البوابات لكى تعلو

مياه الحوض مما يرد عليه من مياه الملق ومياه البحر اليوسفى فإذا زادت المياه بالحوض عن منسوب تمام الرى المعتدل فتحوا العيون السفلى مرة ثانية للتخفيف كلما دعت الحالة لذلك حتى يجيء وقت الصرف العمومى فيفتحون الأبواب العليا كلها حتى إذا ما هبط منسوب الحوض هبوطا كافيا فتحوا العيون السفلى لسهولة صرف ما يكون قد بقى فى الحوض من المياه ـ وبصرف مياه قشيشة إبان الصرف يرتفع النيل عند القاهرة وتظهر فيه الزيادة ولكنها تختلف بحسب مناسيب مياه الحوض والبحر فى إبان الصرف ويبلغ عمق المياه المحصورة فى الحيضان الكائنة بين أسيوط وقشيشة ما بين عشرين وأربعين سنتيمترًا ـ وقد بلغ ما أنفق على هذه القناطر العظيمة زهاء اثنين وستين ألفا وستمائة وعشرين جنيها مصريا فجاءت من أجل الأعمال الهندسية وأكبرها فائدة إذ هى تصرف فى النيل مياه سلسلة الحيضان الكائنة بين أسيوط وقشيشة على مسافة مائة وسبعة وسبعين ميلا تجمع خمسمائة ألف وخمسة وخمسين ألف فدان وستمائة واثنين وخمسين فدانا وأخبرنى جماعة من المهندسين بأن هذه القنطرة تصرف كل عشرين يوما ألفى مليون متر مكعب فى السنين التى يكون نيلها عاليا وألف وخمسمائة مليون فى السنين التى يكون نيلها منحطا فيكون صرفها فى كل يوم مائة مليون متر مكعب فى الحالة الأولى ومائة وخمسين فى الحالة الثانية، **قلت**: وكانوا قبل إنشاء هذه القنطرة يردمون شاطئ النيل موضع القنطرة الآن ردما محكما ويغطون سطحه بالأحجار الضخمة أيام الشتاء وينفقون على ذلك الكثير من المال فضلا عن تسخير العدد العديد من أهالى مديرية الجيزة وأهالى مديرية بنى سويف وبعض أهالى مديرية الفيوم فإذا جاء الصيف وبدأ النيل فى الارتفاع أعادوا ردم ما يكون قد تشعث منه وبالغوا فى حراسته وأكثروا من التطواف عليه فى الليل والنهار وهكذا حتى تتم زيادة النيل وتمتلئ الحيضان القبلية فإذا جاء أوان صرفها إلى قشيشة قام بحراسة ذلك السدّ مدير بنى سويف ومدير الجيزة وجماعة المهندسين والمأمورين والعدد العديد من أهالى البلاد القريبة والعمد والمشايخ فيضربون خيامهم على طول الشاطئ ويقضّون ليلهم ونهارهم متأهبين لكل طارئ حتى يأتى الأمر بكسر السد فيكسروه مع التحفظ والالتفات فتنصرف منه مياه الحيضان كافة إلى النيل وهكذا فى كل عام يصرفون على هذا السد الشيء الكثير من المال ثم هم يكسرونه ويلقون به فى اليم حتى انشئوا تلك القنطرة فتخلصوا من جميع تلك المخاوف، ولم يمض على ذلك أيام حتى شاع الخبر بعزم الكولونيل منكريف وكيل نظارة الأشغال والماجور روس صاحب الأيادى البيضاء فى أعمال رى الإقليم القبلى على ترك

منصبيهما والعودة إلى عاصمة الإنجليز فأجمع الناس يومئذ على أن ذلك مترتب على ما هو واقع بينهما وبين السير بارنج من البغض والشحناء قالوا لأن الرجلين من أقيال القوم وأصحاب البيوتات العالية والمعارف السامية فلم يخفضا جناح الطاعة العمياء إلى ذلك الداهية ولم يطيقا الصبر على ذل النفس وإكراهها على مالا ترضاه فبادرا إلى اعتزال المنصب وترك السير بارنج وشأنه فى هذه الأرض أرض العجائب يولى فيها المناصب العالية والوظائف السامية لمن يشاء من صنائعه والملتفين حوله من شبان الإنجليز الأغرار حتى إذا قال لأحدهم قم قام أو افعل فعل بغير أخذ ولا رد، فلما كان أول ربيع الثانى من السنة وثالث نوفمبر اجتمع مجلس النظار بغير حضور الخديوى وقرر قبول استعفاء الرجلين وتعيين المستر جارستن لوكالة نظارة الأشغال والمستر فوستر لتفتيش رى الإقليم البحرى والمستر براون لتفتيش رى الإقليم القبلى والمستر ويلكوكس لتفتيش الخزانات المزمع إنشاؤها بأسوان عند قصر أنس الوجود والمستر الن يوسف لرى القسم الثالث وإسماعيل بك سرى لرى القسم الرابع-وأن يؤتى باثنين من الإنجليز المقيمين بالهند ليتولى أحدهما رى القسم الأول وثانيهما رى القسم الثانى فتطير الناس من ذلك وقال جماعة منهم هى حلقة من سلسلة كثيرة الحلقات سيطوقون بها أعناق أهل البلاد مادامت مصر مغنما والإنجليز ساداتها وقال آخرون ربما كان فى تخلف الخديوى عن الحضور بجلسة ذلك اليوم حكمة لا تلبث أن تظهر للعالمين يوم يعود الخديوى من مصيفه بالإسكندرية، فلما كان خامس الشهر أى شهر ربيع الثانى قام الخديوى من الإسكندرية على قطاره الخاص ومعه جماعة الوزراء ورجال ديوانه يريد القاهرة فكان لوداعه احتفال عظيم وكان فى انتظاره بمحطة القاهرة كافة الأمراء من البيت العلوى والكبراء والعظماء والعلماء وأصحاب الوظائف العالية فلما وصل القطار أطلقت المدافع من قلعة الجبل وصدحت الموسيقى وهتف الجند هتاف الترحيب فركب عربته وعلى يساره الرئيس مصطفى فهمى باشا وخلفه طائفة الحراس وجماعة الفرسان وسار إلى مقره بسراى عابدين وكان قد تم بناء ما تهدم منها وكمل زخرفها على أحسن ما يكون وفرشت بأحسن المفروش وأنفقوا على ذلك شيئا كثيرا جداً وكان يعمل فيها من الصناع والبنائين وأصحاب الصنائع الأخرى فى كل يوم ألفان وثمانمائة عامل مدة أربعة أشهر كاملة ـ وبالغ أهل القاهرة ومصر القديمة فى عمل الزينات والألعاب النارية إجلالا لمقدمه وغصت الشوارع كافة بالمتفرجين مشاة وركبانا وانتشر أصحاب الشرطة فى كل صوب ودرب فأقبل الخديوى عند الساعة الثامنة مساء فى عربته يطوف فى تلك الشوارع ويحيى

الناس فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وألسنة النساء منهم بالزغاريت وطافت كذلك خلفه. والدة ولى العهد فى عربة وحولها جماعة الخصيان وأمامها طائفة من الفرسان ثم عادوا جميعا إلى سراى القبة وأصبحوا وقد وقف على بابه الشعراء والقوالون وأتت إلى ديوانه قصائد التهانى والمديح من كل صوب ومنها قصيدة طويلة لحسن بيك حسنى الطويرانى يرحب فيها بالخديوى قال فى مطلعها:

توسمت بدر الفوز من مطلع اليسر   فبشرت آمالى بطالعة البشر

وفى مخلصها :

ولولا الهوى لم أشك من غربة النوى   ولولا سنا توفيق ماعدت للشعر

له موكبا بأس ولين كلاهما   وأقام المنى والأمن فى البر والبحر

أنام الورى فى أمنه وهو ساهر   وأتعب منه النفس فى راحة القطر

وفى ختامها:

وأرخ بأفراح القدوم زهاء الهنا   وقل عاد توفيق المليك إلى مصر

وقال فى ذلك أيضا محمود أفندى حسنى أحد معاونى محافظة مصر:

بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا   وكوكب البشر فى أفق الهنا صعدا

وقال فى الختام وهو بيت التاريخ الهجرى:

لسان إسعادها نادى يؤرخها   بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا

ثم شفعها بتاريخ هجرى آخر قال فيه :

بالصفو عاد الخديوى   والأنس بالبشر عرف

ياقطر فاهنأ وأرخ   باليمن توفيق شرف

ومضت أيام الأفراح والزينات والناس متشوقون إلى معرفة ما سيفعله الخديوى بعد تسليم زمام الرى إلى جماعة الإنجليز وإطلاق أيديهم فى شئونه فلم تكن إلا أيام قلائل حتى قرر مجلس الوزراء مرتبات أولئك القوم فكانت ألفا وخمسمائة جنيه لكل منهم يتقاضاها من الخزينة فى كل سنة وستمائة فقط إلى إسماعيل سرى بك فصادق الخديوى على ذلك ورسم به فاختلط حينئذ الحال على الناس وقالوا حكمة الله سبحانه فى ذلك فوق كل حكمة، فلم يكن إلا يوم أو بعض يوم حتى جاء الخبر من مدير البحيرة بأن قد حدث قطع عظيم بساحل ترعة المحمودية عند جسر حجر النوتية وأن الماء قد انحبس عن الإسكندرية وانهال على ملاحة مريوط وأن سبب

ذلك إهمال أصحاب الرى ردم الجسور وتقوية منافذ الماء وجاء الخبر كذلك من محافظ الإسكندرية بانحسار الماء عن الآلات الرافعة لسقاية البلد وأن الأهالى فى قلق واضطراب لاسيما الأجانب منهم وقد تزاحمت العامة على صهاريج أصحاب البيوت القديمة بالبلد ليستقوا منها فاهتم أصحاب الحل والعقد لذلك اهتماما كبيرا وقام مدير البحيرة ومحافظة الإسكندرية وسعدالدين باشا رئيس مفتشى الداخلية والمستر فوستر أحد أولئك الإنجليز إلى مكان القطع وحشدوا الأنفار وجمعوا بعض الصناع واشتدوا فى العمل وأكثروا من المعدات وظلوا على هذه الحال أياما وانحدار الماء من القطع على أشده حتى تمكنوا بعد العناء الكبير من سده ورجعت المياه إلى مجاريها ولم يمض على هذا الحادث إلا بضعة أيام حتى جاء الخبر من مدير أسيوط بأن قد جرت المياه إلى حوض الزنار وغمرتها ثانية بعد انقضاء أوان صرف ذلك الحوض فأغرقت مزروعاته وأماتتها جميعا وأن قد قامت ضجة أصحاب تلك المزروعات ورفعوا الدعاوى أمام الجهات الاختصاص على أصحاب الرى ووردت شكاوى القوم على ديوان الخديوى تباعا وكلها مفعمة بقارص الكلام ومر الملام والتألم من فعال أصحاب الرى الذين تسلموا زمامه فى هذه الأيام فأكبر الخديوى الأمر وكلم الرئيس مصطفى باشا فهمى فى ذلك فأوعزالرئيس إلى مدير أسيوط بملاطفة أصحاب تلك المزارع وأن يخفف عنهم ما استطاع حتى يتروى فى الأمر، ثم كلم أصحاب الرى فى شكوى أهالى حوض الزنار وتوجع من فعال المكلفين بصرف مياه الأحواض فقام على الفور الماجور براون مفتش رى الإقليم القبلى إلى أسيوط وغاب أياما ثم عاد ورفع إلى نظارة الأشغال تقريرا قال فيه - إن الضرر الذى أصاب الزروعات بذلك الحوض ليس بالأمر العظيم لأن المزروعات تتراوح مابين مائتين إلى ثلثمائة فدان وأن أصحاب الرى لم يخطئوا فى عملهم عند فتح الحيضان للصرف وأن الأهالى كسروا سدا لم يشر أصحاب الرى قط بكسره فكان فعلهم سببا لرجوع المياه إلى الحوض يعنى حوض الزنار وغرق تلك المزروعات، وعلم مدير أسيوط بما قاله الماجور براون فأنكر عليه مقالته وأثبت أن الضرر ألم بمزروعات زهاء ثلاثة آلاف فدان وقال إن الأهالى لم يكسروا شيئا من السدود وأن الخطأ كل الخطأ فيما فعله أصحاب الرى. وعلت ضوضاء أصحاب حوض الزنار وأنذر بعضهم نظارة الأشغال بطلب التعويض على يدى المحاكم المختلطة وقام أصحاب صحف الأخبار يقرّعون جماعة الإنجليز ويرجعون على أصحاب الرى منهم باللائمة ويقولون إنهم أغرار

يجهلون طرق الـرى المصرى ولا يعرفـون شيئـا من وسائل الحيلولة بين الـنافع منها والضار وأن إعطاءهم تلك الجمـاكى الفادحة ضرب من الجور ومـحنة كبرى لا دواء لها وصـاح لصيحتـهم هذه أيضا بعض أصحاب صـحف الفرنسيس فأكـبر الرئيس مصطفى فهمى بـاشا أمر ذلك وعقد جلسة مجلس النظار وتـناجوا طويلا وبعد أخذ ورد قرروا تشكيل لجنة من محمـد سعد الدين باشا وعامر عبـد البر بيك واسمعلوم بك لتحقـيق تلك الشكاوى وتقدير ما أصاب أصـحابها من الخسـائر وإقامة الدليل على ما إذا كان الخطأ الناجم عنه تلك الخسائر واقـعا بفعل أصحاب الرى أو الأهالى أو غيـرهم فـساروا إلى أسـيوط وقـد أحس السيـر بارنج بما وراء ذلك فعـمل على استرضاء الكولونيل مونكريف والمـاجور روس واستبقائهما فى منصبيـهما حولا آخر وسعى فى ذلك ما استطاع حتى قبلا البقاء عاما أو بعض عام فغيروا حينئذ من ذلك النظام وقللوا من أهمية وظائف جارستن وبراون وفوستر وغيرهم إلى حين ثم خففوا من مطالب أصحـاب حوض الزنار واستـرضوهم بشىء من المال فـسكتوا وانقطعت ضوضاؤهم فبات هذا الحادث بعد ذلك فى خبر كان.

(مطلب)

ما أبطل من المغارم والمكوس

ورأى منلر وكيل المالية عند عـمل ميزانية الخزينة لسنة إحدى وتسـعين وثمانمائة وألف ميلادية أن فى مجموع موارد إيراد الخزينة شـيئا كثيرا من المغارم والمكوس التى ما أنزل الله بهـا من سلطان وهى غل فى أعناق الفقـراء من أهل البلاد فـأخذ منذ ولايته يدبر الأمر على إبطالها ويعمل على تغيير نظام بعض تلك الموارد ومازال دائبا على ذلك وبعض كـبار الإنجليز يـمانعونه حـتى تمكن فى أخريات ربيع الـثانى من السنة وأخريات سـبتـمبر من إعـفاء بيوت القـاهرة ومصر القـديمة التى لا يتـجاوز إيجارها فى السنة خمسمـائة قرش من الإتاوة السنوية ومن إبطال رسوم القيدية على رخص تعاطى صناعـة الطب والولادة والجراحة الصـغرى ومهنة القـوابل والمحلات المعدة لبيع العقاقير والمواد الأقرباذينية والجواهر السامة ورخص الصنائع وأنقصوا ثمن الملح كى لا يتعذر على الفقراء وأهل القرى استعماله بدلا من الملح البرانى الذى هو الملح الجـبلى وأبطلوا دائرتى بلدية مـصـر والإسكندرية وخصـصـوا دخل دخولية الإسكندرية لمجلس بلديتـها وأبطلوا كـذلك السخرة والعـونة وما يتبـعهـا من البدل

النقدى وتكفلت الخـزينة بالنفقة على خفارة الجـسور والأعمال المستـعجلة التى تلزم عند حصول خطر من فيضان النيل ففرح الناس بذلك واستبشروا بانفراج الأزمة بعد أن استحكمت حلقاتها .

(مطلب)

ما وقع من التبديل في قضاة المحاكم الشرعية

وإلى هذا الحين أى إلى شهر ربيع الثانى من السنة كان المستشار القضائى قد كاد ينجز ما أراده من القلب والإبدال فى هيئة القضـاء والقضاة بالمحاكم الأهلية وأعضاء ورؤساء النيابات كما تقدم القول فلما كانت أخريات الشهر عمد إلى التغيير والتبديل فى قضاة المحـاكم الشرعية أيضا فمـد يده إلى محاكم الجيزة وأسـيوط وبنى سويف والغربية والشرقية وسيـوه وسواكن وتناول كذلك بعض وظائف الإفتاء بالمديريات ثم انقلب على محكـمة الاستئناف الأهـلية فتنحى عـبدالحميـد صادق باشا عن مـركز رئاستها فتولاها إبراهيم فؤاد بيك رئيس محكمة مـصر الابتدائية واشتد المستشار فى عمله وأكبـر فى القلوب هيبته وتمكن من منصـبه أى تمكن واستبـد بالأمر حتى بلغ الغيظ من حسين فخرى باشا معظمه واتفق أن أحسن الخديوى على إبراهيم فؤاد بك برتبة الباشوية عقب توليته رئاسة محكمـة الاستئناف فقال الناس إنه سيخلف حسين فخرى باشا فى منصبه وشـاع الخبر بذلك وأصبح عند نقلة الأخبار فى حكم الشىء المقرر لأن السواد الأعظم كان يتوقع ذلك من يوم دخول حسين فخرى باشا فى عداد وزارة مصطفى فهمى باشا لبغض جماعة الإنجليز له وكرههم لبقائه فى مسند الوزارة وسعيهم وراء خذلانه، فلما كان صـبح الثانى عشر من جمادى الأولى من السنة أى رابع عشر ديسمبر ذهب السير بارنج إلى مـقر الخديوى بعابدين ولبث بحضرته ساعة ثم انصرف ثم عاد ولبث برهة أخرى ثم انصرف فاستدعى الخديوى فى الحال جماعة النظار وعقد مجلسهم فتداولوا معه فى كيفيـة افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد حسب العادة فى كل سنة ثم انفض مجلسهم وذهب كله منهم إلى ديوانه ولم يؤذن الظهر حتى جـاء الطلب من الديوان الخديوى إلى حسين فخرى بـاشا فقام من فوره وتمثل بين يدى الخـديوى فقال له الخديوى إن الـرئيس مصطفى فهمى باشـا قد شكا إلى منذ أيام مما هو بينكما من الخـلاف والتباين فى الرأى ويقول إنه يسـتحيل اتفاقه معك وقد أتانى اليوم وعرض علىّ خـصلة من ثنتين إما أن يخلع نفسه ويترك

منصب الرئاسة وإما أن تخلع أنت من مسند الحقانية فقال يامولاى إنى لا أريد أن أكون حجر عثرة فى سبيل أعمال حكومة سيدى وها أنا قد خلعت نفسى وتركت منصبى فليقبل سيدى منى ذلك فقال الخديوى قد قبلته فانصرف حسين فخرى باشا من حضرة الخديوى وأرسل فى طلب ماله فى الديوان من الأوراق الخصوصية فأتوه بها. حدثنى أحد المقربين من باب الخديوى قال: خرج حسين فخرى باشا فى ذلك اليوم من حضرة الخديوى وهو يجر أذيال الغيظ ويعض أصبع الندم وكلنا يعلم أن ما بدا من الرئيس مصطفى فهمى باشا من الشكوى وما قاله من استحالة الاتفاق مع فخرى باشا إنما هو مكره عليه من أسكوت ومدفوع إليه من السير بارنج وأن خلع فخرى باشا وتنحيته عن منصبه أمر متفق عليه من قبل وقد ضربوا له أجلا هو تغيب أسكوت بالإجازة فلما غاب أسكوت وحان الأجل المضروب استقدمه الخديوى وقال له تلك المقالة التى لم تخف مغامزها على أحد من العالمين ـ قال ولقد كان الأجدر بحسين فخرى باشا أن لا يبقى فى هذا المنصب المحفوف بصنوف المكاره إلى أن يكرهوه على التخلى عنه فإن ذلك يحط من الكرامة وتأباه الشهامة ـ قال: وبعد فقل لى بحقك من ذا الذى يرجو السلامة لجماعة النظار من مثل هاته الضربة إذا لم ترض جماعة الإنجليز طاعتهم أولم تعجبهم شمائلهم، إن الناس طرا يعلمون أن سياسة القوم فى هذه الأيام هى تمزيق شمل أصحاب الوظائف من أهل البلاد كل ممزق حتى يتم لصاحبهم ما طفق ينادى به على رؤوس الملأ من أنه لا رجال فى مصر يحسنون التصرف فى مناصب البلاد أ. هـ.

واتفق أن أحمد بليغ بيك وكيل رئاسة محكمة الاستئناف العليا أدب فى ليلة اليوم الثانى لخلع حسين فخرى باشا مأدبة لإبراهيم فؤاد باشا بمناسبة ارتقائه مسند الرئاسة للاستئناف ودعا فى تلك الليلة جماعة القضاة وبعض رؤساء النيابات فأكلوا وشربوا وبينما هم حاصلون على أكمل ما يكون من أسباب الأنس والصفاء إذ دخل عليهم كحيل باشا باشكاتب مجلس النظار وأبلغ إبراهيم فؤاد باشا خبر ما رسم به الخديوى من توليته مسند نظارة الحقانية بدلا من فخرى باشا فشكر وانطلق لسانه بالدعاء فهنأه الحاضرون وأصبح فسار إلى مقر الخديوى بعابدين فهنأه الخديوى بالمنصب فقبل يده وكان ذلك اليوم وهو خامس عشر جمادى الأولى وسابع عشر ديسمبر من السنة موعد افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد فرسم الخديوى إلى إبراهيم باشا بالذهاب إلى قاعة الشورى مع جماعة الوزراء فقبل يده وانصرف،

وركب الخديوى كذلك عربة التشريف وعلى يساره ثابت باشا كاتب الديوان الخديوى وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الجند وسار إلى قاعة الشورى فلقيه النظار وجماعة أعضاء شورى البلاد فدخل وجلس فى إحدى غرف المكان فقدموا إليه عمد البلاد المنتدبين لعضوية الجمعية العمومية فحلفوا بين يديه يمين الأمانة إذ كانت هذه أول مرة لانعقاد الجمعية العمومية بعد الانتخابات الأخيرة ثم دخل الخديوى القاعة الكبرى وخلفه النظار فخطب على الأعضاء الخطبة المعتادة ثم قال إن الغرض من اجتماعكم فى هذه المرة هو النظر فى مشروع تقليل فيات ضرائب الأطيان ولا يخفاكم أن هذا المشروع إنما هو مقدمة لتخفيف الضرائب كافة وأملى أنكم تنظرون فيه بما يكون صالحا للبلاد وأهلها وأسأل الله أن يوفق الجميع إلى ما فيه السداد والخير فعند ذلك صاح جماعة الأعضاء بالدعاء له فخرج ولبث أصحاب الشورى مع جماعة النظار يتكلمون فيما هم بصدده وفى ثانى يوم سادس عشر جمادى الأولى رسم الخديوى بتولية بليغ بيك رئاسة محكمة الاستئناف بدلا من إبراهيم فؤاد باشا وأحسن عليه برتبة الباشوية وعاد أسكوت من غيبته فرحا جذلا بما ناله من الظفر والغلبة على حسين فخرى باشا وقد خلا له الجو فجعل يصفر وينقر ما شاء أن ينقر ولم تكن إلا أيام قلائل من عودته حتى رسم الخديوى أيضا بتولية إسماعيل صبرى بيك رئيس محكمة الإسكندرية وكالة محكمة الاستئناف العليا فلم يبق فى نفس أسكوت بعد ذلك حاجة إلا قضاها فأقصى عن سائر المحاكم صنائع مصطفى رياض باشا وصهره محمود باشا وخلع من وظائفها جماعة من أهل الدعارة والنفاق وألبس القضاة والنواب وأعضاء النيابات شارات مخصوصة عند جلوسهم للحكم بين المتقاضين وهى زنار من الحرير فى عرض قبضة اليد يجمع بين اللونين الأحمر والأخضر اللذين هما لونا الراية المصرية العثمانية فكانوا إذا جلسوا فى كراسى القضاء تقلدوها على صدورهم وألبس كذلك جماعة المحامين كساء من الجوخ الأسود على شكل الفروجيات أو أقبية العلماء وأصحاب حلقات التدريس بالجامع الأزهر يلبسونها عند الوقوف فى موقف المحاماة وقد كانت هذه الشارات والأكسية من ميتكرات شفيق بيك منصور على عهد ولايته وكالة النيابة العامة ولكنه رحمه الله لم يقدر على إخراجها إلى عالم الظهور لممانعة مصطفى رياض باشا فى ذلك أيام رئاسته فأهملت حتى جاء أسكوت فجعلها ركنا من أركان نظامه الجديد فى محاكم البلاد .

(مطلب)

ما فعله كتشنر باشا من النظام

وكما بسط أسكوت يده على سائر المحاكم فغير وبدل أدنى من قضاتها من شاء وأقصى منهم من شاء وسنّ لهم السنن وقنن القوانين فعل كذلك كتشنر باشا فى نظام الشحنة ومن فيها من الجند ومقدمى الجند وقد بالغ فى الحيطة وإحكام التدبير لعله يتمكن من قطع دابر اللصوصية وإرهاب أهل الشقاوة وتأمين السبل لأبنائها فكان له فى كل يوم منذ تولاها شأن جديد وعزم لا يفله الحديد وكان لا ينكف عن التجوال بين الإقاليم القبلية والبحرية ليتحقق من كفاءة خفر البلاد وعسسها وسير مشايخ القرى وعمدها وما يحتاجه الأمن فيها من الوسائل والأسباب وقد غير وبدل كثيرا من ضباط الجند وسنّ لهم السنن وقنن القوانين الصارمة وسنّ كذلك قانونا للعطلة من أهل البلاد والأجانب سكان المدن والمتشردين من الفئتين لا يقدر على العمل به إلا الجبار العنيد فلما أخذ أصحابه فى تنفيذه والعمل به استعصى عليهم الحال وأشكل المآل وخشن قناصل الدول للرئيس مصطفى فهمى باشا بسببه المقال وظلوا على ذلك أياما حتى أوعز الرئيس بعد أخذ ورد مع أعضاء شورى البلاد بإهماله والكف عن مشاغبة الناس إلى حين.

(مطلب)

ما فعله المستر منلر وكيل المالية

وكذلك فعل المستر منلر وكيل نظارة المالية فإنه لما ساءه ما فعله مصطفى رياض باشا أيام رئاسته من التشديد على مأمورى الحكومة بجمع الخراج فى غير آجاله وبثه أصحاب الجباية فى شرق البلاد وغربها لتحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة وكان ما كان بينه وبين مصطفى رياض باشا من الوحشة والجفاء واستفحال العداء إلى الحد الذى بيناه فى محله عمد من ذلك الحين إلى البحث والتنقيب عن حالة موارد الخزينة وما وصلت إليه حالة أهل البلاد مع المرابين وتجار الأرياف من جماعة الروم وغيرهم وفى أسباب استدانتهم وما عليهم من الديون المتراكمة بعضها فوق بعض وفى كيفية حبس أرزاقهم وزروعاتهم وعقارهم تحت أيدى أولئك القوم رهنا على تلك الديون كل ذلك ليبرهن إلى صاحب سياستهم على أن فلاحى البلاد فى

أشد ما يكون من حالات العسر والإفلاس وعلى أن البلاد فى أحرج المواقف وأدناها من مهـواة الدمار وعلى أن فعـال رياض باشا يومئـذ كانت ضربـا من العسف بأهل البلاد وتغـريرا بأصحاب الوظائف الديوانية من جـماعة الإنجليز فـرفع إلى صاحب سياستهم صحيفة مطولة فى معنى مـا ذكر وتناقل ما فيها أصحاب صحف أخبارهم الكبرى كالتـيمس والدالينيوز وغيرهمـا وتعقبوا عليهـا بشىء من قارص الكلام وقد أحصى منلر فى صحيـفته تلك حياه الله ما على أهل البـلاد على اختلاف درجاتهم من الديون المسجلة بسجلات المحاكم المختلطة وحدها لأولئك القوم إلى أخريات سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية فبلغ عشرين ألف ألف وستا وثمانين ألفا ومائة واثنين وثمانين جنيها مصريا وأن ما حـبس لوفائها من الأطيان بلغ ألف ألف وثلثمائة ألف وأربعمائة فدان من العقار تسعة آلاف وخمسة وتسعين عقاراً هذا عدا ما استدانوه فى سنة إحدى وتسعين الحـالية وعدا ما هو مسجل بالمحاكم الشرعـية وفضلا عن المبالغ المتعامل بها بين الأهالى والأفـراد الأخر من الأجانب ونزلاء البلاد مما لا ينقص عن الخمســة آلاف ألف وخمسمـائة ألف جنيه وأطنب منلر فى المقال وأكثـر من البرهان على وجوب تعديل الخراج والتعجيل بالـتخفيف عن أهالى مديريتى الحدود وأسوان وشاع خبـر ذلك بين الناس ففرحوا ومـدحوا منلر وقالو « إذا تزاحمـت الخيل فمن سعد الركاب» وجعل منلر من هذا الحين يكثـر الترداد ما بين مجلس النظار ومجلس شورى البلاد حتـى تم له ما أراده من التخفيف عن تينك المديريتيـن وتقررت قاعدة ذلك بينهم.

(مطلب)

مرض الخديوي توفيق باشا ووفاته

واتفق أن ذهب السـير بارنج فى سابع عـشرى جمـادى الأولى من السنة أى تاسع عشر ديسمبر إلى سراى عابدين ليكلم الخديوى فيما وقع الاتفاق عليه مع منلر فعلم من رئيس التـشريفات أن الخديوى بعـد أن كان على عزم الانحدار مـن قصره بحلوان إلى عـابدين على عـادته فى كل يوم وقـد أخذ رجـال ديوانه الأهبـة لذلك جاءهم الخبر بعدم قدرته على الحضـور وأنه يشكو منذ صباح اليوم ذات الصدر فعاد السير بارنج إلى مقره ولبث يومه ينتظر الخبر فإذا بهم أرسلوا يقولون إنه قد شعر فى ذلك اليوم بقشـعريرة أتعبته ولكن الأعـراض ليست شديدة وليس فيهـا ما يدعو قط

إلى القلق، فلما كان اليـوم الثانى أى ثامن عشرى جمادى الأولى سـار السير بارنج وجماعة الوزراء وبـعض الكبراء إلى حلوان للسؤال عن صحته فـعلموا فى طريقهم بأنه انحدر من حلوان إلى القاهرة فـعادوا ودخلوا عليه بمقره بعابدين فـشكا إليهم ما يلاقـيه من أعـراض النزلة وبات ليلته تـلك بسراى القـبة ثم عـاد فى ثانى يوم إلى حلوان فلم يصلها حتى اشتدت به الأعراض فلازم مخدعه ولـم يخرج منه واستدعى طبيبـيه الخصوصيين وهمـا سالم باشا سالم وعيـسى باشا حمدى فأثبتـا أنه مصاب بالنزلة الصدرية فى درجتها البسيطة وبقى على هذه الحال إلى صباح خامس جمادى الآخرة وكان ديـوانه قد أعلن عزم الخديوى على أن يأدب فى هذا اليـوم أى خامس جـمادى الآخـرة مأدبـة يحضـرها ثلاثون مـدعوا من الأمـراء والعظمـاء ومقـدمى العسكرين المصرى والإنجليزى وقد كانوا أخذوا الأهبة والاستعداد لذلك فلما اشتدت به علته شاع الخـبر بأن قد أبطلت تلك المأدبة وتأجلت إلى يوم الثلاثاء حـادى عشر جمـادى الآخرة ثم جـاء الخبر إلى الـقاهرة بتقـدمه إلى العـافية وزوال الـبأس عنه وتكلمت صحف الأخبـار فى ذلك وهنأه بعضهم بشىء من مليح القـول فلما كانت عشية ذلك اليوم أحس الخـديوى بألم شديد فى الصدر فاستدعى طبيـبه عيسى باشا وشكا إليه ألمه فـجس الطبيب نبضه فـإذا به على أشد ما يكون من السـرعة وكذلك الحرارة على أشد ما يكون فسهر عليه ليلته تلك وبعد نصف الليل بقليل ظهرت عليه أعراض أخرى خطرة فاستدعوا الطبيب سالم باشا فحضر فى نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل فرأى أن الحـالة قد بلغت أشـدها وأن الخديوى على شفـا جرف الموت فطيروا الخـبر إلى صاحب شـركة سكة حديد حلوان بإعـداد قطار خاص يستحـضر بعض الأطباء من الـقاهرة فلم تكن إلا ساعـة أو بعض ساعة حـتى حضـر الطبيب كمانوس والطبـيب هيس فلما عاينا حالة الخديوى قـالا إنه فى النفس الأخير وأن لا مفر من القدر المحـتوم وكان إلى هذه الساعة قد اشتـدت به علة ذات الرئة فامتنعت بذلك كل وسيلة ولم يبق لهم قط حيلة.

إن الطبيب له فى الداء مخبرة ... مادام فى أجل الإنسان تأخـير

أمـا العليل فـإن حانت منيتـه ... تاه الطبيب وخانتـه العقاقـير

وقضى الأطبـاء الليل كله فلم تنجح لهم طريقـة وبقى الحال هكذا إلى السـاعة الثالثة من مساء الخميس سابع الشهـر فكبر الخطر وشاع الخبر وطلب الأطباء جماعة آخرين ليشـاوروهم فى الأمر فحضـر الطبيب أمبرون والطبـيب بنيت والطبيب ويلد

فلما شاهدوا الحالة قالوا لم يبق أمل في النجاة فقد استعصى الداء ولا ينفع الدواء وكان لما وصل الخبر إلى القاهرة يطلب هؤلاء الأطباء تسارع كبار قناصل الدول والأمراء من البيت العلوى والكبراء وعظماء القوم إلى حلوان، ومنذ الساعة السادسة غاب العليل عن الصواب ولم يعد يعى وسأله الطبيب كمبانوس عما يؤلمه فلم يجبه بشىء سوى هذه الكلمات «هاتوا لنا الضوء» فتحقق جماعة الأطباء أنه قد دخل فى غمرات النزع الأخير واستمر النزع إلى الساعة السابعة وفيها أسلم الروح فقام الصياح من كل صوب وعلت أصوات الجوارى والخدم والحشم والأتباع بالصياح والعويل فهب الناس من نومهم وتسارعوا إلى رحبة القصر وكلهم باك منتحب ووصل الخبر إلى القاهرة إذ طاف جماعة الخدم والخصيان على بيوت الأمراء يخبرونهم بالحادث وانتشر نعيه وشاع فى كل صوب ودرب فهرع الناس على اختلاف طبقاتهم إلى حلوان وعقد النظار جلسة مجلسهم فى صباح الجمعة بحلوان فجلس بينهم السير بارنج قنصل جنرال الإنجليز وتناجوا فى ذلك طويلا وقد شاع أنهم لم يقروا على تبليغ الخبر من طريقه الرسمى إلى دار السلطنة العثمانية ولكن الخبر وصل إلى المابين والباب العالى من مصادر أخرى كثيرة ثم انعقد المجلس مرة ثانية بسراى عابدين فجلس معهم غرانفل باشا سردار الجيش المصرى وكتشنر باشا صاحب الشرطة فقرروا فيما بينهم كيفية سير الجنازة والإتيان بجثة الفقيد من حلوان ثم قرروا أيضا تبليغ الخبر إلى الباب العالى قيل وقد كان تأخرهم عن ذلك مترتبا على انتظار مجىء الإذن من صاحب السياسة الإنجليزية .

ونشروا فى ضحوة اليوم بالجريدة الرسمية النشرة الآتية : الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى إلى رحمة الله تعالى فى ليلة الجمعة ثامن يناير سنة اثنين وتسعين وثمانمائة وألف فى الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة إفرنكى ليلا بسراى حلوان، وقد أعلن بذلك سمو البرنس عباس باشا خلمى تلغرافيا (بويانا) وينتظر قدومه لمصر بوابور مخصوص وستدير أعمال الحكومة إلى حين حضور سموه مجلس النظار تحت رئاسة سعادة مصطفى فهمى باشا .

الاحتفال بجنازة جثمان الخديوى سيكون فى الساعة الثانية على الحساب الأفرنكى بعد الظهر من هذا اليوم يعنى الجمعة ثامن شهر يناير والجنازة ستشيع من سراى عابدين .

وإيذانا بالحزن ستقفل كافة دواوين الحكومة والمصالح العمومية يومى السبت والأحد تسعة وعشرة يناير .

وانتشر الخبر وذاع ونقله البرق إلى الإسكندرية وسائر المدن والبلدان فى داخلية القطر ودار السلطنة العثمانية والممالك الأوربāوية فى تلك الليلة فأصبحوا يوم الجمعة وقد رفعت الأعلام مجللة بالسواد وألبسوا مصابيح الغاز بالشوارع لفائف سوداء وأناروها فى النهار وأقفلت سائر دواوين الحكومة والبنوكة والمخازن والدكاكين والمدارس والمكاتب ورفع قناصل الدول أعلامهم منكسة وجاء إلى القاهرة كثير من وجهاء البلاد والعمد والأعيان وفى الساعة الأولى من بعد ظهر اليوم حملوا نعش الفقيد من قصر حلوان فى قطار مخصوص فسار به إلى القاهرة وكان قد ركب فى القطار الأمير حسين أخو الخديوى ورجال الديوان الخاص وكثير من كبار الأهلين والأجانب ممن جاءوا حلوان فلما وصل القطار إلى محطة باب اللوق استقبل النعش الغازى مختار باشا مندوب دار السلطنة « وقد كان مقيما فى بلدة مغاغة فى الأقاليم الوسطى تبديلا للهواء فوصله الخبر ليلا فانحدر إلى القاهرة مسرعا» واستقبل النعش مع الغازى مختار باشا جماعة الوزراء ورجال الديوان الخاص والعدد العديد من الوجهاء والعظماء وأجلة القوم فحمل النعش جند الحرس وسار المشهد إلى سراى عابدين بين الزحام وولولة النساء من الشبابيك وأسطحة الدور فلما وصلوا إلى السراى قابلهم العلماء والرؤساء الروحيون وقناصل الدول وأعضاء صندوق الدين ورؤساء المصالح الأميرية وكبار الجند وأصحاب البنوكة والتجار وأرباب الإشارات وأصحاب الطرق وعدد لا يحصى ولا يحصر من الأهالى والقادمين من الأقاليم القبلية والبحرية ثم ساروا بالمشهد فمشت أمامه جمال الكفارة ثم طائفة من الجند الهجانة ثم جماعة من الفوارس المصرية وأمامهم رجال الموسيقى ساكتة زرق الملابس والجند منكسو السلاح ثم جماعة من أصحاب المدافع ومعهم بعض المدافع الكبار ثم مقدمو العساكر المصرية مشاة وركبانا ثم حملة المصاحف والذاكرون ثم مشايخ الطرق والسجاجيد وأرباب الإشارات وبأيديهم البيارق ثم تلاة البردة ودلائل الخيرات ثم تلاة الأحزاب والأوراد ثم نقباء الأشراف والأشراف ثم مشايخ التكايا ودراويشهم ثم طوائف طلبة العلم بالجامع الأزهر ثم تلامذة المكاتب الأهلية والمدارس الأميرية وطلبة مدرسة دار العلوم والمدارس العالية الخصوصية ثم تلامذة المدارس التجهيزية والابتدائية ثم التجار والأمراء والكبراء من الأهلين والأجانب ثم موظفو النظارات والمصالح فى العاصمة وغيرها من مدن القطر ثم رجال المحاكم المختلطة والأهلية والأفوكاتية والمحامون ومديرو صندوق الدين والسكك الحديدية والدائرة السنية والدومين ثم الرؤساء الروحيون وخدمة الدين ثم كبار قناصل الدول ثم النظار ثم الأمراء من البيت العلوى والغازى مختار باشا ورجاله ثم العلماء ثم حملة القماقم

والمباخر ثم أولاد الكتاتيب يحملون المصاحف ثم النعش وحوله جماعة من العسكر وطائفة من أصحاب الشرطة وخلفه جماعة أخرى من الجند المصرى ثم فريق من فرسان الشرطة وعلى النعش سيف الفقيد وبعض ما عنده من النياشين .

وخرج المشهد من سراى عابدين إلى شارع عبدالعزيز إلى العتبة الخضراء إلى الموسكى إلى السكة الجديدة ومنها إلى المشهد الحسينى فوضعوا هناك النعش وصلوا عليه ثم حملوه إلى القرافة فوصلوها قبيل الغروب فدفنوه وفرقوا ساعة دفنه الصدقات وعاد الجمع إلى رحبة عابدين حيث نصبت السرادقات وأوقدت المصابيح فجلسوا للعزاء كما جلسوا للعزاء أيضا بسراى القبة وقصر حلوان فلم تكن إلا ساعة بعد جلوسهم حتى ورد الخبر من الأمير عباس إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا يقول: إن خبر وفاة سيدى ووالدى قد أدهشنى وهذا مصاب عظيم ليس بالنسبة لعائلتى وحدها بل بالنسبة لجميع القطر المصرى أيضا فمتى وصلتنى منكم الأخبار الأكيدة عن الوابور الذى سيصير تحضيره فى تريستة أسافر بلا تأخير وأخبركم بالتلغراف عن ساعة السفر وإنى على يقين من أن الأعمال ستستمر سائرة إلى حين وصولى على أحسن محور بهمة عطوفتكم ورفقائكم أ.هـ.

وجلسوا للعزاء ثلاث ليال متواليات ثم جعلوا يجلسون فى مساء كل يوم خميس إلى تمام أربعين يوما، وفى ضحوة تاسع جمادى الآخرة ورد على السير بارنج إشارة من ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند بطلب موافاتها بتفصيل مرض الخديوى توفيق باشا وأسباب الوفاة قيل فأرسل السير بارنج خبرا مفصلا للحادث وجاءت بعد ظهر اليوم إلى الغازى مختار باشا والرئيس مصطفى فهمى باشا إرادة سلطانية مؤداها أنه لما وصل الخبر بوفاة المغفور له محمد توفيق باشا اجتمع الوكلاء فى الحال وقرروا أن يسند مسند الخديوية المصرية إلى الأمير عباس ووكالة أشغال الحكومة إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا وبقية النظار إلى حين حضور الخديوى عباس وأنه برفع هذا القرار إلى أعتاب المتبوع الأعظم صدرت الإدارة الشاهانية بالموافقة عليه، فعقدوا فى الحال مجلس النظار وقرروا تبليغ هذه الإرادة السلطانية إلى سائر قناصل الدول وأن يوالوا الاجتماع فى كل يوم صباحا حتى يصل الخديوى الجديد .

واختلفت الأقوال فى مرض الفقيد وفى كيفية العلاج وأسباب الوفاة وما فعله الطبيب عيسى باشا وقد أجمع جماعة الأطباء الذين شاهدوا الفقيد قبل موته بقليل

أن عدم العناية بالعلاج وإهمال مراقبة سير المرض كانا سببا فى تسمم دم المريض واختلاط علته الأصلية التى هى النزلة الصدرية بعلل أخرى وأودت بحياته رحمه الله فطلب بعض الأمراء من البيت العلوى وقيل السير بارنج تحقيق أسباب الوفاة ومقاضاة الطبيبين فسأل الرئيس مصطفى فهمى باشا الطبيب هيس والطبيب كمانوس أن يبديا رأيهما فى ذلك وكلم والدة ولى العهد فى هذا الأمر فلم توافق على مقاضاة الطبيبين ورفع الطبيب هيس والطبيب كمانوس تقريرا قالا فيه فى الساعة الرابعة الإفرنجية من صباح الخميس سابع يناير الجارى دعينا للتوجه إلى حلوان على قطار مخصوص لأجل عيادة الجناب العالى فوصلناها منتصف الساعة السادسة الإفرنجية من الصباح واستقبلنا هناك سالم باشا الطبيب الخصوصى بالحضرة الخديوية فأعلمنا بالإيجاز أن الجناب العالى أصيب منذ ثمانية أيام بالنزلة الوافدة وكان سير المرض إلى البارحة عاديا وأن الحمى لم تشتد وطأتها إلا فى الليلة الماضية وأن الجناب العالى كان يعانى الأرق وضيقا فى التنفس وبعض الألم فى الجانب الأيسر وأنه لأجل تخفيف الألم أعطيت له حقنة من المورفين ولما دخلنا بعد هذا التعريف إلى غرفة المريض انذهلنا إذ رأيناه فى حالة موجبة للقلق الشديد وكان منظره على العموم متغيرا ولونه أصفر وبصره شاخصا وكان متكئا على أذرعة جاريتين وظاهرا عليه شدة ضيق التنفس ولم يكن يميز من حوله وكان يشكو على الخصوص عدم إبصاره للضياء وبالفحص وجدنا أن الحمى بلغت درجة أربعين وأن ضربات النبض سريعة وضعيفة جدا ويمكن إيقافها بسهولة ثم فحصنا الجسد فوجدنا ارتشاحا شعبيا رئويا زائدًا فى الرئة اليسرى ونزلة شعبية عامة فى الرئة اليمنى ومع كون حالة الرئتين هى بهذه الشدة فإنها ليست كافية لإحداث الأعراض المخية التى كانت ظاهرة ولذلك وجهنا نظرنا إلى فحص الوظائف الأخرى وخصوصا الكليتين وباستيضاحنا من الأطباء المعالجين عن حالة البول كان الجواب أن لا شىء فيه خارجا عن الحالة المعتادة وعندما أتممنا الفحص أمرنا بعلاج موافق لما ظهر لنا من التشخيص وشددنا فى التنبيه على اتباعه ثم رجعنا إلى مصر لاخذ الاحتياطات اللازمة لمرضانا والعودة إلى جنابه العالى فلما رجعنا إلى حلوان فى الساعة الواحدة الإفرنجية بعد الظهر حصل لنا مزيد الكدر لما رأينا حالته قد أخذت فى الخطر الشديد بكيفية ظاهرة وأن الأعراض التى فى جهة الصدر قد اشتدت وفوق ذلك أن الأعراض المخية قد وصلت إلى درجة ينقطع معها الأمل ودلنا ذلك دلالة واضحة على تسمم الدم بالبول فألححنا فى طلب

البـول فعلمنا حـينئذ أن جنـابه الفخـيم لم يبل منذ الليلة الماضـية فـأدخلنا المجس وتحصلـنا بواسطة القسطرة على كـمية صغيـرة من بول أسود قـاتم فحللناه تحـليلا كيماويا اتضح منه وجود كمية عظيمة من الزلال فى البول فقادنا ذلك إلى أن نعرف بلا ريب طبيعة الداء وهو أن الجناب العالى بعد إصابته بالنزلة الوافدة أصيب بالتهاب رئوى عفن مصحوب بالتـهاب وريدى عفن أيضا وأنه فى هذه الحالة لم يبق لنا أمل ولكن لم يمنعنا ذلك من اتخاذ كافة التدابير والوسائط الفـعالة حسب ما يقتضيه فنّ الطب وإن لم نجـد نفعـا وبمزيد الأسف علمنا أنه لابد مـن الوفاة التى حـصلت فى الساعة السابعة وربع مساء أ. هـ.

فتـحقق الناس طرًا أن الوفاة كـانت بسبب إهمال الطبـيبين وخـصوا الخطأ كل الخطأ بالطبيب عيسى باشا لإخفائه خبر احـتباس البول عن الطبيب سالم باشا بسبب مرض المثانة المزمن وتحدثوا فى ذلك كثيرا فكان سمر ليلهم وحديث نهارهم وأرجف بعضـهم بأن سيـقبض على الطـبيب عيـسى ويودع فى ظلمـات المحبوس حـتى تتم مقـاضاته ثم شاع بعد أيام أن والدة ولى العـهد لم تسمح بذلك وأنهـا أشارت على الرئيس مصطفى فـهمى باشا بالكف عن مـتابعة هذا الحـادث فانكف إذ لم يبق إلا التفويض لله الـواحد القهار الذى لا يزول ولايحول وهو وارث الأرض ومـن عليها وإليه المآب.

قلـت: وهو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على باشا الكبير ولد فى يوم الخمـيس عاشر رجب سنة تسع وسـتين ومائتـين وألف هجرية ولما شب أدخل مدرسة المنيل فـتعلم فيهـا العلوم الأولية ثم انتقل إلى التجـهيزية فتلقى بهـا علومها واللغات العربيـة والإفرنسية والإنجليـزية والتركية والفارسـية ولما بلغ التاسعـة عشرة تولى رئاسـة جلسات المجلس المخـصوص فى سنة ثـمان وثمـانين ثم تولى نظارتى الداخلية والأشغال العـمومية ثم قلد رئاسة مجلس النظار قبل تـوليته الخديوية بقليل وفى سنة تسعين ومـائتين تزوج بابنة الأمير إلهامى بن عبـاس باشا الأوّل والى مصر وفى سنة إحدى وتسعـين ولد له بكره الأوّل الأمير عبـاس وفى سنة ثلاث وتسعين ولد له ابنه الثانى الأمير محمد على وفى سنة أربع وتسعين ولدت له الأميرة خديجة هانم وفى سنة ثمان وتسـعين ولدت شقـيقتهـا الأميرة نعـمت هانم وتولى الخديوية المصرية فى يوم الخميس سابع رجب الفرد سنـة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع عشرى يونيـه سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وكان عـمره يومئذ

سبعا وعشرين سنة هجرية إلا ثلاثة أيام وأقام فى هذا المنصب ثلاث عشرة سنة إلا شهرا ومات فى ليلة الجمعة لسبع مضين من جمادى الثانية سنة تسع وثلثمائة وألف فكانت حياته كلها أربعين سنة هجرية إلا ثلاثة وثلاثين يوما ـ وكان رحمه الله شفوقا على رعيته يواليهم فى شدائدهم ويعفو عنهم كثير التسآل عن حالهم وما هم عليه فى إبان الشدة والرخاء وكان بارًا بذوى قرابته مع رأفة وحنان وشفقة وعطف وأمانة ومروءة وعدل واستقامة وحلم وتواضع وخشية وتقوى وجلال وإنفاق فى الخير وتصدق فى السر والعلن ولكنه قليل الحظ غير موفق الطالع فكانت ولايته كلها مشاكسة ومعاكسة ومحاسدة ومنافسة إن سرت يوما أحزنت أياما وإن صفت عاما كدرت أعواما وهو مع ذلك طويل الروح كثير الجلد والصبر شديد التوكل حسن الاعتقاد فى وحدانية الله تعالى وقدرته فلم يكن يظهر مللا ولا ضجرا ولا قنوطا بل كان دائما هادئ اللب ساكن القلب حتى وافاه القدر المقدور وقد رثاه الشعراء وأبنه الفصحاء وبكاه أصحاب الصحف على اختلاف مذاهبهم فمن قال فى ذلك صاحب المؤيد :

هى الدار ما الآمال إلا فجائع   عليها وما اللذات إلا مصائب

فكم سخنت بالأمس عين قريرة   وقرت عيون دمعها الآن ساكب

يالله أىّ خطب نزل وأى مصاب حل وأى صاعقة صعقت القلوب وأى حادثة شقت لها الجيوب بل ما شأننا وقارعة الخطوب قد اندكت لها جوانب الجنان وفاجعة القلوب قد تولت على خاطر كل إنسان وخارت القوى وحارت النهى ووهى العزم وخان الجلد فإنا لله وإنا إليه راجعون نعم آمنا بقول القائل :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

وأى نعيم بعد نزول هذا الخطب المدلهم الذى قضى على كل جارحة بالثكل فلا عجب أن ناحت الثاكلات وأوحت إلى المحاجر كيف تجود بالعبرات فإنا لله وإنا إليه راجعون يا لله بماذا نسمى الداهية الدهياء والمصيبة العظمى التى فاجأتنا بها حوادث الأيام فقضت بالبأس على الأنام وعلى العبرات بالانسكاب وعلى المهج بالأنين وعلى الأحداق بالرنين كما قيل فى المثل استراحة المنكوب ولكن أين الاستراحة وقد اغتالتها أيدى الحادثات فلتذرف الماء فى بلاء راحة ذائب الجوانح :

فلقد آن لك أن تودع خلة   رثت وكان حبالها أرماما

كذلك تكون فى آمالك يا طالب الراحة فى هذه الحياة الدنـيا وموضوع سعادتها قد تولى

وهل تستطيع النادبات إلى العلا تقول يفدّى الملك بعد الذى حلا
وفى نعيها نعى الملـوك بأسرهم ودون الذى تنعيه كم حادث جلا

فيا مصـيبة الملك والدِّين والدنيا بعد أن قـضى توفيق أمير البلاد المحبـوب نحبه وعاجلته المنون فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقال صاحب الأهرام:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

طلع على مصـر صبـاح اليوم بما أظلم ضحـاها وودّ الناس معه لـو طال ليلها وامتد دحاها ينعى إلى رجالها خطب فقـيد تقومت لمنعاه الأضالع وفقد عظيم ارتجت لوقعه القلوب واستكت لمنعاه المسامع فقامت تندب بفـقد أميرها الكريم على توفيقها المحبوب وتبكى على عزيزها العظيم بما استنزف شئون المدامع واستدرّ حبات القلوب وكيف لا يبكـى الوطن على من كان له أبا شـفوقا بل كـيف لاتسفح عـين العدالة والمكارم على من كـان لها خدنا ورفـيقـا بل كيف لا يندبه وطن ساوى بـعدله بين جميع سكانه حتى ذهب كريما مندوبا ينشده الحال بلسانه:

فكنت لناشيهم أبا ولكهلهم أخا ولذى التقويس والكبرة ابنما

فلتبك عليك البلاد ياتوفيقهـا عدد انعامك وعدلك وتنتحب عليك قلوب أبنائها بمقدار مـا خزنت فيـها من حبـك وفضلك فإنهـا لو بكتك بما لك فى نفوسـها من الفضل والمكارم إذن ما رأينا مـقلة إلا وهى دامعة ولا مدمعـا إلا وهو ساجم فعليك رحمة ربك من ذاهب ذهـبت الأكباد على آثاره وفقيـد فقدنا الصبـر من بعده فحل محله شـديد تذكاره وكريم تولت المـكرمات لما مات وواعظ مـرشد هدى الناس فى الحياة حتى هداهم فى الممات فأىّ آثار فضلك لا يندبون بعدك وأنت لم يطلبوا منك محمدة وعدلاً إلا وجدوهمـا عندك بل أى فضائلك ينساها الناس وقد كنت لهم أبا رحيمـا كما أنت أبوالعـباس أمحاسن فـضلك أم مآثر عدلك أم فيض مـراحمك أم غزارة مكارمك أم حسن أخلاقك أم كرم أعراقك .

أىّ الفضـائل منـك نندب فقدها يا بن المـكارم يا أبا العبـاس
فلقد حويت من المحاسن مـثل ما جمعت جميع الناس لفظة ناس

فقل لمصر الآن أن ترثيك بعد مدائحها ولشعرائها أن تجود فى تأبينك إن كنت أبقيت لغير الحزن مجالا فى قرائحها وللأقلام أن تبكيك بدمع محابرها وللكتاب أن تتفجع عليك بما يسوّد وجوه دفاترها فلقد طالما بيضتها بمحاسن أعمالك ومعاليك فصار يحق لها أن تلبس أثواب الحداد من خط مراثيك فإنك الراحل الذى لم يجعل مطاياه غير القلوب والمودّع الذى لم يترك للناس زادا غير أكباد ملتهبة ودمع مصبوب فنحن نودعك بما أبقى فقدك فى نفوسنا ان كان فيها بقية ولا نزال نذكر رزيتنا فيك مع أمثالك إن كان يوجد مثلها رزية رحمك الله رحمة واسعة عداد حسناتك وأجمل أجرك وأجر البلاد فيك بعدد مبراتك وخيراتك فأنت الكريم فى حالى فقدك ووجودك ويومى حياتك ومماتك.

ثم نتقدم بعدك بالعزاء إلى صاحبة الطهر والعفاف والنجلين الكريمين اللذين يعز علينا أن نعزيهما بك بعد أن كنا نهنئك ببدريهما الكاملين ولكن مثل بيتك الكريم من حمل المصائب ومثل آلك المصون من عودته على التقاء الخطوب واستقبال النوائب فإنا عهدنا الصبر على قدر قلب الثاكل كما عهدنا الأجر فيه على قدر الفقيد الراحل فأيهما اعتبرنا فهم أصحاب الصبر الكريم وإلى أيهما ذهبنا فأنت الفقيد الراحل العظيم نسأل الله أن يعوضهم وإيانا جميل الصبر وأن يكتب لك بما تقدم من عدلك مزيد الأجر فإنك لا تخل قلبًا من المسرة فى حياتك ولم تحزن نفسا قط إلا فى مماتك.

ومن يحزن الناس فقدانه يسر ملاتك دار النعيم

هذا ما سمحت به بادرة الحزن وأجازة على القلم وقع المصاب وهول الفجاءة ووسعة مقام الجريدة وضيق الوقت والصدر منهما أضيق والقلب أصغر وأحرج ولاحولة ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

يا دهر بع رتب المعالى بعده بيع السماح ربحت أم لم تربح
قدّم وأخّر من تشاء فإنه مات الذى قد كنت منه تستحى

وقال صاحب النيل :

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير .

سمو ولى نعمتنا البر الرحيم بنا المشفق علينا خديونا المعظم بالأمس محمد توفيق الأول وهو اليوم الخديوى المرحوم هو اليوم الفقيد العزيز وهو اليوم ساكن

الجنان فى جوار رضوان الله عليه الرحـمة والرضوان ولاحول ولا قوةّ إلا بالله العلى العظيم.

قـد مـات توفـيـقـنـا والدائـم الله	فليـهـرق الدمع ولتسـتـتـبـع الآه
مات الخـديوى الرحيم البـر فطرته	قـديسـة مـلـكيـات سجـايـاه
قـضى فيـاحسـرة الملك العظيم له	ومـات فلـتندب العليـاء عـليـاه
فـازت بطلعتـه الأخـرى ويا أسفـا	أضـحت تعـزى به من بعـد دنيـاه

إى وربك إن خديوينا العـزيز أمير مصـر المحبوب توفيق الأوّل قد فـارق الدنيا مأسوفا عليـه بقلوب الأمةمبكى الشمائل بدموع الوطن انـتقل إلى جوار مولاه طيب ثراه وأكرام فى الفـردوس مثواه فـترك القلوب تسـامى الجيوب فى الانشـقاق وودع العيون المندفقة تجارى المهج المحترقـة فالتقى النهران دم يراق ودمع مهراق وحق لهول هذا اليوم وناهيك به يوم الفراق:

بكينـا خديوينـا العزيز وإنمـا	بكى كل مصرى أميرا ووالدا
ولو أن فى الأقدار ما يبلغ المنى	تمنى بنوها أن يكونوا له الفدا

يعز على الأقلام التى كانت تستمد الخـبر من آثار حكمته أن تبتلى بصب دموع المداد يوم رحلته رحـيل مدهش وسفر بعـيد وأوب غير منتظر إلى يوم مـوعود رسم وداع لكن إلى الأبد موكب حافل لكنه مأتم سيار وحزن قهار وقلوب فى نار وعقول فى انبهار ودهشة محرقة وموقف عظيم « الوداع الوداع» أيها المولى المنعم البر بالأمة الرحيم بالملة المشفق بكل الذى لا نشكو منه إلا يوم هذا الفراق الأليم فالوداع الوداع يا من سهـر لياليه لتنام الرعيـة فى مهد أمانة وأجـهد أيامه ليرغد عـيش الأمة تحت ظلال فضله وإحسـانه لقد قضيت عمـرك العزيز وحياتك الشريفـة وأوقاتك الناضرة وشبيبـتك الوضاء فى توخى الصوالح الوطنية والمصالح الجدية والمنافع العـمومية لم تلهك الدنيا بزهرتها ولم تلفتك جلالة الملك عن التـماس رضا الخالق بالإحسان إلى الخـلائق فلم يسوءهـم منك إلا حزنهم علـيك وبعدك عنهم وهـم فى حاجـة إليك «الوداع الوداع» يا من لم نر من حكمه غير الحكمة ولا من سيرته غير الرحمة فكنت القريب من الضـعيف الرفيق بالبائس الـعافى عن المسئ المتفضل على المحـسن المعزز لأبناء الوطن المحب لخيـر البلاد المعين على السـراء والضراء فلنعم سيرتك الجـميلة وسريرتك الطاهرة وأخلاقك الكريمة ونفسك الراضيةووجهتك المرضية :

شيم ينقضى الزمان وتبقى وثناء تبلى الليالى ويتلى

ومحاسن كلما ذكرناها بكيناها وفواصل كلما تأثرناها تأثرنا بها فعليك الرحمة والرضوان وغاية الحديث فى عالم الإمكان كان وسبحان من يبقى كل شىء فإن نودعك يا خديوينا العزيز بقلوب واجفة وعيون واكفة وأفكار مضطربة مضطرمة وأذهان مستوحشة مندهشة ونسأل الله العظيم أن يجعل لك الفردوس مقرا والنعيم المقيم مقاما والرضا الإلهى قرينا إنه هو الرؤوف الرحيم إلى آخر ما قال.

وقال صاحب الفلاح :

إنا لله وإنا إليه راجعون من مصاب ألم وخطب أعم داهمنا مساء هذا اليوم والجريدة تحت الطبع فقصف منا الضلوع وأهمى منا الدموع وأجمد الدم فى العروق وابتلانا بالصدوع وأجج فينا نار حزن لا يطفئها ماء جفن ماطر وأنزل فى صدر كل سامع رزأ للقلوب فاطر لا ينشرح معه خاطر وذلك بينما كانت الآمال مستبشرة بزوال ما مازج ولى النعم من الاعتلال، والأخبار تفد إلينا مباشرة بتقدم صحة سموه فى خطة الاعتدال إلى الكمال إذ فجعتنا أخبار عصر هذا اليوم بأن صحة سموه عن الاعتدال تحولت واضطربت وتغيرت فاستدعى كبار الأطباء للإسراع إلى حلوان ليتبصروا فى هذا الشأن فما ذاع هذا الخبر وكلمح البصر انتشر إلا وكنت ترى القلوب راجفة والخواطر واجفة والكل فى اندهاش وتلهف إلى أخبار ترد إلى الأرواح الانتعاش - إلى أن قال ولكن أبى الدهر الخؤن إلا أن ينفذ مطالب المنون ويحرق القلوب ويدمى العيون فإنه لم تأت الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة مساء الخميس إلا ونعب غراب الكهرباء بمنعاه فكان أشأم على النفوس من البسوس إذ نعى من قضى وهو حى بذكره ومضى أثره مخلد فى قطره ولى نعمتنا «محمد توفيق» الأول خديوى مصر الذى لم يماثله مماثل فى هذا العصر فياله من خبر تهون دونه الخطوب فإنه فتت الأكباد وأذاب القلوب - إلى أن قال ونعق بوم التلغرافات إلى كل الجهات للقيام بمراسيم التعزية والتأسف ولسان الحال يقول هذا المقال :

أصوت صاعقة أم نفخة الصور	فالارض قد ملئت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهياء داهية	وذاق منها البرايا صعقة الطور
تصدّعت قلل الأطواد وارتعدت	كأنها قلب مرعوب ومذعور
أتى بوجه نهار لا ضياء له	كأنه غارة شنت بديجور
أم ذاك نعى لتوفيق الزمان ومن	قضت أوامره فى كل مأمور

معلى معالم دين الله مظهرها في العالمين بسعى منه مشكور
وحسن رأى إلى الخيرات منصرف وصدق عزم على الألطاف مقصور
بآية العدل والإحسان ممتثل بغاية القسط والإنصاف موفور
مجاهد في سبيل الله مجتهد مؤيد من جناب الله منصور
براية رفعت للمجد خافقة تجرى على علم بالنصر منشور
يانفس مالك في الدنيا مخلفة من بعد رحلته عن هذه الدور
وكيف تمشين فوق الأرض غافلة أليس جثمانه فيها بمقبور
حق على كل نفس أن تموت أسى لكن ذلك أمر غير مقدور
يا نفس فاتئدى لا تهلكى أسفا فأنت منظومة في سلك معذور
إذ لست مأمورة بالمستحيل ولا بما سوى بذل مجهود وميسور
سبحان من ملك جلت مفاخرة عن البيان بمنظوم ومنثور
لا زال أحكامه بالعدل جارية بين البرية حتى نفخة الصور

فيالها من ليلة ليلاء قضتها مصر بين التلهف والتحسر والبكاء، وتنفس الصعداء وقل ما تشاء عن حلوان التى جللها الحزن والهوان مع وفرة الناس للقيام بمراسيم احترام ساكن الجنان فأعظم به من مؤلم ملم وخطب عظيم مدلهم شقت له الجيوب بل تمزقت له القلوب فد محا سطور الصبر من الصدر وظهر به ما فى اللوح مكتوب واقشعر له الوجود إذ قيل مات توفيق مصر والجود.

فانفض يديك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

فأكرم به ميتا كثر إحسانه، وقلد أعناق الجود امتنانه ... إلخ

وأرسل تيكران باشا متولى نظارة الخارجية فى ثامن جمادى الآخرة وتاسع يناير الى جميع قناصل الدول يقول : إنه ليحزننى أن أنبئكم بوفاة مولاى الفخيم الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى إلى رحمة الله فى مساء اليوم السابع من هذا الشهر يعنى شهر يناير بقصره الحلوانى أثر مرض لم يمهله سوى بضعة أيام وإنى بمواصلتكم بهذا المصاب الذى حل بالبلاد أتشرف بإبلاغ جنابكم أن الجناب الخديوى المعظم عباس حلمى باشا قد تبوأ الأريكة الخديوية خلفاً لساكن الجنان والده الفخيم طبقاً للفرمانات الشاهانية العلية اهـ.

وقد رثاه رحمه الله وهنأ ولده العباس بالولاية العلامة الفهامة إسماعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية حالاً فقال :

نحن لله ما لحى بقاء ... وقصارى سوى الإله فناء
نحن لله راجعون فمن ما ... ت ومن عاش ألف عام سواء
يفرح المرء فى الصباح وما يعـ ... ـلم ماذا يكنه الإمساء
ومتاع الدنيا قليل وما يلـ ... ـهو به المرء من حطام هباء
زهد الناس فى الحياة ملم ... روّعتنا بهوله الزنباء
قصر حلوان كنت أنضر قصر ... فيه يحلو ويستطاب الهواء
كنت ذا هيبة يحاذرها الدهـ ... ـر وتكبو أمامها البأساء
كيف أصبحت مستضاماً وللخطـ ... ـب إلى ركنك المنيع ارتقاء
ما كذا عهدنا بعزك ترميـ ... ـه الليالى أو يعتريه انقضاء
كان بالأمس فى ذراك أبو العبـ ... ـاس تحيا ببشره الأحياء
فطوت برده الخطوب وكانت ... قبل تشقى ببعده وتساء
ويح من شيعوه قد أودعوا القبـ ... ـر كريماً يبكى عليه العلاء
وارتضوا بالبكا وما الحزن إلا ... أن تسيل القلوب والأحشاء
عاش فينا عذب البشاشة والأخـ ... ـلاق تروى به النفوس الظماء
وتولى وفى الصدور من الوجـ ... ـد عليه ما ليس يرويه ماء
عطلت مصر من سناه كما قد ... عطلت من حليها الحسناء
كل خطب فى جنب خطبك يا مصـ ... ـر يرجى للناس فيه عزاء
ما يقول الراثون فى فقد توفيـ ... ـق وماذا تحاول الشعراء
والرزايا فى بعضها يطلق القو ... ل وتعيا فى بعضها البلغاء
إن مولاك كان أحسن من تز ... هى بأنوار وجهه البطحاء
كان للتاج فوق مفرقه ضو ... ء لديه تحقر الأضواء
كان يجلو دجى الكوارث إن حلـ ... ـت برأي تعنو له الآراء
كان أدرى الملا بكسب ثناء ... آه لو خلد النفوس ثناء
آل توفيق الكرام ألبسوا الصبـ ... ـر رداء فالصبر نعم الرداء
أنتم الراسخون في علم ما كا ... ن فقولوا من ذا عداه الفناء

أين قـوم شـادوا البـلاد وسـادو ... هـا وكـانت تهـواهم العـليـاء
ملكوا الأرض حقبة ثم أمسوا ... وهمـو في بطونهـا نزلاء
سنة اللّه في البـرية لـم يسـ ... ـتثـن منهـا الملوك والأنبيـاء
لا أعـزيكمـو وأنّـى لقـولي ... أن تعـزى بمثله الحكمـاء
احـمدوا اللّه في العشية والإصـ ... ـباح فـالبـؤس قـد تـلاه هناء
إن يكن من سمـائكم خـر بدر ... مـا حـوت شـبهـه بدورا سمـاء
فلقـد أشـرقت لآخـر أنوا ... ر بهـا يصـدع الدجى وضـيـاء
قـد أرانا العـبـاس بعـد أبيـه ... كـيف يلقى العظائم العـظمـاء
فـاجـتليناه طـود مجـد وسـورا ... دار منه حـول البـلاد بـناء
حـبذا منه همة تتـرك الصـعـ ... ـب ذلـولا وعـزة قـعـسـاء
وثبـات فـي طيـه وثبـات ... للمـعـالي وحكمـة وإباء
وصفـات عن كنهها يعجز الوصـ ... ـف وفـيـها يستغرق الإحصاء
دام يكسو الزمان حسنا ويسدي ... أنعـمـاً لا يشـوبهن انتـهـاء

ورثاه العلامة البحر الفهامة حنفي بك ناصف

القاضي بالمحاكم الأهلية حالاً فقال :

شـقوا القلـوب وغادروا الأطواقـا ... وذروا الدمـو تـقـرح الآمـاقـا
ودعوا النفوس تصبها أجفانكم ... دمـعـا وتسكُبهـا دمـا مـهـراقـا
ذوبوا من الأحزان لا تبـقـوا على ... أكـبـادكم واسـتـنفـدوا الأرمـاقـا
قـد فـارق الدنيـا العزيـز محـمـد ... يا لهف نـفسي من يطيق فـراقـا
خطب دوت في الخافقين رعـوده ... فـزعـا وطبق نعـيـه الآفـاقـا
غشى الأنام ولم يـكن متـوقـعـا ... كـالسحب صـيـفا أرسلت إبراقـا
وأصـمت الأسـمـاع رنة وقـعـه ... والحزن أولى الألسن استـغـلاقـا
ودجـا الزمـان فكل نور حـلكة ... ونبـا المكان فكل رحـب ضـاقـا
ناشـتـدكم يوم ارتحال مـحـمـد ... من في الـرعـيـة لم يودّ لحـاقـا
هل تعلمـون مـعـمـراً أو نـاشـئـاً ... لم يولـه نبـأ الـرى تصـعـاقـا
هل تعلمـون مـعـمـراً أو نـاشـئـاً ... لم يوسع الصـبـر الجـمـيل طلاقـا
أي امـرئ لم يسـقـه يـوم النوى ... كـأسـاً من الروع المرير دهـاقـا
لا كـان يوم سـار فـيـه نعـاته ... يلقـون في مـهج الورى إحـراقـا
هي سـاعة راش القـضاء سـهامـه ... فـيـهـا وحل بنا البـلاء وحـاقـا
أودى فـأي فـريصـه لم ترتعـد ... أم أي قـلـب لم يكن خـفـاقـا

بدر عــراه وهو فى اســتــقــبــاله خسف وصادف في الكمال محاقا

حــملتــه أعناق الرجــال وطالما بنـوا له قـــدّ طـوّق الأعنـاقـــا

تركوه عـمداً فى الظلام ولم يكن يرضى الشـمـوع لـبيتـه إشـراقـا

سكن القـبور وكم قـصور شـادها وأوى إلى غــرف وحـل طبـاقـا

إن فــاق فـى المجـد الملوك فـإنه أرب عليـهم فـى العلى إنفـاقـا

خلق كـمـا سـرت الشمـال ورقـة تحكى الشـمـول لطافـة ومـذاقـا

وبديـهــة تقـف الروية دونـهــا والسـمـع يلقى عنـدها الأوراقـا

وعــبـارة تشـفى الغليـل ومنطق بمجـــامع المعنى يـحـيط نطـاقـا

وتســاول بذر المعــمى واضـحـا وطلاقـــة تولى الـنهى اطـلاقـا

خـفـق السـمـاح عليـه حـتى انه لم يخش طالـب جـوده إخـفـاقـا

لا يرهب الإقــلال بعـد لقــائه ءاف ولا يتـــهـيـب الامــلاقـــا

إن قيل عـفـو فـهـو بحـر زاخـر لايعـرفٌ الجـانى له أعـمــاقـا

طبـعت سـجـايـاه عليـه أمـا ترى ى كل بـادرة له مـــصـــداقـــا

أو قـيل دين فـهـو حـافظ عـهـده كم شـد منه عـرى ومـد ربـاقـا

أو قـيل اصـلاح فـذلك صنعــه فى مـصـر أعـتق أهـلهـا إعـتـاقـا

لدغت أفـاعى الحـادثـات يمينهـا دهراً فكـان لســمـــهـا تريـاقـا

زأب الصـدوع بحكمـة منه وقـد ملئت طبـاق بلاد مـصـر شـقـاقـا

وأقـر فـيـهـا العـدل بعـد تزعـزع والحق أولـى أمــره إحـــقــاقـــا

ونفى الضـلال فمـا تصـدى باطلا إلا وأزهق روحـــه إزهـاقـــا

أولى المعـارف فى البـلاد عـوارفـا والعـلم يـعــد ذيـوله إبـراقـــا

مــهــد الطريق لمـن تقلد بـعـده وهدى السـراء وفــتح الأغـلاقـا

فسـروا بنبراس الذكـاء ليغـمـضوا ممن تـطلع نـحــوها أحـــداقـا

مـــا وفق اللّـه أمــراً فى أمـــة إلا وكــان لنفــعــهـا منسـاقـا

تربت يمين الدهر غـيب فى الثرى هذى الخـصـال وتلكم الأخـلاقـا

سـبق الكرام إلى النعـيم وعهـدنا فــيــه لكل عظيــمــة سبـاقـا

وسـرى إلى الرب الرحيم مـلاقيـا بين الملائـكة الكـرام رفـــاقـــا

عن فـضله حـدث فطيب حـديثـه. يشـفى المحب ويـطرب المشـتـاقـا

يا راحـــلاً عنـا تركت نـفــوسنا تشكو الاسى وتـسـاور الأشـواقـا

لم يبق منا الحزن إلا مهجة ... حرّى وإلا مدمعا دفاقا
خطفتك خاطفة المنية فجأة ... منا وغادرت الجسوم رقاقا
لم تنتثر شهب السماء ولم يطل ... مرض ولم يبد الغراب نعاقا
ويد الردى سرقتك ليلا ليتهم ... حدّوا بقطع يديهم السراقا
بحماك حراس وحولك عسكر ... وصنوف أبهة فكيف أطاقا
إنا على الود الذى مكنته ... منا وعنه لا نحول فواقا
لا كان من ينسى الولاء لسيد ... يوما وينقض بعده الميثاقا

وقال العلامة وهبى بيك ناظر المدارس القبطية على منوال العزاء والهناء :

مهادك فى حسن العزاء ممهد ... وجدك ملحوظ به الكل يشهد
وبدر علاك اليوم أسفر ضوءه ... فأودى به ليل الأسى يتبدد
وعادت بك العليا إلى مصر راقيا ... على الطائر الميمون والعود أحمد
ودانت لك الأقدار حتى كأنها ... بأمرك تشقى من تشاء وتسعد
فوال بنى الآمال واصدع بما تشاء ... فإنك فى كف الزمان مهند
وفوّض إلى اللّه الأمور فإنه ... إليه تعالى فى العظائم يصمد
ومن عجب أن الحوادث جمة ... ولكنّ سهم النائبات مسدّد
أساءت إلى المعروف فينا صروفها ... وما الأجل المحتوم إلا محدّد
وقد كان توفيق البلاد ممكلا ... حديث حلاء للمكارم يسند
تحلى به جيد الفضائل ناشئا ... وأوتى منها فوق ما كان يعهد
وساس شئون الملك خير سياسة ... بها الفضل يحيا والفخار مؤيد
فلا غرو أن ساء الأنام فراقه ... وقد أصبحت نار الجوى تتوقد
ولما رقت شوقا إلى اللّه روحه ... وأنهم فينا المرجفون وأنجدوا
تلافيت أمر القطر خوف تلافه ... وأنت بتوفيق الإله مؤيد
وجاءك مرسوم الخليفة مؤذنا ... بأنك مشروع الوراثة أوحد
وآلت إلى علياك فى العز دولة ... إذا سيّد منها خلا قام سيد
وها أنا أهديك الثناء مرحما ... على الوالد المبرور وهو الممجد
وأنشد يا مولاى فيه مؤرخا ... توفى توفيق العزيز محمد

سنة ١٣٠٩

رعـــاك إلـه العـــرش جـل ثناؤه وألهمك الـصبـر الذى ليس ينفـد
ولا زلت مـــشكـور العنـاية دائمـــاً وذكــرك فى تاريخ مـصـر مـخلد

وقال أحد الأدباء ولم نقف على معرفة اسمه :

من عـادة الدهر بعــد الحـزن إيناس ومــا الـدهر فى أفـــعــالـه باس
يومــاه يـوم به للهـم قــد مــزجت كــأس ويوم هنا تصـفـو به كــاس
فاضرب عن الحزن صفحًا وامح سيرته فـهكذا الدهر نـاس بعــدهـم ناس
واسـتـقـبل الأمـر بالتـعـزيز من ملك فى قطر مـصر فـأنت الروح والراس
وكن على الله فـيـمـا شئت معتـمـداً تطب لـعليـاك بالتـأييـد أنفـاس
بالجـدّ والجـدّ نلت الأمـر ذا شـرف لا غـرو ان أثـمـرت بالعـز أغـراس
وفى الوراثة مـعنًى عـز مـدركـه ومـا بـه بعــد هـذا اليـوم ألبـاس
للّـه من خـلف فـى القـطر عـن سلـف سادوا الورى وعلى هام السـها داسوا
وأجـمـعـوا الأمـر فى تدبير مـلكهم والرعـيـة بالإنصـاف كم سـاسـوا
هذا وعــذراء فكـرى لا أخـال مـعى بل ما معى الشتداد الخطب إحساس
ولا لـســـــان به أطـرى ولا قـلـم يجرى وللضيق ذرعا ضـاق قرطاس
وفـــضـل والدك المرحـــوم لست له أنسى ولو ضـمنى بالموت أرمـاس
لا زال فى كــرم الـرحــمن مـسكنه جنات عـدن بهـا الريحـان والآس
ولا تزال لهـذا القطر مـعـتـصـمـاً وأعـين اللّه مـهـمـا كـانت حـراس
وهذه حـكمـــة المولـى مـــؤرخـــة توفـيـق مـات وولى اليـوم عــبـاس
سنة ١٣٠٩

قلت : ومن غريب الاتفاق أنه رحمه الله ولد فى يوم خميس وتولى الخديوية المصرية فى بوم خميس ودخل القاهرة فى موكبه بعد الفتنة العرابية فى يوم خميس وتوفى إلى رحمة الله تعالى فى يوم خميس فسبحان الله الأزلى الذى لا يموت سبحان مالك الملك والملكوت منه المبتدأ وإليه المنتهى وهو رب الآخرة والأولى وله ما سلب وما أعطى وما أخذ وما أبقى ولا شك أنا جميعاً فى هذا السبيل نسعى وأن إلى ربك الرجعى.

اللهم كما حمدتك فى المبدأ أحمدك فى الختام وأشكرك على مر الأيام اللهم كما وفقتنى للحق فارض عنى الخلق ووفقهم إلى معذرتى والتجاوز عن عثرتى فإنى أشفق أن يكون عملى هذا عملاً حابطاً أو شغلاً ساقطاً اللهم إنى معترف بأنى لست من أهل ذاك الشان ولا من خيل هذا الرهان ولكنى قد توكلت عليك سيدى فأعنتنى ولم تكلنى إلى نفسى فلم أضل وأريتنى الغى غياً فاجتنبته وأريتنى الهدى هدى فاتبعته والوقت غير مساعد والمانع غير مباعد والفراغ متعسر وجمع الخاطر غير متيسر لاسيما وقد أصبت فى خلال العمل بما غلب على التجلد والصبر وفتّ فى العضد والصدر من فقد شقيق لى كان مرجعى فى كل أمورى إليه ومعتمدى فى سائر أعمالى وآمالى عليه وحيدى الذى أورثنى فقده جزعاً وهلعاً وسقماً ووجعاً وغماً وهماً وحزناً لم تزل فى أحشائى ناره وفى صدرى أواره فعندك اللهم أحتسبه واستمنحك أحسن الصبر فلك سيدى الأمر اللهم أنت تعلم أن بغية مُرَادى وغاية مَرَادى تعميم النفع بقدر اجتهادى فإن كنت قد أجريت البراعة فى هذه الغاية إلى منتهاها وبلغت النفس من هذه الأمنية مشتهاها فذلك لكى أجمع بين قديم الأيام وجديدها وأكفى المطلق مؤنة الرجوع إلى قريب الأخبار وبعيدها ليتم النفع بما ألفته منها وصنفته بعد إعمال الفكرة وإجهاد الفطرة اللهم أنت تعلم أنى فعلت ما فعلت تقرباً إلى أبناء وطنى بخير ما لدى بعد معاناة الأهوال فى طول الأحوال وما بى إطراء نفسى ولا تزكية عملى فإنى أكره المباهاة فوفقهم مولاى إلى أن يتقبلوه بالقبول والإقبال وهم فى كمال الأحوال كى أنال من عملى ما أتمناه وأفوز من أملى فى وجهك سيدى بأسناه ولا حول ولا قوة إلا بك فأنت حسبى وكفى.

دبيت للمجد والساعون قد بلغوا — جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله — لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

إلى هنا تم الجزء الرابع من الكافى وبه ختام الكتاب فإذا فسح الله لى فى

الأجل ووفقنى إلى شىء من العمل وأعاننى على بلوغ الأمانى عنيت بجمع أخبار أيام صاحب الولاية الحالية والأريكة الخديوية (عباس باشا حلمى الثانى) ورتبتها كما تستحق من التنسيق والترتيب فإنها جمعت أمورا عجيبة وحوادث غريبة وشئونا تستوقف الطرف وتستدعى الإسهاب فى الوصف وكلها تشهد بأن الأمير «حرسه الله» وأناله ما يتمناه لم يقل قبل أن يعلم ولم يجب قبل أن يفهم ولم يعزم قبل أن يفكر ولم يقطع قبل أن يقدر وهو مع ذلك بين عاملين شديدين وفريقين متقاربين متباعدين فكيف به إذا قضى الله تعالى بنفاذ ما أراد وانقشعت سحب تلك المحن عن سماء هذه البلاد فزاده الله نبلاً وعزماً وفضلاً وحزماً ووقاه من شرها حتى يطويها على غرها.

وما أحسن ما قيل :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلا لصابر

وقول آخر:

فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني ... فالرزايا إذا توالت تولت

وإذا أوهنت قواك وجلت ... كشفت عنك جملة وتجلت

***

اللهم هب لى مغفرة من لدنك

وارحمنى يا أرحم الراحمين

(تـم)

يقول طه بن محمد قطريه رئيس التصحيح بالمطبعة الكبرى الأميرية :

إن أحسن الحديث فى القديم والحديث بعد التيمن باسم الله تعالى حمد الله جل ثناؤه على نعم تنهل على عباده وتتوالى فالحمد لله القديم وجوده العام للخاص والعام كرمه وجوده الأول قبل كل شىء بلا بداية الآخر بعد كل شىء بغير نهاية المنزه عن أن يؤرخ بزمان أو يسئل عنه أين كان ومتى كان كيف وهو الذى خلق الزمان والمكان نحمده أن جعلنا خلفاً للأولين وقص لنا عنهم أحسن القصص فى كتابه المبين وحدثنا عمن مضى بما فيه مزدجر من الأنباء فكان لنا قدوة حسنة فيمن أحسن منهم وعبرة بينة بمن أساء ونصلى ونسلم على نبى الرحمة وهادى الأمة أول الأنبياء موجوداً وآخرهم مولوداً وعلى سائر النبيين والمرسلين ومن اقتفى أثرهم وسلك سبيل المهتدين.

أما بعد: فإن من حسن البخت وصفاء الوقت للمصريين عامة وطلاب التاريخ خاصة طبع هذا الكتاب الجليل الذى لم تسمح الأيام له فى بابه بمثيل المسمى بـ«الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث: تأليف حضرة الفاضل السرى الوجيه الكامل صاحب العزة «ميخائيل شاروبيم» مدير الأملاك الميرية بنظارة المالية حالاً بلغه الله آماله وأكثر فى فضلاء المصريين أمثاله شمر حفظه الله عن ساعد الجد والاهتمام وقام بتأليف هذا التاريخ أحسن قيام فجاء كتابا بأحوال مصر ومجرياتها حافلاً وبشرح حال ملوكها وأمرائها وعادات أهلها وما كانوا عليه محيطاً كافلاً وبسط الكلام على سياسة ملوكها فى كل زمان من عهد القدماء ثم من بعدهم دولة بعد دولة إلى الآن أعنى سنة ١٣٠٩ هجرية التى انتقل فيها إلى الدار الباقية المرحوم محمد توفيق باشا خديو مصر السابق عليه الرحمة والرضوان فلله در هذا المؤلف من همام خدم الوطن بهذا العمل الجليل والصنيع الحسن الذى قلد به الأعناق أعظم المنن فلا غرو إن افتخرت به مصر على سائر الأمصار وكانت به القاهرة قاهرة لغيرها من الديار فلقد شيد لها حفظه الله ذكراً وشرح لأبنائها صدرا ورفع لهم قدراً فما من المصريين أحد إلا وهو فى حاجة إلى تحصيله واضطرار إلى الوقوف على إجماله وتفصيله ليعرف نعمة الله عليه فى هذا القطر السعيد المغمور بهذا النهر الذى يغار منه البحر الطويل المديد هذا القطر الذى كم شدت إليه الرحال وتطاولت إليه أعناق الرجال وخيضت فيه لجج المعاطب والأهوال وأجاد فى وصفه من قال :

إن مصر لأطيب الأرض عندى	ليس فى حسنها البديع التباس
وإذا قستها بأرض سواها	كان بينى وبينك المقياس

ومن قال :

مـا مـصـر إلا منـزل مـسـتـحـسن فـاسـتـوطنوه مـشـرقـاً أو مـغـرباً
هذا وإن كـنتم علـى سـفـر به فـتـيـمـمـوا منـه صـعـيـداً طيـباً

وبالجملة فهو تاريخ وحـيد وعقد فى فن التاريخ فريد جاء كاسـمه كافياً وللداء العضـال شافيـاً وكان لنا دليـلاً قاطعاً وبرهانـاً ساطعاً على فـضل هذا العلم المعلوم وعظيم شأنه بين العلوم كما اتفقت عليه الكلمة وأصبح من القضايا المسلمة :

لـيس بـإنسـان ولا عـالـم من لـم يع التـاريخ فى صـدره
ومن درى أحـوال من قـد مـضى أضـاف أعـمـاراً إلى عـمـره

قد سلك المـؤلف حفظه الله فى كتـابه سبـيل الاحتـياط والتحـرى التام فـجاء بالأحوال والمجريات والمقاصد السياسية فضلاً عن الأخبار من مصادر الصدق الموثوق بها وهذه هى الطريق القويم التى أفلح من تمسك من المؤرخين بسببها وتأدّب بأدبها

الصـدق أوفى خليل إن ظفـرت به يغنيك عن جمع إخـوان وأحلاف
ومن أراد بأنـبـاء الذين مـضـوا علما وصدق حـديث يكفه الكافى

هذا وقد ضـاعف المؤلف حفظـه الله إحسانه فـقام بطبـعه على نفـقتـه وباشر تصحيحـه وإتقانه بمطبعة بولاق الأميرية فى عـهد الدولة الفخيمة الخديوية العـباسية أطال الله أمدها وأسبغ ظلالها وألهم العدل والإصـلاح رجالها وتم طبعـه المنير فى أوائل رجب سنة ١٣٢٣ من هجـرة البشـير النذير عليـه الصلاة والسـلام وعلى آله الكرام وأصحابه بدور التمام.

(ولما آذن طبعه بالتمام قرظه حضرات الأدباء الفضلاء أرباب الأقلام)

كتب فى ذلك العلامة البحر الفهامة صاحب السعادة

إسماعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية

الجليلة حالاً يخاطب حضرة المؤلف فقال :

قرأت كتاب الكافى ووقفت من تحرِّيك الوقائع المدونة فيه وإبرازك إياها لمحب التاريخ على مبلغ الأتعاب التى تجشمتها فى تأليفه فجاء وله نصيب من اسمه كافيا وافيا يخبر عن أحوال القرون الماضية بأفصح عبارة فأثنيت على واضعه مع المثنين وأعجبت به مع المعجبين كيف لا وقد اشتمل على فوائد كل الناس فى الانتفاع منها سواء وإن اختلفت منهم المشارب والأهواء يقرأ فيه الأمراء كيف تحاط الممالك ويسلك أقوم المسالك وتجد فيه قادة الملل كيف تعلو الدولات وتصح السياسات ويتعلم منه من دونهم كيف تتضافر الأمم وتتعاضد الهمم للوصول إلى السعادة ضالة كل مجتمع إنسانى. إن الشاعر إذا أجاد فى شعره قيل له أجدت والناثر إذا أحسن فى نثره قيل له أحسنت والحكيم يصيب كبد الحقيقة يهنأ بأصبت والمؤرخ يتحرى الصدق فى تحرير وقائع التاريخ يقال له صدقت أما أنا وقد اطلعت على كافيك وعرفت ما تحملته من العناء فى جمعه وتنسيقه وترصيفه فإنى أهنيك بقولى لك أجدت وأحسنت وأصبت وصدقت.

وقرظه العلامة المفضال صاحب العزة

وهبى بك ناظر المدارس القبطية قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

ما صدحت حمائم البيان للدلالة عما فى الجنان بأوجب من حمد الله القديم ولا ترنحت عذبات البان بأطرب من صلاة الملك المنّان على كل رسول كريم فالحمد لله أجرى أعنة الأقدار بما تتضاءل عنه أفكار الحكماء ولم يعزب عن علمه وهو الفاعل المختار مثال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

(أمــا بعــد) فإن التــاريخ على ما بين دفتــيه من خصائص حــسان ألحق أدناها بأقصــاها لم يغادر من شئــون بنى الإنسان صغــيرة ولا كبيــرة إلا أحصاها وحــسبنا شاهداً على ذلك ما أودعــه تاريخ مصر من آثار ملوك وخلفاء ســالت بأعناق مطيها أباطح الكلام وكادت تنقلب بها رياح العفاء فى غضــون الجاهلية والإسلام فلا غرو إن جاس خلال ديارها فريق من العلماء علقوا بأذيال التنقيب عن آثار القدماء فدونوا فى وصفها كما فعل عبد اللطيف الـبغدادى العالم الطبيب من الحوادث والأخبار ما حقه أن يتخذه اللبيب كتاب إفادة واعتبار وإن للإفرنج فى تمحـيص تاريخها القديم استقراء لا يتأتى لكل محسن ولايقدره كل من أقلته الغبراء وأظلته الخضراء من أبناء هذا اللسان فأحر بـنا أن نطاول كل ذى استئثار بمزايا هذا البلد الأمين ومـا شاده فيه السلف الصالح من الآثار الباقـية فى العالمين ولقد ألمّ العالم الفــاضل صاحب العزة ميخــائيل بك شاروبيم فى مؤلفـه هذا كل الإلمام بما رقّ وراق وتناولته يد المريد على طرف التمام من ثمـرات الأوراق فهو عقد فـريد اندمجت فيه الحـوادث كأنها اللؤلؤ والمرجان أو جنة كثيرة الأغاريد بهــا من كل فاكهة زوجان فلو أنه تداولته الأيدى فى العهد الـذى غبر عهد ابن خلدون لـقوم ما أورده فى ديوان المبتدأ والخـبر بالدون أو مثله العيان لابــن خلكان لألحق وفيات الأعيان بخبر كــان فللّه در مؤلفه أتحف ذوى الألباب بما تأخذ بمجامع الأفـئدة حلاه واستخلص فى تاريخ مصــر القشر من اللباب ومصر كنانة الله فى أرض الله فيا أيها الأريب الذى أصاب مرمى السداد وأماط اللثام عن كل غــريب من مآثر الآباء والأجــداد لقد سحــرتنا بآياتك بعــد أن ألقينا عــصا الاذعان والتسليم ومحوت سيـئات الزمان بحسناتك وفوق كل ذى علم عليم لازلت تستــدرج فى أى غرض تتوخاه مــا يهزأ بقلائد العــقيان على لبات الغــوانى ونصيب مؤلفك فى الاستغناء به عما سواه نصيب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى إن الله على ما يشاء قدير وبإجابة هذا الدعاء جدير.

وقرظه ايضاً الكـاتب الفاضل والنحرير الكـامل صاحب العزة جرجس بك حنين أحد مديرى الأموال المقررة بنظارة المالية حالاً مخاطباً لحضرة المؤلف فقال:

لقد طالعــت يا أخا الفضل تأليـفك «الكافى» فى التاريخ وأمــعنت النظر فيــما احتــواه وجئت بهذا لأؤدى لجنــابك واجب التهنئة على مــا توفقت إليــه من أحاسن

التأليـف والتصنيف التى بهـا أكسبت علم التـاريخ مجـداً وفخراً وخـلدت لاسمك السعيـد على مر الدهور كرامـة وذكراً. نعم تحق التهانى فكتـابك يا ناصر الأدب له قيمة عظيمة ومنزلة رفيعة بين المؤلفات العربية إذ ليس هو مجرد أقاصيص وأخبار أو مجموع روايات وأسـمار بل هو ميدان تمثلت فيه مـشاهد العالم بأدق مظاهرها يرى الناظر فيـه مشهـد نشأة الخلق وأدوار تكوينه، يرى أيضـاً دولاباً عظيمـاً جداً تديره العناية الالهية على سلاسل نظامية طبيعية ينشأ من احتكاكها تولد الحوادث العمرانية والتقلبات المدهشة العصرية من قيام الممالك والأمم والشعوب ونهوضها وارتقائها بعد الانحطاط أو ذبولها بعـد الإيناع وانحلالها بعد الارتباط وغـير ذلك من مجتـمعات الأضداد التى بها تتمثل حقائق أحوال الأمم وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وأخلاقهم وتربيتهم وعلومهم وآدابهم ولغاتهم وصنائعهم وأنسابهم وأفرادهم ومن قام منهم من الأنبيـاء والأولياء والملوك والـقواد والعلمـاء والحكماء والكتـاب والخطباء والشـعراء وغيرهم من أبطال العصور.

التاريخ الصادق هو أعـدل شاهد على درجات العصور فى الحـضارة والمدنية بل هو حيـاة الذكرى بل هو رسول القـدم لمن يشاء الاقـتداء بفضـائل السلف من أمور الدِّين والدنيـا وكيف لا يكون كـتابك أيهـا السيـد من أصدق التـواريخ وقـد عرف القاصى والدانى عن شمائلك من شهامة فى الأخلاق وطيب فى الأعراق وقلم سيّال ولسان قوّال ورجحان فى البرهان واقتدار فى البيان وسلامة فى الذوق ودقة نظر فى الترتيب وجميل وضع فى الأساليب وحسن اخـتيار فى الألفاظ الرقيقة ولطف صنع للمعانى الرشيقة وغير ذلك من الخصائص الغراء والشيم الشماء التى أكسبت الكتاب طلاوة فوق طلاوته وجـذبت النفوس لتلاوته والاعتـماد على صحة روايتـه. وكيف لايتخذ كتابك حجة يرجع إليه ويعوّل عليه وقـد توفرت فيه شروط الاعتماد الخمسة وهى :

أولاً: اعتبـار الينابيع المستمدة مـواده منها. **ثانيـا** : صفـاؤه من شبهـة الغرض وابتعاده عن هوى التعصب فى المدح أو الهجاء. **ثالثاً**: جلاء عباراته ودقتها وخلوها من التطويل الممل. **رابعاً**: تجرده عن الخرافات والترهات التى لا يحتملها العقل ولا يقبلهـا الذوق السليم. **خـامسـاً**: تجرده من التمويه والتلبـيس والمصانعة التى يراد بها التزلف لأصحاب المراتب السامية.

ولايقف بى القلم عند هذا الحد فى وصف هذا الكتـاب الجليل الشأن لأنك قد

زدته بهجة وغلاء بما أوردته فيه من تقرير الحوادث التى عاصرتها بنفسك والمعلومات الواسعة التى لجنابك فى الوقـائع السياسية أثناء الثلث الأخير من القـرن التاسع عشر واعتمادك فيما عدا ذلك على أقوال صفوة المؤرخين والكتاب ـ وأخيراً فإنى أكرر لك التهنئة وأرجو الله أن ينفع البلاد بعلمك وقلمك وأن يوفقك لكل خير.

